

أخبار النساء
ابو الفرج ابن الجوزي

To PDF: <http://www.al-mostafa.com>

باب ما جاء في وصف النساء

المرأة بين معاوية وصعصعة

قال معاوية لصعصعة: أيّ النساء أحبّ إليك؟ قال: المواتية لك فيما تهوى. قال: فأيهن أبغض إليك؟ قال: أبعدهنّ لما ترضى. قال معاوية: هذا التّقد العاجل. فقال صعصعة: بالميزان العادل. وقال معاوية: ما رأيت نهماً في النساء إلّا عرف ذلك في وجهها.

قضاء عمر في المرأة

شكت امرأةٌ إلى زوجها قلةً إتيانه إليها، فقال لها: أنا وأنت على قضاء عمر. قالت: قضى عمر أنّ الرّجل إذا أتى امرأته في كلّ طهرٍ فقد أدّى حقّها.

الشّرّ مجلبة للجماع

وقع بين امرأةٍ وزوجها شرٌّ فجعل يكثر عليها بالجماع، فقالت له: أبعدك الله!

اقتلها وعليّ إثمها

جاء رجلٌ إلى عليّ، رضي الله عنه، فقال له: إنّ لي امرأةً كلّما غشيتها تقول قتلتني. فقال: اقتلها وعليّ إثمها.

غدرت به زوجته فقتلها

غزا ابن هبيرة الغساني الحارث بن عمر فلم يصبه في منزله، فأخرج ما وجد له، واستاق امرأته فأصابها في الطّريق، وكانت من الجمال في نهاية، فأعجبت به، فقالت: له أنج فوالله لكأني به يتبعك كأنه بعيرٌ أكل مراراً. فبلغ الخبر الحارث فأقبل يتبعه حتّى لحقه فقتله، وأخذ ما كان معه، وأخذ امرأته. فقال له: هل أصابك؟ فقالت: نعم، والله ما اشتملت النساء على مثله قط. فلطمها ثمّ أمر بها فوثقت بين فرسين ثمّ أحضرهما حتى تقطعت. ثمّ أنشأ:

آية الودّ حبّها خيتعور

بعد هذا لجاهلٍ مغرور

كلّ أنثى وإن بدا لك منها

إنّ من غرّه النساء بوذ

رأي الحكماء وغيرهم في المرأة

قال بعض الحكماء: لم تنه قط امرأة عن شيءٍ إلا فعلته. للغنوي:

فإِنَّه واقعٌ لابدّ مفعول

إنّ النّساء متى ينهين عن خلقٍ

ولغيره:

إنّ النّساء ودادهنّ مقسّم

لا تأمن الأنتى حبتك بودها

وغداً لغيرك كفها والمعصم

اليوم عندك دلها وحديثها

رأي أعرابي في النّساء

سئل أعرابي عن النّساء، وكان ذا همٍّ بهنّ، فقال: أفضل النّساء أطولهنّ إذا قامت، وأعظمنّ إذا قعدت، وأصدقهنّ إذا قالت، التي إذا ضحكت تبسّمت، وإذا جوّدت؛ التي تطيع زوجها، وتلزم بيتها؛ العزيزة في قومها، الذّليلة في نفسها، الولود، التي كلّ أمرها محمود.

الذّنب يساوي الطّلاق

طلّق رجلُ امرأته، فقالت له: أبعد صحبةً خمسين سنةً قال: ما لك عندنا ذنبٌ غيره؟.

رأي عبد الملك في الجوّاري

قال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جاريةً للمتعة، فليتخذها بربريةً ومن أراد للولد فليتخذها فارسيةً؛ ومن أرادها للخدمة فليتخذها روميةً.

الأصمعي وبنات العمّ

قال الأصمعي: بنات العمّ أصبر، والغرائب أنجب. وما ضرب رؤوس الأبطال كابن عجمية.

أعوذُ بعدلك يا أمير المؤمنين

من جور مروان

ذكر أنّ معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يومٍ بمجلسٍ كان له بدمشق على قارعة الطّريق، وكان المجلس مفتّح الجوانب لدخول التّسيم، فبينما هو على فراشه وأهل مملكته بين يديه، إذ نظر إلى رجلٍ يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلاً حافياً، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ، فتأمّله معاوية ثمّ قال لجلسائه: لم يخلق

الله مَن أحتاج إلى نفسه في مثل هذا اليوم. ثم قال: يا غلام سر إليه واكشف عن حاله وقصته فوالله لئن كان فقيراً لأغنيته، ولئن كان شاكياً لأنصفته، ولئن كان مظلوماً لأنصرته، ولئن كان غنياً لأفقرته. فخرج إليه الرسول متلقياً فسلم عليه فردّ عليه السلام. ثم قال له: مَن الرَّجُل؟ قال: سيدي أنا رجلٌ أعراييٌّ من بني عذرة، أقبلت إلى أمير المؤمنين مشتكياً إليه بظلامه نزلت بي من بعض عمّاله. فقال له الرسول: أصبحت يا أعرايي؟ ثم سار به حتّى وقف بين يديه فسلم عليه بالخلافة ثم أنشأ يقول:

معاوي يا ذا العلم والحلم والفضل
ويا ذا التدى والجود والتأبل الجزل
أتيتك لما ضاق في الأرض مذهبي
فيا غيث لا تقطع رجائي من العدل
وجد لي بإنصافٍ من الجائر الذي
شواني شيئاً كان أيسره قتلي

سباني سعدى وانبرى لخصومي
وجار ولم يعدل، وأغصني أهلي
قصدت لأرجو نفعه فأتابني
بسجنٍ وأنواع العذاب مع الكبل
وهمّ بقتلي غير أن منيتي
تأبّت، ولم أستكمل الرزق من أجلي
أغثني جزاك الله عني حنةً
فقد طار من وجدٍ بسعدى لها عقلي

فلما فرغ من شعره قال له معاوية: يا أعرايي إني أراك تشتكي عاملاً من عمّالنا ولم تسمعه لنا! قال: أصلح الله أمير المؤمنين، وهو والله ابن عمّك مروان بن الحكم عامل المدينة. قال معاوية: وما قصّتك معه يا أعرايي. قال: أصلح الله الأمير، كانت لي بنت عمّ خطبتها إلى أبيها فزوجني منها. وكنت كلفاً بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها والقراية. فبقيت معها يا أمير المؤمنين، في أصلح حالٍ وأنعم بالٍ، مسروراً زماناً، قرير العين. وكانت لي صرمةً من إبلٍ وشويهات، فكنت أعولها ونفسي بها. فدارت عليها أفضية الله وحوادث الدهر، فوقع فيها داءٌ فذهبت بقدره الله. فبقيت لا أملك شيئاً، وصرت مهيناً مفكراً، قد ذهب عقلي، وساءت حالي، وصرت ثقلاً على وجه الأرض. فلما بلغ ذلك أباهما حال بيني وبينها، وأنكرني، ووجدني، وطردني، ودفعها عني. فلم أدر لنفسي بحيلة ولا نصرة. فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مشتكياً بعمي، فبعث إليه، فلما وقف بين يديه، قال له مروان: يا أيّها الرجل لم حلت بين ابن أخيك وزوجته؟ قال: أصلح الله الأمير، ليس له عندي زوجة ولا زوجته من ابنتي قط. قلت أنا: أصلح الله الأمير، أنا راضٍ بالجارية، فإن رأى الأمير أن يبعث إليها ويسمع منها ما تقول؟ فبعث إليها فأتت الجارية مسرعةً، فلما وقفت بين يديه ونظر إليها وإلى حسننها وقعت منه موقع الإعجاب والاستحسان، فصار لي، يا أمير المؤمنين خصماً وانتهرني، وأمر بي إلى السجن. فبقيت كأني حررت من السماء في مكانٍ

سحيق، ثم قال لأبي بعدي: هل لك أن تزوجه مني، وأنقذك ألف دينار، وأزيدك أنت عشرة آلاف درهم تنتفع بها، وأنا أضمن طلاقها؟ قال له أبوها: إن أنت فعلت ذلك زوجتها منك. فلما كان من الغد بعث إليّ، فلما أدخلت عليه نظر إليّ كالأسد الغضبان، فقال لي: يا أعرابي طلق سعدى. قلت: لا أفعل. فأمر بضربي ثم ردني إلى السجن، فلما كان في اليوم الثاني قال: عليّ بالأعرابي. فلما وقفت بين يديه، قال: طلق سعدى. فقلت: لا أفعل. فسلب عليّ يا أمير المؤمنين خدامه فضربوني ضرباً لا يقدر أحدٌ على وصفه، ثم أمر بي إلى السجن؛ فلما كان في اليوم الثالث قال: عليّ بالإعرابي، فلما وقفت بين يديه قال: عليّ بالسيف والتطع وأحضر السياف، ثم قال: يا أعرابي، وجمالة ربي، وكرامة والدي، لكن لم تطلق سعدى لأفرق بين جسدك وموضع لسانك. فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طليقة واحدة على طلاق السنة، ثم أمر بي إلى السجن فحبسني فيه حتى تمت عدتها ثم تزوجه، فبني بها، ثم أطلقني. فأتيتك مستغيثاً قد رجوت عدلك وإنصافك، فارحمني يا أمير المؤمنين. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أجهدني الأرق، وأذابني القلق، وبقيت في حبها بلا عقل، ثم انتحب حتى كادت نفسه تفيض. ثم أنشأ يقول:

والنار فيه الدمار

فيه الطيب يحار

فدمعها مدرار

فما عليه اصطبار

ولا نهاره نهار

فؤاده مستطار

يشيك الجبار

في القلب مني نار

والجسم مني سقيم

والعين تمطل دمعا

حملت منه عظيماً

فليس لي ليلاً

فارحم كئيباً حزينا

اردد عليّ سعادي

ثم حرّ مغشياً عليه بين يدي أمير المؤمنين كأنه قد صعق به قال: وكان في ذلك الوقت معاوية متكئاً، فلما نظر إليه قد حرّ بين يديه قام ثم جلس، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. اعتدى والله مروان بن الحكم ضراراً في حدود الدين، وإحساراً في حرم المسلمين: ثم قال: والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديث ما سمعت بمثله. ثم قال: يا غلام عليّ بدواة قرطاس فكتب إلى مروان: أمّا بعد، فإنه بلغني عنك أنك اعتديت على رعيتك في بعض حدود الدين، وانتهكت حرمة لرجل من المسلمين. وإنما ينبغي لمن كان والياً على كورة أو إقليم أن يغضّ بصره وشهوته، ويزجر نفسه عن لذاته. وإنما الوالي كالراعي لغنمة، فإذا رفق به بقيت معه، وإذا كان لها ذنباً فمن يحوطها بعده. ثم كتب بهذه الأبيات:

وليت، ويحك أمراً لست تحكمه	فاستغفر الله من فعل امرئ زاني
قد كنت عندي ذا عقلٍ وذا أدبٍ	مع القراطيس تمثالاً وفرقان
حتى أتانا الفتى العذريّ منتحياً	يشكو إلينا بيثٌ ثمّ أحزان
أعطي الإله يميناً لا أكفرها	حقاً وأبرأ من ديني ودياني
إن أنت خالفتني فيما كتبت به	لأجعلتك لحماً بين عقباي
طلّقت سعاد وعجلها مجهزةً	مع الكميت، ومع نصر بن ذبيان
فما سمعت كما بلغت في بشرٍ	ولا كفعلك حقاً فعل إنسان
فاختر لنفسك إمّا أن تجود بها	أو أن تلاقي المنايا بين أكفان

ثمّ ختم الكتاب. وقال: عليّ بنصر بن ذبيان والكميت صاحبيّ البريد. فلما وقفا بين يده قال: اخرجنا بهذا الكتاب إلى مروان بن الحكم ولا تضعاه إلاّ بيده. قال فخرجنا بالكتاب حتى وردا به عليه، فسلمّا ثمّ ناولاه الكتاب. فجعل مروان يقرأه ويردّده، ثمّ قام ودخل على سعدى وهو باك، فلما نظرت إليه قالت له: سيدي ما الذي يبكيك؟ قال كتاب أمير المؤمنين، ورد عليّ في أمرك يأمرني فيه أن أطلقك وأجهّزك وأبعث بك إليه. وكنت أودّ أن يتركني معك حولين ثمّ يقتلني، فكان ذلك أحبّ إليّ. فطلّقتها وجهّزها ثمّ كتب إلى معاوية بهذه الأبيات:

لا تعجلنّ أمير المؤمنين فقد	أوفي بنذك في رفقٍ وإحسان
وما ركبت حراماً حين أعجيني	فكيف أدعى باسم الخائن الزاني
أعذر فإنك لو أبصرتها لجزت	منك الأماقي على أمثال إنسان
فسوف يأتيك شمسٌ لا يعادها	عند الخليفة إنسٌ لا ولا جان
لولا الخليفة ما طلّقتها أبداً	حتى أضمنّ في الحدِّ وأكفان
على سعادٍ سلامٌ من فتى قلقي	حتى خلّفته بأوصابٍ وأحزان

ثمّ دفعه إليهما، ودفع الجارية على الصّفة التي حدّث له. فلما وردا على معاوية فكّ كتابه وقرأ أبياته ثمّ قال: والله لقد أحسن في هذه الأبيات، ولقد أساء إلى نفسه. ثمّ أمر بالجارية فأدخلت إليه، فإذا بجارية رعبوية لا تبقي لناظرها عقلاً من حسننها وكمالها. فعجب معاوية من حسننها ثمّ تحوّل إلى جلسائه وقال: والله إنّ هذه الجارية لكاملة الخلق فلئن كملت لها النعمة مع حسن الصّفة، لقد كملت النعمة لمالكها. فاستنطقها، فإذا هي أفصح نساء العرب. ثمّ قال: عليّ بالأعرابي.

فلما وقف بين يديه، قال له معاوية: هل لك عنها من سلوٍ، وأعوّضك عنها ثلاث جوارٍ أبكارٍ مع كلِّ

جاريةٍ منهنّ ألف درهمٍ، على كلّ واحدةٍ منهنّ عشر خلعٍ من الخزّ والدّيّاج والحريّر والكتّان، وأجري عليك وعليهنّ ما يجري على المسلمين، وأجعل لك ولهنّ حظاً من الصّلات والتّفقات؟ فلما أتمّ معاوية كلامه غشي على الأعرابيّ وشهق شهقةً ظنّ معاوية أنّه قد مات منها. فلما أفاق قال له معاوية: ما بالك يا أعرابيّ؟ قال: شرّ بال، وأسوأ حال، أعود بعد لك يا أمير المؤمنين من جور مروان. ثمّ أنشأ يقول:

لا تجعلني هداك الله من ملكٍ
كالمستجير من الرّمضاء بالنّار
أردد سعاد على حرّان مكتئبٍ
بمسي ويصبح في همٍّ وتذكار

قد شفّته قلقٌ ما مثله قلقٌ
وأسعر القلب منه أيّ إسعار
والله والله لا أنسى محبّتها
حتّى أعيب في قبري وأحجاري
كيف السّلوّ وقد هام الفؤاد بها
فإن فعلت فيني غير كفّار
فأجمل بفضلك وافعل فعل ذي كرمٍ
لا فعل غيرك، فعل اللّؤم والعار

ثمّ قال: والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني كلّ ما احتوته الخلافة ما رضيت به دون سعدى. ولقد صدق مجنون بني عامر حيث يقول:

أبي القلب إلّا حبّ ليل وبغضت
إليّ نساء ما لهن ذنوب
وما هي إلّا أن أراها فجاءةً
فأهمت حتّى لا أكاد أحيب

فلما فرغ من شعره، قال له معاوية: يا أعرابيّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: إنك مقرّ عندنا أنّك قد طلّقتها، وقد بانت منك ومن مروان، ولكن نخيّرها بيننا. قال: ذاك إليك، يا أمير المؤمنين. فتحول معاوية نحوها ثمّ قال لها: يا سعدى أينما أحبّ إليك: أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وقصوره، أو مروان في غضبه واعتدائه، أو هذا الأعرابيّ في جوعه وأطماره؟ فأشارت الجارية نحو ابن عمّها الأعرابيّ، ثمّ أنشأت تقول:

هذا وإن كان في جوعٍ وأطمار
أعزّ عندي من أهلي ومن جاري
وصاحب التّاج أو مروان عامله
وكلّ ذي درهمٍ منهم ودينار

ثمّ قالت: لست، والله، يا أمير المؤمنين لحدثان الزمان بخاذلته، ولقد كانت لي معه صحبة جميلة، وأنا أحقّ من صبر معه على السّراء والضّراء، وعلى الشّدّة والرّخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذي كتب الله لي معه. فعجب معاوية ومن معه من جلسائه من عقلها وكما لها ومروءتها وأمر لها بعشرة آلاف درهمٍ وألحقها في صدقات بيت المسلمين.

الذي جاء شرّ من الذي مرّ

قال أبو الخطاب: كان عندنا رجلٌ أهدبٌ فسقط في بئرٍ فذهبت حدبته وصار آدرأً فدخل عليه جيرانه يهتئون به فقال: الذي جاء شرٌّ من الذي مرَّ.

أعرابيٌّ يصف رجلاً جميلاً

ذكر أعرابيٌّ رجلاً جميلاً فقال: والله لو أبصرت العيدان لتحركت أوتارها، ولو رأته عاتق الخدر لطار خمارها.

وقال بعض الأعراب:

مرجل الرأس ذو بردين مزّاح
في كفه من رقى إبليس مفتاح

ماذا تظنّ سليمي إن ألم بنا
حرّ عمامته، حلّو فكاهته

رأي عائشة في خطبة الرسول

صلى الله عليه وسلّم

يروى، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، خطب امرأةً من كلب فبعث عائشة رضي الله عنها تنظر إليها، فقال لها: "كيف رأيتها؟" قالت: ما رأيت طائلاً. قال: "لقد رأيت طائلاً، ولقد رأيت حالاً تجدونها حتى اقشعرت كل شعرة فيك". فقالت: وما دونك سترٌ يا رسول الله.

يرى صورته في وجه قتادة

ويروى عن حيّان بن عمير أنّه قال دخلت على قتادة بن ملحان فمرّ رجلٌ في أقصى الدار فرأيت صورته في وجه قتادة، وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم، مسح وجهه.

ذو النسب والحسب قريبٌ من الله

وعن عون بن عبد الله، أنّه قال: من كان في صورة حسنة، ونسبٍ، وحسبٍ، ووسّع عليه في الرزق، كان من خلصاء الله.

إشراق الوجه يجلو البصر

ويروى عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله عز وجل، فإن كانوا في القراءة سواء، فأصبحهم وجهاً. وعن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "النظر إلى الوجه يجلو البصر؛ والنظر إلى الوجه القبيح يورث الفلج".

جمال الوجه فتنة لعباد الله

قال حليان المغني: دخلت دار هارون الرشيد فإذا أنا بجارية خماسية، أحسن الناس وجهاً، على يدها سطران مكتوبان بالغالية، فقرأتهما فإذا هما مما عمل في طران الله، فتنة لعباد الله وقال بعضهم: سمعت يحيى بن سفيان يقول: رأيت بمصر جاريةً بيعت بألف دينار، فما رأيت وجهاً قط أحسن من وجهها صلى الله عليها. قال: فقلت له يا أبا زكريا، مثلك يقول هذا مع ورعك وفقهك؟ فقال: وما تنكر عليّ من ذلك؟ صلى الله عليها وعلى كلِّ مليح: يا ابن أخي الصلاة رحمة.

غدرت بزوجها وخانتها

قال: خرج شامة بن لؤي بن غالب من مكة حتى نزل بعمان على رجلٍ من الأزد.

وكان شامة بن لؤي من أجمل خلق الله، فقراه وبات عنده. فلما أصبح قعد يستنّ فنظرت إليه زوجة الأزد فاعجبها، فلما رمى، مضت إلى سواكه فأخذتها فمصّتها، فنظر إليها زوجها، فحلب ناقةً وجعل في اللبن سماً وقدمه إلى شامة، فغمزته المرأة، فأراق اللبن وخرج يسير. فبينما هو في موضعٍ يقال له خرق الجميلة أهوت ناقته في عرفجة؟ فانتشلها وفيها أفعى فنهشت مشفريها فحككتها على ساق شامة فمات. فقالت الأزد:

جملة لما أنبتّ منها قرينها

وإياك نخفي عبرةً سترينها

وشرّ مصافي حلةٍ من يخونها

إذا ناقتي حلّت بليلٍ ففارقت

فقلت لها حثي قليلاً فإنني

غدرت بنا بعد الصفاء وخننتنا

الصبا تبلسم قلب المحزون

قال سليمان بن أبي سمخ تزوّج رجلٌ من تهامة امرأةً من نجدٍ فلما نقلها إليه، قالت له: ما فعلت ريحٌ من نجدٍ كانت تأتينا يقال لها الصبا ما رأيته ههنا؟ فقال: يحجزها عنّا هذان الجبلان. فأنشأت تقول:

نسيم الصبا يخلص إليّ نسيمها

أي جبلي نعمان بالله خلياً

فإنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَفَّسْتَ
عَلَى قَلْبٍ مَحْزُونٍ تَحَلَّتْ هُمُومَهَا
أَجْدُ بَرْدَهَا أَوْ يَشْفِ مَنِّي حَرَارَةً
عَلَى كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَمِيمَهَا

فَرَقَهُمَا الْفَقْرُ وَجَمَعَهُمَا مَعَاوِيَةُ

قال الزبير حدثني أبي، قال: كان عندنا بالمدينة رجلٌ من قريش كانت له امرأة تعجبه ويعجبها، وكانت تحول بينه وبين طلب الرزق، وكل ذلك يحتمله لشدة محبته إياها فلما ساءت حاله وكثر دينه قال:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشًا لِنَفْسِهِ
شَكَى الْفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرَ
وَصَارَ عَلَى الْأَدْنَيْنِ كَلًّا وَأَوْشَكَتْ
قُلُوبُ ذَوِي الْقَرْبَى لَهُ أَنْ تَنْكَرًا
فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمَسِ الْغِنَى
تَعْشُ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتَعْذِرَا
وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بَدُونٍ وَلَا تَنْمَ
وَمَا طَالِبُ الْحَاجَاتِ مِنْ حَيْثُ يَبْتَغِي
وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مِنْ كَانَ مَعْسِرَا
مَنْ النَّاسِ إِلَّا مِنْ أَجْدٍ وَثَمْرَا

فلما أصبح قال لامرأته: أنا، والله أحبك، ولا صبر لي على ما نحن فيه من ضيق العيش، فجهّزيني. فجهّزته، فخرج حتى قدم على معاوية بن أبي سفيان فقام بين الصّفيين، فأخبره بحاله، وأنشده الشعر. فرق له، وأمر له بألف دينار وقال له: لقد دلّني حالك على محبتك لأهلك وكراهيتك لفراقهم فخذ وانصرف إليهم فأخذها وانصرف راجعاً.

أَلَا أَيُّهَا الْغَيْرَانِ

وأنشد الزبير بن بكار: لجميل بن معمر:

لَنْ كَانَ فِي حَبِّ الْحَبِيبِ حَبِيبِهِ
لَقَدْ حَلَّتْ عَلَيَّ حُدُودُ
أَلَا أَيُّهَا الْغَيْرَانِ بِي أَنْ أَحَبَّهَا
بَسْخَطُكَ يَنْمُو حَبَّهَا وَيَزِيدُ
فَلَوْ مَتَّ كَانَ الْمَوْتُ يَخْلَفُ لِلْهُوَى
لَهَا فِي فُؤَادِي الرَّوْحَ وَهُوَ جَدِيدُ
وَتَحْسَبُ نِسْوَانٌ إِذَا جِئْتَ زَائِرًا
بَثِينَةَ آتِي بَعْضَهُنَّ أُرِيدُ
فَتَخْبِرُكُمْ عَنَّا جَنُوبٌ مُضَلَّةٌ
وَتَخْبِرُنَا هَتَفَ الْعَشِيِّ بَرُودُ
إِذَا بَلَغْتُمْ حَاجَةَ رَجَعْتَ لَنَا
إِلَيْكُمْ بِأُخْرَى مِثْلَهَا فَيَعُودُ

يَا حَبْدَا أُمَّ الْوَالِدِ

وأنشد أيضاً لجميل بن معمر العذري:

على عجل والتاعجات وقوف
لنا ولها بالمنحنى ومصيف
وبطن كطي السابري لطيف

تمتعت منكم يا بئين بنظرة
فيا حبذا أم الوليد ومربع
بشتان يسترن الوشاح عليهما

أتصرم حبلي يا جميل؟

وأنشده في مثل ذلك أيضاً:

بجال القذى منها بثينة بالكحل
إليك الهوى قيد الجنينة بالحبلى
ما مسّ رأس من دهان ولا غسل

بثينة قالت يا جميل وسودت
أتصرم حبلي يا جميل وقادني
وقالت لقينا ما لقيت من الهوى

أنت طالق

قال علي بن المغيرة كانت زينب بنت يوسف بن الحكم بن أبي عقيل أخت الحجاج بن يوسف لأبيه وأُمّها الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي عند المغيرة بن شعبة فرآها يوماً تتخلل بكرة فقال لها أنت طالق والله لئن كان هذا من غذاء لقد جشعت ونهمت، وإن كان من عشاء لقد أنتت وقذرت، فقالت قبح الله الذواق والمطلاق ولا يبعد الله، والله ما هو الذي ظننت، ولكنه استمسك بين أسناني شظية من السواك.

وكان سبب قول التميمي فيها: إن أباه يوسف بن الحكم مرض، وكان يزيد معاوية قد ولّاه صدقات الطائف وأرض الشراة، فنذرت إن الله عافاه أن تمشي إلى الكعبة معتمرة من الطائف، وبين الطائف ومكة يومان وليلتان، فمشت ذلك في اثنين وأربعين يوماً، وكانت جميلةً وسيميةً فلقبها التميمي، وهو محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي، ببطن نعمان فقال:

به زينب في نسوة عطرات
وأقبلن لا شعناً ولا غبرات
يلبين للرحمن مؤتجرات
تطلع رياه من الفترات
وبمشين شطر الليل معتمرات
وأبدت بنان الكف للجمرات

تضوّع مسكاً بطن نعمان إذ مشت
تهادين ما بين المحصب من منى
مررن بفتح روائح عشية
لها أرج بالعنبر الورد فاغم
يخبئن أطراف البنان من التقى
وليست كأخرى أوسعت جنب درعها

ومالت تراءى من بعيدٍ فأفتنت
تقسّمن لبي يوم نعمان إنني
يظاهرن أستاراً ودوراً كثيرةً
ولما رأت ركب التّميري أعرضت
دعت نسوةً شمّ العرائن كالدمّ
فأبدين لما قمن يحجن زينا
قلت: يعافير الطّبّاء تناولت
فلم ترعيبي مثل ركب رأيت
وكدت اشتياقاً نحوها وصبابةً
وغادرت من وجدي بزنب غمرةً
وظل صحابي يظهرن ملامتي
فراجعت نفسي والحفيظة إنما
وقد كان في عصياني التّفنّس زاجرٌ

برؤيتها من راح من عرفات
بليت بطرفٍ فاتك اللحظات
ويقطعن دور اللّهُو بالحجرات
وكنّ من أن تلقينه حذرات
أوانس ملء العين كالطّيبات
بطوناً لطاف الطّيّ مضطمرات
يناع غصون الورد مهتصرات
خرجن من التّعير معتمرات
تقطّع نفسي إثرها حشرات
من الحبّ إنّ الحبّ ذو غمرات
على لوعة الأشواق والزّفرات
بللت رداء العصب بالعبرات
لذي عبرةٍ لو كنّ معتبرات

زينب سبب نفي التّميري وعذابه

قال مسلم بن جندب الهلالي كنت مع عبد الله بن الزبير بنعمان وغلّام ينشد خلفه، وهو يشتمه أقبح الشتم. فقلت له: ما هذا؟ فقال: دعه فإنّي تشبّيت بأخت هذا الحجّاج بن يوسف. فلما قتل الحجّاج عبد الله بن الزبير دعا النّاس إلى البيعة، فتأخّر محمّد حتّى قام في آخر النّاس ولم يجد من الحضور بدلاً. فلما دنا منه قال: أمحمّد؟ قال نعم: قال: أنشدني ما قلت. فأنشدته قصيدتي هذه فقال: لولا أن يقول قائلٌ لضربت عنقك، أنج لا نجوت ولا تعد فقال: لا تعرضت لاسم زينب ما بقيت.

قال: ولما خاف التّميري من الحجّاج عاذ بأبيه يوسف بن الحكم. فلما أرسل عبد الملك الحجّاج لقتال ابن الزبير، قام إليه يوسف بن الحكم وقال له: يا أمير المؤمنين إنّ فتىً منّا ذكر زينب بما يذكر به العربيّ ابنة عمّه، وقد علمت أنّ هذا لم يزل يتقلّب عليه. قال عبد الملك: أليس التّميري؟ قال: بلى، قد سمعت شعره فما سمعت مكرهاً ثمّ أقبل على الحجّاج وقال: لا تعرض له.

ويقال إنّ عبد الملك لما بلغه شعر التّميري كتب إلى الحجّاج: قد بلغني ما كان من قول التّميري، فلا تدنه فتقطعه، ولا تقصه فتغره. ولكن أهمله واله عنه. فلم يهجه الحجّاج ومن قوله فيها:

ومصيفها بالطائف

تشتو بمكّة نعمة

أكرم بتلك مواقفنا

وبزئيب من واقف

ومن شعره فيها أيضاً:

وما أنس من شيءٍ، فلا أنس شاديا

بمكةً مكحولاً أسياً مدامعه

تشرّبه لون الزّرافي في بياضه

أو الزّعفران خالط المسك أدرعه

ترك زوجته وتعلّق بأروى وقسطا

قال الزّبير بن بكار: حكى الحسن بن علي مولى بني أمية قال: خرجت إلى الشام فلما كنت بالسّمهاء ودنا الليل رفع لي قصرٌ فأهويت إليه، فإذا أنا بامرأةٍ لم أر قط مثلها حسناً وجمالاً. فسلمت، فردت عليّ السّلام، قالت: ممن أنت؟ قلت: من بني أمية. قالت: مرحباً بك، أنزل، فأنا امرأةٌ من أهلك. فأنزلتني أحسن منزلٍ وبتّ أحسن مبيتٍ.

فلما أصبحت قالت: إن لي إليك حاجة. قلت ما هي؟ فأشارت إلى ديرٍ، وقالت: إن في ذلك الدير ابن عمي، وهو زوجي، وقد غلبت عليه نصرانيةٌ في ذلك الدير، فتمضي إليه وتعظه. فخرجت حتى انتهيت إلى الدير، فإذا برجلٍ في فئائه من أحسن الرجال وأجملهم. فسلمت عليه، فردّ وسأل. فأخبرته من أنا، وأين بتّ، وما قالت المرأة. فقال: صدقت، أنا رجلٌ من أهلك من أهل الحارث بن الحكم. ثمّ صاح: يا قسطا. فخرجت إليه نصرانيةٌ عليها ثياب حبرات وزنانير ما رأيت قبلها ولا بعدها أحسن منها. فقال: هذه قسطا، وتلك أروى، وأنا الذي أقول:

وبدلت قسطا بعد أروى وحبّها

كذاك لعمري يذهب الحبّ بالحبّ

وما هي أما ذكرها بنبطيةٍ

كبدر الدّجى أوفى على غصنٍ رطب

شاطرته مالها ولم تدعه للستفر

قال الزّبير بن بكار: حدّثني عبد الملك بن عبد العزيز قال كانت بنت أبي عبيدة بن المنذر بن الزّبير عند أبي بكر بن عبد الرّحمن من محرمة وكان يخدمها وكانت ذات مالٍ، ولا مال له. وكانت تضنّ عنه، فخرج يريد الشّام بطلب الرّزق، فلما كان ببعض الطّريق رجع فمرّ بجلسائه بالمصلّى فقالوا: زاد خير. ثمّ دخل عليها فقالت له: أبخبر رجعت؟ فقال لها:

بينما نحن من بلاكت فالقا

ع سراعاً، والعيش تموي هويّا،

خطرت خطرةً على القلب من ذكراك وهنأ، فما استطاع مضياً

قلت: لبيك، إذ دعاني لك الشوق

ق وللحادين حب المطيبا

قالت له: لا جرم والله لأشاطرتك مالي فشاطرته إياه ولم تدعه للسفر بعد.

منازل الأحبة الخالية تثير الشوق

روى إبراهيم بن حسن بن يزيد، عن شيخ من ساكني العقيق قال: إني لواقفٌ بالعقيق، وقد جاء الحاج، إذ طلعت امرأة على راحلة وحوها نسوة، فنظرنا إليها، فأعجبتنا حالها. فلما كانت حذاء قصر سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان، عدلت إلينا، ونحن ننظر. فتزلت قصراً من تلك القصور فأقامت فيه ساعة ثم خرجت، فركبت ومضت، وإن عينيها لتتقطان دموعاً. فقلت: لأنظر ما صنعت هذه المرأة؟ فدخلت القصر، فإذا كتاب يواجهني في الجدار، فقرأته فإذا هو:

منازل من يهوى معطلةً فقراً؟

أليس كفى حزناً لذي الشوق أن يرى،

يزيد اشتياقاً كلما حاول الصبرا

بلى، إن ذا الشوق الموكل بالهوى،

وتحته مكتوبٌ: وكتبته آمنة بنت عمر بن عبد العزيز. وكان سفيان بن عاصم زوجها فتوفى عنها.

شكيت إلى الله عقوق أبنائها

ذكروا عن عائشة، رضي الله عنها، أنها لما قدمت البصرة خطبت وبحضرتها الأحنف بن قيس وموسى بن طلحة ورجال من وجوه العرب، فقالت بعقب ذلك: إني أتيت أطلب بدم الإمام المذكور برمته الحرمات الأربع. فمن ردنا عنه بحق قبلناه، ومن ردنا عنه بباطل قاتلناه. فربما نصر الظالم على المظلوم والعاقبة للمتقين.

قال لها موسى بن طلحة: قد فهمنا كلامك، فما الأرق حرمات؟ فقالت: حرمة الشهر، وحرمة البلد، وحرمة الإمامة، وحرمة الختونة، لا يصلح إمرأ بعده أبداً. فقال لها الأحنف رحمه الله: إني سائلك ومغلظ لك في المسألة فلا تجدين عليّ. أعندك عهدٌ من رسول الله في خروجك هذا؟ قالت: لا. قال لها: أفعدك عهدٌ من رسول الله أنك معصومةٌ من الخطأ؟ قالت: لا. قال لها: صدقت، أن الله رضي لك المدينة فأبيت إلا البصرة، وأمرك بلزوم بيت نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم فتزلت بين الحرسه الضبي. ألا تخبريني يا أم المؤمنين أللحرب قدمت أم للصّح؟ قالت: بل للصّح، فقال لها: والله لو قدمت وما بينهم إلا الخفق بالتعال والقذف بالحصبا، ما اصطلحوا على يديك، فكيف والسيوف على عواتقهم؟ قالت: لقد استغرق حكم الأحنف هجاه أيّاي، إلى الله أشكون عقوق أبنائي.

أقنعوه فعفا الحجاج عنهم

ذكروا، أنه لما قتل الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث، وأسر من معه، أمر بضرب رقابهم. فقال رجلٌ منهم: أيها الأمير إني أتيت إليك بشيء. قال: وما هو؟ قال: إني كنت جالساً يوماً عند عبد الرحمن فأخذ في عرضك، ففاضلته عنك. قال: ومن يشهد لك بذلك؟ فقال رجلٌ من الجماعة يشهد له بما قال فقال: اتركوه. ثم قال للرجل: أفلا كنت مثله؟ قال له: بغضي فيك لم يدعي أنك فيك بمثل ذلك. فقال: واتركوا هذا لصدقه. ثم قام رجلٌ آخر فقال: أيها الأمير لئن كنا أسأنا في الخطأ لما أحسنت في العفو. فقال الحجاج: أف لهذه الجيف، أما والله لو كان فيكم من يتكلم والله ما قتل منكم أحد.

باب يذكر فيه

من صيره العشق إلى الأخلاط والجنون

خبر فورك المجنون

قال بعضهم: مررت بفورك المجنون وقد أتاه أهله بطبيب، يقال له عبد العزيز، ليعالجه. فسملت وقلت: ما خبرك يا أبا محمد؟ فقال: خبري والله مع هؤلاء المجانين ظريف. أنا عاشقٌ وهم يظنون بي حنة وقد أتوني بهذا الطبيب ليعالجي. ثم أنشأ يقول:

أتوني بالطبيب فعالجوني	على أن قيل مجنونٌ غريب
طبيب الأجر فيه عساه يوماً	من الأيام يعقل أو يتوب
وما صدقوا الفتى محوي قلبي	أجل من أن يعالجه الطبيب
وما بي حنة لكن قلبي	به داء تموت به القلوب
وما عبد العزيز طبيب قلبي	ولكن الطبيب هو الحبيب

خبر المجنون أبي عبد الله

وقال آخر: مررت بمجنونٍ بيده قصبَةٌ وفيها عذبةٌ، وهو يقول:

إذا ما رايةٌ رفعت بنجدٍ	تلقأها عرابة باليمين
-------------------------	----------------------

قال فأخذت بيد الغلام الذي كان يتعشقه فوقفت بين يديه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال في ساعةٍ بديهيةٍ:

أصبحت منك على شفا جرفٍ	متعرضاً لموارد التلّف
------------------------	-----------------------

متحرِّفاً من غير منحرف
كلفي عليك أشدَّ من أسفي

وأراك نحوي غير ما ثقةٍ
يا من أطال بصدّه أسفي

فورك في جماعة من الصّبيان

وقال بعضهم: احتزت بفورك المجنون وهو في جماعة من الصّبيان راكبٌ قصبَةً، وهو يقول: من كان عاشقاً منكم فيقف في الميمنة، ومن كان معشوقاً فيقف في الميسرة. ووقف هو في القلب، ففكّر وقال:

إلى كم ترى في قصّتي غير محسن
سألتك بالرحمن ألاّ رحمتني
لما لمتني في حبّه، وعذرتني
بنفسي ومالي من هواه أجنني

إلى من أشتكيك إلى من
إلى كم يدوم الحجر والعتب بيننا
فيا لائمى في أحمد لو رأيتّه
أتعجب أن قالوا بفورك جنة

ثمّ قال: احمّلوا على بركة الله. فحملت الميمنة على الميسرة، وأخذ كل عاشقٍ معشوقه.
قال ولقيته في يوم خميسٍ في جماعة من الصّبيان، منصرفاً. من تشييع غلامٍ كان يحبّه، وهو يحدثهم ويلطم
خده ويقول: ما أحرّ الفراق؟ فقلت: يا أبا محمّد، من أين أقبلت؟ قال: من تشييع الحجّاج. وبكى، وقال:

فودّعهم لما استقلّوا وودعوا
فقلت: ارجعي قالت: إلى أين أرجع؟

هم رحلوا يوم الخميس عشيةً
فلما تولوا ولّت النفس معهم،

ولا فيه إلاّ أعظم تتقعقع
وأسمعت أذني فيك ما ليس أسمع

إلى جسدٍ ما فيه لحمٌ ولا دم
وكذّبت فيك الطّرف، والطّرف صادقٌ

أخبار علوية المجنون

قال الحسن بن رفاعة: رأيت علوية المجنون يوماً وفي عنقه حبلٌ والصّبيان يجروّنه، فلما رأني قال: يا أبا
عليٍّ بماذا يعذب الله أهل الجرائم يوم القيامة؟ قلت: بأشدّ العذاب. قال: فأنا، والله، في أشدّ من عذابه. لو
عذب الله أهل جهنّم بالحبّ والهجر والرّقباء لكان أشدّ عليهم، ثمّ قال:

لم يبق لي جسمٌ ولا قلب
من شأنه المحجران والعتب
من دونه الأستار والحجب

انظر إلى ما صنع الحبّ
أنحل جسمي حبّ من لم يزل
ما كان أغناني عن حبّ من

قال: وحضرته وقد أتوه بطبيبٍ يعالجه، والطبيب يعاتبه ويقول له: لو تركتني لعالجتك ورجوت أن تبرأ، فقال في ذلك:

أنا منك أعلم أيها المتكلم
أنا عاشقٌ، فإن استطعت لعاشقٍ
ما بي أجلّ من الجنون وأعظم
براً مننت به وأنت محكم
هيهات، أنت لغير ما بي عالمٌ
وسواك، بالداء الذي بي أعلم
دائي دسيسٌ، قد تضمّنه ال
هوى، تحت الجوانح ناره تتضرم

خبر بعض المجانين

قال: ومررت ببعض المجانين وهو جالسٌ وحده متفكراً، فقلت: ما خبيرك؟ قال:

أقول بأعلى الصّوت ما بي جنّة
وما بي جنونٌ غير أنّ بليتي
وما بي إلا حبّ من ليس ينصف
إذا انكشفت منه أرقّ وألطف
بنفسي وأهلي، من أرى الموت جهرّة،
إذا ما بدا منه البنان المطرف

شعر فورك في غلامه غلب

قال: وكان فورك يتعشق غلاماً يسمى غلباً فأتاه بعض إخوانه فقال: إني خارج نحو غلب، فهل من حاجة؟ فقال:

نعم أوصيك إن أبصرت غلباً
وقل هذي وصية مستهام
فقبل وجنتيه وإن تأبى
إليك قتلتته شغفاً وجباً

وصف ظبية بالعفاف فأكرم

ودخل مهدي على بعض ولاة اليمامة، فسأله الوالي عن مجلسه مع ظبية، واستنشده ما قال فيها من الشعر. وكان ابن ظبية حاضراً، فأنشده مهديّ بيتين يصفها فيهما بالعفاف. فقام ابنها فترع عن نفسه جبة خبزٌ ووشاحاً ألقاهما على مهديّ لما وصف أمّه بالعفاف.

القيطنون ونكاح الفتيات

قال أحمد بن يحيى: كان القيطنون متملكاً على أهل المدينة. وكان قد سامهم حسفاً، وشرط عليهم أنه لا تدخل امرأة على زوجها حتى يبدأ بها. فزوج مالك بن عجلان الخزرجي أخته. فلما جهّزها وأراد

إهداءها إلى زوجها، وهو قاعدٌ في مجلس الخزرج، إذا خرجت أخته على الحيِّ سافرةً. فغضب مالك، ووثب إليها ليتناولها بالسيف، وقال لها: فضحتي، ونكّست رأسي، وأغضضت بصري. فقالت له: الذي تريد بي أنت شر من هذا وأقبح وأفضح. إن كنت تهديني إلى غير بعلي فيصيبني، فهذا شرٌّ من خروجي سافرةً حاسرةً! فقال مالك: صدقت، وأبيك.

وسكت عنها، فلمّا رجعت إلى خدرها دخل إليها، فقال لها: هل فيك من خير؟ فقالت: أيّ خيرٍ عند امرأةٍ إلاّ أن تناك؟ فقال لها اكنمي ما أريده. قالت: نعم. فشرح لها ما عزم عليه. فلمّا أمست أتتها رسل القبطون ليأتوه بها، فلبست وتعطّرت وتخلّت، ولبس معها وتعطّر واشتمل على السيف ومضى معها في جملة نسائها إلى قصر القبطون. فلمّا خلا بها في مشربة له، ودنا منها تنحّى نساؤها عنها إلاّ مالك وحده، فقال القبطون: بحقّ التوراة ألاّ أمهلتني ساعةً حتّى ترجع نفسي فيها إليّ، وتركت أختي هذه تؤانسني عندك، فأنتي ألفتها من بين أهلي؟ فقال: نعم. فلمّا هدأت ساعةً. قال: تقدّمي إلى فراشك حتى ألقك. فقام القبطون إلى باب مشربته فأغلقه، وأتى فراشه. وكشف مالك عن السيف ثمّ ضربه به حتّى برد. فاجتمع الحيان من الأوس والخزرج فسودّوه على أنفسهم، وملّكوه، إذ أراحهم من عار الدهر. وذلت اليهود بعد ذلك فلم ترفع رأساً.

خبر سلامة الزرقاء

مع عبد الرحمن بن أبي عمّار

قال الزبير بن بكار: كان عبد الرحمن بن أبي عمّار من عبّاد أهل مكّة، فسمي القسّ من عبادته. فمرّ ذات يومٍ بدار سهل بن عبد الرحمن بن عوف مولى سلامة الزرقاء، وهي تغني، فسمع غناءها، فبلغ منه كلّ مبلغ، فرآه مولاها وتبيّن ما لحقه، فقال له: هل لك أن تدخل إليها وتسمع منها؟ فامتنع وأبى، فقال له: أنا أفعدك في موضعٍ تسمع من غنائها ولا تراها ولا تراك. ولم يزل به حتّى دخل وسمع غناءها، فأعجبه، فقال له: هل لك أن أخرجها لك؟ فامتنع بعض الامتناع، ثمّ أجابه. فأخرجها إليه، وأقعدها بين يديه، وغنّته، فشغف بها، وشغفت به. وكان أديباً ظريفاً. واشتهر أمره معها بمكّة حتّى سمّوها سلامة القسّ. وخلا معها يوماً، فقالت له: أنا، والله، أحبّك فقال له: أنا، والله، كذلك. قالت له: أحبّ أن أضع فمك على فمي. قال: وأنا، والله. قالت: فما يمنعك من ذلك، فوالله إنّ الموضوع لخال؟ فقال لها: ويحك، إني سمعت الله عزّ وجل يقول في كتابه: "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتّقين". وأنا أكره أن تكون

حلّة ما بيبي وبينك عداوة يوم القيامة. ثمّ نهض وعيناه تذرفان من حبّها وعاد إلى الطّريقة التي كان عليها من النّسك والعبادة. وكان يمرّ في بعض الأيّام بباها فيرسل إليها بالسّلام فيقال له: أدخل فيأبى. وقال فيها أشعاراً كثيرةً، وغنّته بها. فمنها:

إنّ التي طرفتك بين ركائب
تمشي بمزهرها وأنت حرام
باتت تعلّنا، وتحسب أنّنا،
في ذاك أيقاظ ونحن نيام
حتّى إذا سطع الصّبح لناظرٍ
فإذا الذي ما بيننا أحلام
قد كنت أعذل في السّفاهة أهلها
فاعجب بما تأتي به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنّما
طرق الضّلالة والهدى أقسام

وفيهما قوله:

على سلامة القلب السّلام
تحية من زيارته لمام
أحبّ لقاءها، وألوم نفسي،
كأنّ لقاءها شيءٌ حرام
إذا ما حنّ مزهرها إليها
وحنّت نحوه، أذن الكرام
فمدّوا نحوه الأعتاق حتّى
كأنّهم وما ناموا نيام

وله فيها أشعار كثيرة تركت ذكرها هنا لأنّها مستقصاة من أخبارها في كتاب طبقات المغنّين.

عبد الملك بين عزّة وبثينة

قال: وفدت عزّة وبثينة على عبد الملك بن مروان فلما دخلتا عليه انخرق إلى عزّة، وقال لها: أنت عزّة كثير؟ قالت: لست لكثير بعزّة ولكنّي أمّ بكر الضّمريّة. قال أتروين قول كثير فيك؟

لقد زعمت أنّي تعيّرت بعدها
ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر جسمي والخليقة كالتّي
عهدت، ولم يخبر بسرّك مخبر

قالت: لست أروي هذا، ولكنّي أروي غيره حيث يقول:

كأنّي أنادي صخرةً حين أعرضت
من الصّمّ لو يمشي بها العصم زلّت
صفوحاً فما تلقاك إلاّ بحيلةٍ
فمن ملّ منها ذلك الوصف ملّت

ثمّ عطف على بثينة فقال لها: ما رأى جميل حين لهج بذكرك بين النّساء كلّهنّ؟ قالت: الذي رأى فيك النّاس حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين. فضحك حتّى بدت سنّ له سوداء، كان يخفيها، وأجزل جائزتهما وقضى حوائجهما.

تغيّر العادات بالنسبة لعلاقة الرجل بالفتاة

وقال محمد بن يحيى المدني: سمعت عطاء يقول: كان الرجل يحبّ الفتاة فيطوف بدارها حولاً كاملاً يفرح إن رأى مرآها، وإن ظفر منها بمجلسٍ تشاكيا وتناشدا الأشعار. فالיום يشير إليها، وتشير إليه، فإذا التقيا لم يشكوا حبّاً، ولم ينشدا شعراً. وقام إليها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة وأصحابه.

هل قبلة المشتاق جناح

وحكى أبو الحسن المدايني قال: هوى بعض المسلمين جارية بمكّة فأرادها، فامتعت عليه. فأنشدها:

وقبلة مشتاق الفؤاد، جناح؟

سألت الفتى المكّي هل في تراور

تلاصق أكباد بمنّ جراح

فقال: معاذ الله أن يذهب الهوى

فقلت له: بالله، إنك سمعته وسألته فأجابك بهذا الجواب؟ قال: نعم. فزارته وجعلت تقول: إياك أن تتعدى ما أمرك به عطاء.

الحسنات يذهبن السيئات

وروى عبد الرحمن بن نافع، أن أبا هريرة سئل عن قول الله عز وجل "الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللمم". فقال: هي النظرة والغمزة والقبلة. وقال مجاهد: هو الرجل يلمّ بالذنب مرّة ثم لا يعود، وبإسناد عن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، أن رجلاً جاء إليه فقال له: إني أخذت امرأة في البستان فأصبت منها كلّ شيء، إلا أنّي لم أنكحها فاصنع ما شئت؟ فسكت عنه، صلّى الله عليه وسلّم. فلما ذهب، دعاه فقرأه عليه "أقم الصلّاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات" الآية.

ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى؟

قيل لأعرابي: ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أمّتع عيني في وجهها، وقلبي من حديثها، وأستر منها ما لا يحبّه الله ولا يرضى بكشفه إلا عند حلّه. قيل: فإن خفت أن لا تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أكل قلبي إلى حبّها، ولا أصير بقبيح ذلك الفعل إلى نقض عهدها.

سبعة يظلمهم الله بظلمه

ويروى عن أبي هريرة، عن النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "سَبْعَةٌ يَظْلَهُمُ اللهُ بِظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَسْجِدِ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبْتَهُ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهُ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقِهِ فَلَمْ تَعْلَمْ شِمَالَهُ مَا تَسَرَّ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهُ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ".

الزَّبَاءُ وَعَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ

وعن عبد الملك بن قريش الأصمعي قال: بصرت الزَّبَاءَ بعمر بن أبي ربيعة، وهو يطوف بالبيت، فتنكرت له وفي كفها خلوقاً، فمسحته بثوبه، فقال:

أدخل الله رب موسى وعيسى
جنته الخلد من ملائكة خلوقا
مسحت كفها بجيب قميصي
حين طفنا بالبيت مسحاً رقيقاً
لو تجازى القلوب بالود أمسى
قلبها مائلاً إلينا شفيقاً

فنظر إليه عبد الله بن عمر في تلك الحالة ينشد الأبيات، فقال: ما هذا زي المحرم وما يحل للمحرم أن يقول مثل هذا القول في هذا الموضع فقال: يا أبا عبد الرحمن قد سمعت مني ما سمعت، فورب هذه البنية، ما حللت إزارى على حرام قط.

ليلى الأخيلىة والحجاج

قال الهيثم بن عدي دخلت ليلى بنت عبد الله الأخيلىة على الحجاج وعنده وجوه الناس وأشرفهم. فاستأذنته في الإنشاد، فأذن لها، فأنشدته قصيدة مدحته بها. فلما فرغت من إنشادها، قال الحجاج لجلسائه: أتدرون من هذه الجارية؟ قالوا: لا نعلم، أصلح الله الأمير، ولكننا لم نر امرأة أكمل منها كمالاً، ولا أجمل منها جمالاً، ولا أطلق لساناً، ولا أبين بياناً، فمن هي؟ قال: هذه هي ليلى الأخيلىة صاحبة توبة بن الحمير الذي يقول فيها:

نأتك بليلى دارها لا تزورها
وشط نواها واستمر مريرها

ثم قال لها: يا ليلى ما الذي رابه من سفورك حيث يقول:

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقت
فقد رابني منها الغداة سفورها

قالت: أصلح الله الأمير، لم يرني قط إلا متبرقةً وكان أرسل إليّ رسولاً أنه يلم بنا، ففطن الحيّ لرسوله، فأعدوا له وكنوا، وفضت لذلك، فلم يلبث أن جاء، فألقيت، برقعى وسفرت له، فلما رأى ذلك أنكره وعرف الشر، فلم يزد أن سلم عليّ وسأل عن حالي وانصرف راجعاً. فقال الحجاج لها: لله درك فهل

كانت بينكما ريبة؟ قالت: لا، والذي أسأله أن يصلحك إلى أن قال مرةً قولاً ظننت أنه خضع لبعض الأمر، فقلت له مسرعةً هذا الشعر. وأنشأت وهي تقول:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تبح بها
فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه
وأنت لأخرى صاحبٌ وخليل
فلا، والذي أسأله صلاحك، ما كلمني بشيءٍ بعدها استرته حتى فرّق الدهر بيني وبينه.

العفاف أيام زمان

قال أبو عثمان: قد ترى الأعرابيَّ، وظاهره ظاهر الجفاء، فما هو إلا أن يعشق حتى تجده أرقّ من الماء، وألطف من الهواء. ومع ذلك يلقي أحدهم عشيقته فيترشّفها ويعانقها من دون الثياب ويمنعه التّكرم ويحجزه الورع عن وطئها وإن أمكنته. قال ابن هرمة.

ولربّ لذةٍ ليلةٍ قد نلتها
وحرامها لحلالها مدفوع
ويقتصرون على الحديث والقبل واللمس.

للعشيق من حبيبته نصفها الأعلى

قال العتيبي: قيل لبعض الأعراب، ما الذي ينال أحدكم من عشيقته إذا خلا بها؟ قال اللمس والقبل والحديث. قال فهل يطؤها؟ قال: بأبي أنت وأمّي ليس هذا عاشقاً هذا طالب ولد. قال: وكان الشرط بين العاشق ومعشوقه إذا خلوا أن يكون له نصفها الأعلى من سرّها إلى قمّة رأسها يصنع فيها ما شاء، ولبعلاها من سرّها إلى أخصصها. وأنشد ابن الأعرابيّ في مثل ذلك:

فللخلّ شطرٌ مطلقٌ من عقاله
وللبعل شطرٌ ما يرام منيع
وأنشد أبو عمرو بن العلاء في نحوه:

لها نصفان من حلٍ وبلٍ
ونصف كالبحيرة ما يهاج

يقول نصفها الأعلى لعشيقها طلقٌ، ونصفها الآخر عليه كالبحيرة - فإنّها كانت في الجاهلية حراماً لا تهاج ولا تتركب ولا تمنع من كلاً ولا ماء - وأنشد الأصمعي لبعض ظرفاء العرب يخاطب بعل عشيقته:

فهل لك في البدال أبا زنيم
وأفنع بالأكارع والعجوب

قال إبراهيم بن بشارة الناظم: قد يمكن الرجل أن يحتجز عن ذلك ما دام ليس له هنالك إلا الحديث والقبلة، فأما إذا ترشّفها وعانقها من دون ثيابها فلا بد أن ينعض وينشط وإذا أنعض وهو في الإزار معها انتقض العزم، كما قال عبد الرحمن بن أمّ الحكم:

وكأس ترى بين الإناء وبينها
قذى العين قد نازعت أم أبان
ترى شاريها حين يعترؤها
يميلاً أحياناً ويعتدلان
فما ظنّ ذا الواشي بأبيض ماجدٍ
وبيضاء خودٍ حين يلتقيان
دعتني أخت أمّ عمرو ولم أكن
أخاها ولم أرضع لها بلبان
دعتني أختها بعد ما كان بيننا
من الأمر ما لا يفعل الأخوان

عادات أهل طبرستان في الزواج

وقد ذكرنا: أن أهل طبرستان لا تتزوج الجارية منهم حتى يستظهر بها حولاً كاملاً محرماً ثم يقدم بها فيخطبها إلى أهلها ثم يتزوج بها، ويزعمون مع ذلك أنهم يجدونها بكرًا، وقد عانقها في إزارٍ واحدٍ سنةً تامةً وهو لا يستظهر بها، ويحتمل وحشة الاغتراب، وانقطاع الأسباب إلا من عشق غالب. ولا يجوز أن تواتيه الجارية إلا وبها شبه الذي به. وإن من أعجب العجب أن يمكثا متعانقين في لحافٍ واحدٍ ثم يحتجزان عن الزنا تكراً وتحرّجاً! وهذا التكرّم عند علوج طبرستان من العجائب.

العقلاء والمجانين

ومن قول سهيل بن هارون: ثلاثة من المجانين وإن كانوا عقلاء: الغضبان، والعزبان، والسكران. فقال له أبو عبيد الله الخليل: والمنعظ يا أبو عمرو؟ فقال: والمنعظ. وضحك وأنشد:

وما شرّ الثلاثة أمّ عمرو
بصاحبك الذي لا تصحينا

فقيده ثقيف عاشق زوجة أخيه

قال الأصمعي: كان فتىً من ثقيفٍ شديد الحياء، كريماً أديباً، فبينما هو جالس، إذ مرّت به امرأةٌ من أجمل النساء فلم يتمالك أن قام من الحياء من مجلسه ليعلم من هي، وأين تريد. وقد كلف بها واشتدّ عشقه لها، فاتبها حتى دخل منزل أخيه فإذا هي امرأته، فضاق به الأمر ولم يدر ما يصنع، وكنتم شأنه، وجعل ما به يزداد كل يومٍ حتى نحل جسمه، فأنكر شأنه أخوه وأهله وسألوه عمّا به. فلم يخبرهم بشيءٍ من أمره. فدعا أخوه الأطباء فعاالجوه فلم يغنوا عنه شيئاً، فلما أعياهم ما به، وزاد سقمه، سلّمه أخوه إلى الحارث

بن كلدة وكان من أطباء العرب فنظر إليه الحارث فلم يرى به داءً ينكر، غير أنه ظنَّ أنه عاشق. فخلا به الحارث فسأله، فأبى أن يقرَّ له بشيءٍ. فلما أعيى الحارث جعل يسأل عن أسمائهم وأسماء نساءهم، والفتى ملقىً بين يديه، كلما سميت امرأةٌ منهم نظر الحارث وجه المريض حتى جاء اسم امرأة أخيه فارتاح وتنفس، واغرورقت عيناه بالدموع. فعلم الحارث أمره، وقال لأخيه: إذهب فاجتمع أهليكم، ولا يتخلف عني منهم امرأةٌ ولا رجلاً، فإنِّي قد وقعت على دائه.

فخرج أخوه حتى أتى أهله، فجميعهم في منزل ونقل الحارث المريض إليهم، وقال: لا يغيبنَّ عنه امرأةٌ ولا رجلاً. فلما نظر الرجل إلى امرأة أخيه خفَّ عنه بعض ما كان يجده. فعرف الحارث ذلك منه، فأمر بشاةٍ فذبحت، وأخرج كبدها فوضعها على النار، ثم أطعمه منها فأكل ثم مزج له شربةً خفيفةً فسقاه، وفعل به ذلك أياماً يزيد في كلِّ يوم شيئاً قليلاً في مطعمه ومشربه. فحسنت حاله، ورجع إليه بعض جسمه. فلما رأى الحارث أنه قوي بعض القوة صنع له طعاماً وهياً له شراباً ثم أحضر الفتى وأخاه قطعما وشربا، وأمر الحارث أخاه أن ينصرف وقام هو ووكل هو بالفتى من يسقيه ويغنيه، وقال: احفظ حديثه، وكلِّ ما يتكلم به، وحدِّثه كلَّ حديثٍ تعرفه في العشق وأخبار العشاق، وأشعارهم. فلما أخذ الشراب في الفتى تغنى:

وقفوا كي تكلموا:

من فوادي وأنعم

وفوادي متيم

أبد الدهر يسقم.

أهل ودِّي، ألا سلموا

أخذ الحيَّ حظهم

فهومي كثيرةٌ،

وأخو الحبِّ جسمه

فلما أصبح الحارث، دعا الموكل بالفتى فسأله، فعرفه بكلِّ شيءٍ، فحدِّثه وأنشد الأبيات التي تغنى بها. فدعا أخاه فعرفه إنه عاشقٌ لامرأته. فقال له: يا أخي أنا أنزل لك عنها وتزوجها. فلما سمعه الفتى استحيا وخرج هارباً على وجهه، فلم يقفوا له على خبرٍ إلى اليوم فسَمِّي فقيد ثقيف.

من يفعل مثقال ذرّةٍ خيراً يره

وروى نافع مولى ابن عمر قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بيننا ثلاثة نفرٍ يمشون إذ أخذهم المطر فأووا إلى غارٍ في جبل. فانحطَّ عليهم من الجبل صخرةٌ فانطبقت عليهم، وقال بعضهم: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحاً، فادعوا الله بها. فدعوا الله، تبارك وتعالى، فقال أحدهم: اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وامرأةٌ وصبيان، فكنت أرعى عليهم فإذا رحى إليهم حلبت، وبدأت

بوالديّ أسقيهما قبل بيّ. وإني لم آت يوماً حتّى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فقامت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، فجعلوا يتضاغون تحت قدمي، فلم يزل ذلك دأبهم حتّى طلع الفجر. فإن كنت تعلم إنّي فعلت ذلك إبتغاء وجهك، فأفرج عنّا فرجةً نرى منها السّماء. ففرّج الله له فرجةً.

وقال الآخر: اللهمّ إنك تعلم إنّه كانت لي إبنة عمّ فأحببتها كأشدّ ما يحبّ الرجال النّساء، فطلبت إليها نفسها فأبت حتّى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتّى جمعت مائة دينارٍ فجئتها بها، فلمّا قعدت بين رجليها، قالت: يا عبد الله، اتق الله ولا تفضنّ الخاتم إلا بحقه. فقامت عنها فإن كنت تعلم إنّي فعلت ذلك إبتغاء وجه ربك، فأفرج عنّا فرجةً من السّماء. ففرّج الله جلّ ثناؤه فرجةً.

وقال الآخر: اللهمّ إنك تعلم أنّي استأجرت أجيراً فلمّا قضى عمله، قال: أعطني حقّي. فأعرضت عنه وتركته، ثمّ اشتريت بحقه بقرّاً وراعياً لها فجاءني بعد حين، فقال لي: اتق الله ولا تظلمني، وأعطني حقّي. فقلت له: إذهب إلى تلك البقر وراعيها. فأخذها وذهب، فإن كنت تعلم أنّي فعلت إبتغاء وجهك، فأفرج لنا ما بقي. ففرّجها الله عنهم.

هذا طالب ولد

قال الأصمعي: قلت لأعرابيّة من بني عذرة: أنتم أكثر النّاس عشقاً فما تعدّون العشق فيكم؟ قالت: الغمزة والقبلة والضمّة. ثمّ قالت:

وغمز كف، وعضد .

ما الحبّ إلا قبلة،

إن نكح الحبّ فسد.

ما الحبّ إلا هكذا،

ثمّ قالت: وأنتم يا حضر، كيف تعدّون العشق فيكم؟ قلت: يقعد بين رجليها ويجهد نفسه. فقالت: يا ابن أخي، ما هذا عاشقاً هذا طالب ولد.

السبيل لدخول المرأة إلى الجنّة

وروي عن عبد الرّحمن بن عوف، عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: " إذا صلّت المرأة خمسها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت الجنّة.

راودته عن نفسها فأبى

عرض الحجاج سجنه يوماً، فأتي برجلٍ فقال له: ما كان جرمك؟ قال: أصلح الله الأمير، أخذني العسس وأنا مخبرك بخبري، فإن يكن الكذب ينجي فالصّدق أولى بالنّجاة. فقال: ما قصّتك؟ قال: كنت أحياناً لرجلٍ فضرب الأمير عليه العيب إلى خراسان، فكانت إمرأته تجدي وأنا لا أشعر، فبعثت إليّ يوماً رسولاً قد جاء كتاب صاحبك فهلّم لتقرأه. فمضيت إليها، فجعلت تشغلني بالحديث حتى صلينا العشاء، ثمّ أظهرت لي ما في نفسها، ودعتني إلى السّوء، فأبيت ذلك. فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحنّ ولأقولنّ أنّك لص. فلما أبيت عليها صرخت فخرجت هارباً. وكان القتل أهون عليّ من خيانة أخي. فلقيني عسس الأمير فأخذوني. وأنا أقول متمثلاً:

قد دعيتي لوصولها فأبيت

ربّ بيضاء ذات دلّ وحسن

كنت ندمان زوجها فاستحيت

لم يكن شأن العفاف ولكن

فعرف صدق حديثه وأمر بإطلاقه.

يعاملها بما يرضي الرّب

قيل لبعض الأعراب، وقد طال عشقه لجارية: ما أنت صانع لو ظفرت بها ولا يراكما غير الله؟ قال: إذا، والله لا أجعله أهون الناظرين، لكنني أفعل بما ما أفعل بحضرة أهلها، حديثٌ يطول، ولحظٌ قليل وترك ما يكره الرّب، وينقطع به الحبّ.

ردّ الجارية ولك الجنة

قال محمّد بن عبيد الزّاهد: كانت عندي جاريةً فبعتهَا، فتبعتهَا نفسي، فسرت إلى مولاها مع جماعة إخوانه، فسألوه أن يقيلي ويربح عليّ ما شاء، فأبي، فانصرفت من عنده مهموماً مغموماً، فبتّ ساهراً لا أدري ما أصنع، فلما رأيت ما بي من الجهد، كتبت اسمها في راحتي، واستقبلت القبلة. فكلّ ما طرقي طارق من ذكرها رفعت يدي إلى السّماء وقلت: يا سيّدي هذه قصّتي. حتّى إذا كان في السّحر من اليوم الثّاني، إذ أنا برجلٍ يدقّ الباب، فقلت: من هذا؟ أنا مولى الجارية. ففتحت، وإذا بها. فقال: خذها بارك الله لك فيها! فقلت: خذ مالك والربّح. فقال: ما كنت لأخذ ديناراً ولا درهماً. قلت فلم ذلك؟ قال: أتاني الليلة في منامي آتٍ فقال: ردّ الجارية على ابن عبيد الله، ولك الجنة.

جود عبد الله بن جعفر

وكان عبد الرحمن بن أبي عمّار فقيه أهل الحجاز قد مرّ بنخّاسٍ معه فتيات، فنظر إليهنّ، فتعلّق بواحدةٍ منهنّ، فاشتدّ وجده بها، واشتهر بذكرها، حتّى أتى إليه عطاءٌ ومجاهدٌ يعذّلونه. فلم يكن جوابه إلاّ أن قال:

يلوموني فيك أقوامٌ أحالسهم فما أبالي أطال اللوم أم قصرا

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر فخرج حاجاً بسببه، وبعث إلى مولى الجارية واشتراها منه بأربعين ألفاً، وأمر قيّمة جواريه فحلّتها وزيّنتها. وبلغ التّاس قدومه، فدخلوا إليه للسلام عليه وفيهم عبد الرحمن بن عمّار. فلما أراد الشّخص استجلسه، فقال له: ما فعل حبّ فلانة؟ قال: مشوب اللحم و الدّم والمخّ والعظم والعصب. وأمر الجارية فأخرجت إليه، وقال: هي هذه؟ قال: نعم، أصلحك الله. قال: إنّما اشتريتها لك، فوالله ما دنوت منها، فشأنك بها، فهي لك مباركة. وأمر له بمائة درهم، وقال له: خذ هذا المال لئلا تهتمّ بها وتهتمّ بك. قال، فبكى عبد الرحمن فرحاً وقال: يا أهل البيت قد خصّكم الله بأشرف ما خصّ به أحداً من صلب آدم، فلتهنّكم هذه التّعمة، وبارك لكم فيها. فكان هذا الفعل بعض ما اشتهر به عبد الله بن جعفر من الجود.

الزّنا أنواع

وقيل لأعرابيٍّ: أتعرف الزّنا، قال: وكيف لا. قيل: فما هو؟ قال: مصّ الرّيقة، ولثمّ العشيقة، والأخذ من الحديث بنصيب. قيل: ما هكذا نعدّه فينا! قال: فما تعدّونه؟ قيل: النّقّ الشديد أن تجمع بين الرّكبة والوريد، وصوتٌ يوقظ النّوام، وفعلٌ يوجب كثيراً من الآثام. قال: لله ما يفعل هذا العدوّ البعيد، فكيف الصّديق الودود.

أخبار أهل العفاف

وقيل لآخر: ما كنت صانعاً لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أطيع الحبّ في لثامها، وأعصي الشّيطان في آثامها، ولا أفسد بضع عشرة سنين فيما يبقى ذميماً عاره، وينشر قبيح أخباره في ساعةٍ تفقد لذّتها. إنّني إذا لثيماً، ولم يلدني كريمٌ.

الحبّ ما لا يغضب الرّب

وقيل لآخر: ما أنت صانعٌ إن ظفرت بمن تحبّ؟ قال: أحلل ما يشتمل عليه الخمار وأحرّم ما كتّمه الإزار، وأزجر الحبّ عمّا يغضب الرّب.

ليلى وقيس بن الملوّح

وقيل لليلى هذا قيسٌ مات لما به من عشقك. قالت: ولقد خفت والله أن أموت بذلك منه. قيل لها: فما عندك حيلةٌ تخفّف ما به؟ قالت: صبري، وصبره، أو يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

عفراء وعروة بن حزام

وقيل لعفراء، وقد بلغها ما نزل بعروة، فكادت تبوح بسرّها فقبل لها: أما عندك له حيلةٌ تخفّف ما به؟ فقالت: والله، لأننا أسرّ بذلك وأشوق إليه منه، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار، ودخول النار.

ميمة وذو الرمة

وقيل لميمة، بعد موت قابوس: ما كان يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته؟ قالت: منعي من ذلك خوف العار، وشماتة الجار. ولقد كان قلبي منه أكثر ممّا كان بقلبه، غير أنّي وجدت ستره أبقى لنا لما في الصدر من المودّة، وأحمد للعافية.

الأمر ما تصفون، ولكن...

وقيل لابنة ملكٍ من ملوك الفرس، وقد أجهدها عشق رجلٍ من أساورة أبيها: لو روّحت عن قلبك بالاجتماع معه، كفّ ذلك من وجدك. قالت: إنّ الأمر على ما تصفون، ولكن ما عذري إذ هتكت ستري، وأظهرت أمري، عند من لا يلزمه عاري، ويرغمه اشتهايري، والله لا كان هذا أبداً.

عفراء بنت أحمر والحارث بن الشريد

وحكى السريّ بن المطلّب قال: كان الحارث بن الشريد يعشق عفراء بنت أحمر. فلما عيل صبره كتب إليها:

وبي منك في الأحشاء أصدق شاهد

صبرت على كتمان حبك برهةً

تقوم لقلبي في مقام العوائد

هو الموت إن لم يأتي منك رقعةٌ

فلما وصلت الرقعة كتبت إليه:

ونلت الذي تهوى برغم الحواسد

كفيت الذي تخشى وصرت إلى المنى

بي السوء، ما جانبت فعل العوائد

فوالله لولا أن يقال تظنناً

فلما وصلت الرقعة إليه وضعها على وجهه، فلما شم رائحة يدها شهق شهقةً فقضى نحيبه. فقيل لعفراء ما كان يضرك لو روحت عن قلبه وأجبتة بزورة؟ قالت: منعي من ذلك قولكن عفراء قد صبت إلى الحرث! فوالله لأقتلن نفسي من حيث لا يعلم بي أحد إلا الله. فلحقت به سريعاً.

أسماء بنت عبد الله وكامل بن الرضين

قال العتيبي: عشق كامل بن الرضين أسماء بنت عبد الله بن مسافر الثقيفة، وهي ابنة عمه، فلم يزل به العشق حتى صار كالشئ البالي. فلما اشتد ما به، شكا أبوه إلى أبيها فزوجها له، فحمل إلى دارها وفيه رمق، فلما دخل الدار، قال: أوأنا بموضع تسمع أسماء كلامي؟ قيل: نعم. فشهو شهقةً قضى مكانه. فقيل لها: يا أسماء قد مات بغصة. قالت: والله لأموتن بمثلها، ولقد كنت على زيارته قادرة فمنعني قبح ذكر الريبة، وسماحة الغيبة. وسقطت بالمرض، فلما اشتد بها، قالت لأحص نساءها: صوري لي صورته، فإني أحب أن أزوره قبل موتي. ففعلت. فلما رأت الصورة اعتنقتها وشهقت شهقةً قضت نحبها. فدفنت مع الفتى في قبر واحد. وكتب على قبرهما:

على الدهر حتى غيبا في المقابر
فلما أصيبا قربا بالتزاور
ويا زورة جاءت بريب المقادر

بنفسي هما ما متعا بمواهما
أقاما على غير التزاور برهة
فيا حسن قبر زار قبراً يجبه

أوصاف الهوى

العشق لسعة من جنون

قال العتيبي: قال أعرابي: إن لم يكن العشق ضرباً من السحر إنه لسعة من الجنون.

الهوى والطلول

وسئلت أعرابية عن الهوى، فقالت: هو الهوان غلطٌ باسمه، وإنما يعرف ما نقول من أبكته المعارف والطلول.

الهوى والنار

وسئلت أعرابية عن صفة الهوى، فقالت:

نفس المحبّ فيلقى الموت كاللعب
أو مزحةٍ أشعلت في القلب كاللهب
تضرّمت أحرقت مستجمع الحطب

الحبّ أوّله ميلٌ تهيم به
يكون مبدؤه من نظرةٍ عرضت
كالتار مبدؤها من قدحةٍ، فإذا
وأنشد لأبي جعفر الطّربنجي:

لا يبتئك عنه مثل خبير
ي ولا بالقياس والتّفكير
محدثات الأمور بعد الأمور

ليس خطب الهوى بخطبٍ يسيرٍ
ليس أمر الهوى يدبّ بالراً
إنّما الحبّ والهوى خطراتٍ

الهوى والبلاء

وقال أعرابيٌّ: إنّ الصّبر على الهوى أشدّ من الصّبر على البلاء، كما أنّ الصّبر على المحبوب أشدّ من الصّبر على المكروه.

الهوى والطّيب

وليم بعض الحكماء على الهوى، فقال: لو كان لذي هوى اختيارٌ لاختار أن لا هوى. وأنشد لمجنون ليلى:

أنتين صليت الضّحى أم ثمانيا
بوجهي وإن كان المصلّى ورائيا
وعظم الجوى أعياء الطّيب المداويا

أصلّي فلا أدري إذا ما ذكرتها
أراي إذا صليت أقبلت نحوها
وما بي إشراكٌ ولكنّ حبّها

الهوى والموت

وأنشد لأبي العتاهية:

أنّ المحبّين في هوٍ ولذات
خيرٌ له من لقاء الموت مرّات

لا بارك الله فيمن كان يخبرني
لموتة تأخذ الإنسان واحدةً

الهوى وأغصانه

وأنشد لأعرابيٌّ:

وللحبّ أغصانٌ تراها نضيرةً
وفي طعمها للعاشقين ذعاف
رأيت المنايا في عيون أوانسٍ
تقتلن أرواحاً وهنّ ضعاف

الهوى المتجدّد

وأنشد:

رأيت الحبّ نيراناً تلظّي
قلوب العاشقين لها وقود
فلو كانت، إذا فريت تقصّبت
ولكن مثل ما كانت تعود
كأهل النار إذ فريت جلودُ
أعيد من الشقاء لهم جلود

سكينة بنت الحسين وعروة بن أذينة

وركبت سكينة بنت الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم مع حواربيها، فمرّت بعروة بن أذينة الليثي، وهو في فناء قصر ابن عتبة، فقالت لحواريها: من الشّيخ؟ فقلن لها: عروة. فعدلت إليه فقالت له: يا أبا عامر، تزعم أنّك لم تعشق قط وأنت تقول؟:

قلت: وأبنتها وجدي فبحث به؛
قد كنت عندي تحت السّتر فاستتر
ألست تبصر من حولي؟ فقلت لها:
غطّي هواك وما ألقى على بصري .

كلّ ما ترى حواريّ من حوارٍ أحرارٍ إن كان خرج الكلام من قلبٍ سليمٍ.

أهل الدّعاوي الباطلة

وأما أهل الدّعاوي الباطلة، التي ليست أجسامهم بناحلة، ولا ألوانه بجائلة، ولا عقوله بذاهبة، فهم عند ذوي الفراسة، يكذبون، وعند ذوي الظّرف محرومون. فمن ذلك ما روى العباس بن الأحنف، قال: بينما أنا أطوف، إذ بثلاث حوارٍ أترابٍ، فلما أبصرني، قلن هذا العباس. ودنت إليّ إحداهنّ، فقالت: يا عبّاس أنت القائل؟:

ماذا لقيت من الهوى وعذابه
طلعت عليّ بليّةً من بابه

قلت: نعم. قالت: كذبت يا ابن الفاعلة، لو كنت كذلك كنت أنا. ثمّ كشفت عن أضاجع معراة من اللحم، فأنشأت تقول:

ولما شكوت الحبّ، قالت: كذبتني،
فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا!
فلا حبّ حتّى يلزق الجلد بالحشا
وتخرس حتّى لا تجيب المناديا.

أحبّ قلبي وما درى بدني

ومن ذلك، ما روي عن إبراهيم بن المهدي قال: دخل عليّ المأمون فقال: بالله يا عم، هل عشقت قط؟ فقلت: نعم. يا أمير المؤمنين، وأنا السّاعة عاشقٌ. قال: وأنت على هذه الجثّة والجسم الكبير عاشق؟ فأنشأ يقول:

وجه الذي يعشق معروف

لأنّه أصفرٌ منحول

إلى أن قال:

حجّة كآته للذّبح معلوف

ليس كمن تلقاه ذا

فأجابه إبراهيم:

كنت محبّاً لذبت مذ زمن

وقائلٍ لست بالمحبّ ولو

ولو درى، ما أقام في السّمن

أحبّ قلبي، وما درى بدني،

وهذان قد ادّعيا المحبة ففضحهما شاهد النّظر ولم يجز إدعائهما على ذوي المعرفة والنّظر. وقول إبراهيم أحبّ قلبي وما درى بدني من كثرة المحال أن يتعلّق القلب لسبب فيسلم الجسم منه على حالٍ، ولكنّه لاستحيائه من ادّعائه اعتذر، فقبح في اعتذاره. وأنشدني بعض المشايخ:

سقيماً وأجسام المحبّين تسقم؟

وقائلةٍ: ما بال جسمك لا يرى

لجسمي، فجسمي بالهوى ليس يعلم!

فقلت لها: قلبي بحبّك لم يبح

والعرب تمدح أهل النّحول، وتذمّ أهل السّمن والجسوم، وتفهمهم عن الأدب، و تنسب أهل النّحول إلى المعرفة وحسن البيان، وأهل السّمن إلى الغباوة وبعد الأذهان.

البطنة تذهب الفطنة

زعموا أن من غلب عليه البلغم غلظ جسمه، وكبر شحمه، وزاد لحمه، وقلّ فهمه، وطال نسيانه، وتعدّد لسانه، لغلبة البلغم على قلبه والرطوبة على لّبه. ومن كان أغلب مزاجه المرة جفّ جسمه، وقلّ لحمه، وصحّ ذهنه، ودقّ فهمه. وأتّه يستدلّ بها على أحسن أدب ذوي الألباب، وصحّة أذهان ذوي الآداب. لا تكاد تخطي به الفراسة، ولا تكذب فيه الدّلالة لما أخبرتك من غلبة أحد المزاجين على صاحبه واستقراره في مركبه. وربما أنجب السّمن، وخاب الهزال. ولا يكون ذلك إلا في الفرد التّادر من الرّجال ومن أمثلة العرب في ذلك: "البطنة تذهب الفطنة."

المغنية محبوبة والمتوكل

قال علي بن الجهم: لما أفضت الخلافة إلى جعفر المتوكل على الله، أهدي إليه ابن طاهر من خراسان هديةً جليلاً فيها حوار، منهنّ جاريةٌ يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف، وكان لها مولى قد عنى بها، فبرعت في فنون الأدب، وأجادت الشعر. وكانت راويةً ظريفةً، مجيدةً للغناء. فقربت من قلب المتوكل. وغلبت عليه. قال: فخرج عليّ يوماً، وقال لي: يا علي، دخلت الساعة على قينة وقد كتبت بالمسك على خدّها جعفرًا، فما رأيت أحسن منه، فافعل فيه الساعة شعراً. فأخذت الدواة والقرطاس، فانقفل عليّ، حتّى كآني ما عملت بيتاً قط فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أذنت لمحبوبة أن تقول شيئاً عسى أن يفتح لي. فأمرها، فقالت مسرعةً، وأخذت العود فجسته، وصاغت لحنًا، واندفعت وغنت:

وكاتبةً بالمسك في الخدّ جعفرًا، بنفسي خطّ المسك، من حيث أترّا
لئن أودعت سطرًا من المسك خدّها، لقد أودعت قلبي من الشوق أسطرًا.
فاعجب لمملوكٍ يظلّ مليكه مطيعاً له فيما أسرّ وأجهرًا

قال عليّ: وغضب عليها مرّة، وكان لا يصبر عنها، فأمر جوارى القصر أن لا تكلمها واحدةً منهنّ. فكانت في حجرها أياماً، وقد تنعّص عيشه لفراقها، فبكرت عليه يوماً، فقال: يا علي. قلت لبيك يا أمير المؤمنين. قال: رأيت الليلة في منامي كآني رضيت عن محبوبية فصالحتها وصالحتي. فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين، أقرّ الله عينك وسرّك. إنّما هي عبيدتك، والسخط والرضا بيدك، فوالله، إنّنا لفي حديثنا إذ جاءت وصيفةً، فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عودٍ من غرفة محبوبية. قال: فقم بنا يا عليّ ننظر ما تصنع، فنهضنا حتّى أتينا حجرهما، فإذا هي تضرب العود وتغني:

أدور في القصر، لا أرى أحداً أشكو إليه، ولا يكلمني
كآني قد أتيت معصيةً، ليست لها توبةٌ تخلصني.
فهل شفيع لنا، إلى ملكٍ، قد زارني في الكرى فصالحني،
حتّى إذا ما الصّباح لاح لنا، عاد إلى هجره فصادمني.

قال: فصاح أمير المؤمنين، وصحت معه. فتلقته وأكّبت على رجله تقبّلها، فقال: ما هذا؟ فقلت: يا مولاي رأيت في ليلتي هذه كآتك صالحتي، فتعلّلت بما سمعت. قال: فأنا والله قد رأيت مثل ذلك. وقال: يا عليّ رأيت أعجب من هذا وكيف اتّفق ورجعنا إلى الموضع الذي كنّا فيه. واصطلمح. وما زالت تغنيه هذه الأبيات يوماً ذلك. وازدادت حظوتها عنده حتّى كان من أمره ما كان. فتفرّقت جواريه، فصارت محبوبية إلى الوصيف الكبير، فما زالت باكيةً حزينةً، فدعاها يوماً مع من صار إليه من جوارى المتوكل

فأمرهنّ فغتنين. ثمّ أمرها فاستعفتته فأبي، فقلن لها: لو كان في حزننا فرحٌ لطلال حزننا معك. وجيء بعودٍ
فغنت به:

لا أرى فيه جعفرا

أيّ عيشٍ بلدٌ لي

وسقامٍ فقد برا

كلّ من كان ذا ضناً

تري الموت يشتري

غير محبوبية التي

من أحاديث بني عذرة

ومن ذلك ما حكى جميلٌ بن معمر العذري: أنّه دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا جميل حدّثني
ببعض أحاديث بني عذرة. فإثّه بلغني إنّهم أصحاب أدبٍ وغزلٍ. قال: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمك أنّ آل
بثينة انتجعوا عن حيّهم، فوجدوا النّجعة بموضع نازح فظعنوا، فخرجت أريدهم، فبينما أنا أسير إذ
غلطت الطّريق وأجنتي الليل فلاحت لي نارٌ، فقصدتها حتّى وردت على راعٍ في أصل جبل قد انحنى عنه
إلى كهفٍ فيه، فسلمت، فردّ عليّ السّلام، وقال: أظنّك قد غلطت الطّريق؟ فقلت: أجل. فقال: انزل
وبت الليلة فإذا أصبحت وقفت على القصد فتزلت فرحب بي وأكرمني وذبح شاة، وأحجّ ناره، وجعل
يشوي ويلقي بين يدي، ويحدّثني في خلال ذلك. ثمّ قام بإزارٍ كان معه فوضع به جانب الخبا ومهدّ لي
محلّاً خالياً فنمت.

فلمّا كان في الليل سمعته يبكي إلى شخصٍ كان معه، فأرقت له ليلتي. فلمّا أصبحت طلبت الإذن فأبي،
وقال: الضّيافة ثلاث. فجلست وسألته عن اسمه ونسبه وحاله، فانتسب فإذا هو من بني عذرة، من
أشرفهم. فقلت: وما الذي جاء بك إلى هذا؟ فأخبرني أنّه كان يهوى ابنة عمّ له، وأنّه خطبها من أبيها
فأبى أن يزوّجها إيّاها لقلة ذات يده، وأنّه تزوّجها رجلاً من بني كلاب وخرج بها عن الحي، وأسكنها في
موضعه. وأنّه رضي أن يكون لزوجها راعياً حتّى تأتيه ابنة عمّه فيراها. وأقبل يشكو قديم عشقه لها،
وصبابته بها حتّى أتى المساء، وحن وقت مجيئها. فجعل يتقلقل ويقوم ويقعد، ثمّ وثب قائماً على قدميه،
وأنشأ يقول:

أعاجها طربٌ أو صدّها شغل

ما بال مية لا تأتي كعادتها

حتّى الممات وما لي غيركم أمل

لكنّ قلبي عنكم ليس يشغله

لما اعتذرت، ولا طابت لك العلل

لو تعلمين الذي بي من فراقكم

تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل

نفسى فداؤك، قد أحللت بي سقماً

لو أن ما بي من سقمٍ على جبلٍ

لزال وانهدَّ من أركانه الجبل

ثمَّ قال لي: اجلس، يا أبا بني عذرة، حتَّى أكشف خبر ابنة عمِّي. ثمَّ مضى فغاب عن بصري، فلم ألبث أن أقبل وعلى يديه محمول، وقد علا شهيقه ونحيبه، فقال: يا أخي هذه ابنة عمِّي أرادت زيارتي فاعترضها الأسد فأكلها. ثمَّ وضعها بين يديّ، وقال: على رسلك، حتَّى أعود إليك. فغاب عن نظري فأبطأ، حتَّى آيست من رجوعه، فلم ألبث أن أقبل ورأس الأسد على يديه فوضعه ثمَّ، قال: يا أخي إنك ستراني ميّتاً فاعمد إليّ وإلى ابنة عمِّي فأدرجنا في كفنٍ واحدٍ، وأدفنا في قبرٍ واحدٍ، واكتب على قبرنا هذين البيتين:

كنّا على ظهرها والعيش في مهلٍ

والشمل يجمعنا والدّار والوطن

ففرّق الدهر بالتصريف إلفتنا

فصار يجمعنا في بطنها الكفن

وردّ الغنم إلى صاحبها، وأعلمه بقصّتها.

ثمَّ عمد إلى خناقٍ وطرحه في عنقه، فناشدته الله لا تفعل، فأبى وخنق نفسه حتَّى مات. فلما أصبحت كفنتهما ودفنتهما وكتبت الشعر كما أمر، ورددت الغنم إلى صاحبها وأعلمته بقصّتهما، فحزن حزناً خفت عليه الهلاك أسفاً على ما فرط من عدم اجتماعهما.

طعم العشق

وقد روي عن محمّد بن جعفر بن الزبير، قال: كنّا عند عروة بن الزبير وعنده رجلٌ من بني عذرة. فقال له: يا عذري بلغني أنّ فيكم رقّةً وغزلاً فأخبرني ببعض ذلك؟ فقال: لقد خلف في الحميّ ثلاثين مريضاً ما بهم داءٌ إلاّ الحب قد خامر قلوبهم وأنّ فيه من المرارة والتكد والكمد ما هو مستعذبٌ عند أربابه، مستحسنٌ عند أصحابه، حلواً لا تعدّ له حلاوة، ومرّاً لا تعدّ له مرارة. قال الكميّ بن زيد في ذلك:

الحبّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ

سائلٌ بذلك من تطعم أو ذق

ما ذاق بؤس معيشةٍ ونعيمها

فيما مضى أحدٌ إذا لم يعشق

وقال آخر:

يا أيها الرّجل المعدّب بالهوى

إني بأحوال الهوى لعليم

الحبّ صاحبه بيت مسهداً

فيطير منه فؤاده ويهيم

والحبّ داءٌ قد تضمّنه الحشا

بين الجوانح والضّلوع مقيم

والحبّ لا يخفى وإن أخفيته

إنّ البكاء على الحبيب يدوم

والحبّ فيه شقاوةٌ ونعيم
والحبّ أصغر ما يكون عظيم

والحبّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ
والحبّ أهون ما يكون مبرّحٌ

وأشدي أحمد بن يحيى:

ما أطيب الحبّ لولا أنّه نكد
في حلق ذاته مرٌّ ولا شهد

سلي عن الحبّ يا من ليس يعلمه
طعمان حلوّ ومرٌّ ليس يعدله

وأشدي أبو الطيّب:

عندي من الحبّ إن ساءلني خبر
لاقيت فيه الذي لم يلقه بشر
لكنّ آخره التّغصيص والكدر

سلي عن الحبّ يا من ليس يعلمه
إني امرؤٌ بالهوى ما زلت مشتهداً
الحبّ أوّله عذبٌ مذاقته

عروة بن حزام يموت ملوّعاً

وذكر ابن عتيق، قال: بينما أنا أسير في أرض بني عذرة، إذ أنا ببيتٍ جديدٍ، فدنوت منه، فإذا بعجوزٍ تعلّ شاباً قد نهكته العلة، وبانت عليه الذلّة. فسألته عن خبره، فقالت: هذا عروة بن حزام. فدنوت منه، فسمعتة يقول:

فاليوم، آني أراي اليوم مقبوضا

من كان من إخواننا باكبياً لغدٍ

فقلت: أنت عروة بن حزام؟ قال: نعم، الذي أقول:

وعرّاف نجدٍ إن هما شفياني

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه

وقاما مع العوّد بيتدراني.

فقالا: نعم، تشفى من الداء كلّه.

ولا شربةٍ إلّا وقد سقياني.

فما تركا من سلوةٍ يعلمانها،

بما حملت منك الضّلوع، يدان

فقال: شفاك الله، والله مالنا،

على النحر والأحشاء حدّ سنان،

فويلي على عفراء ويلاً كأنه

وعفراء عندي المعرض المتواني .

فعفراء أصفى الناس عندي مودّة

ثمّ شهق شهقةً توهمت أنّها غشية فتنحيّت عنه، ودنت العجوز فوجدته قد قضى نجه. فما برحنا حتّى دفناه.

لا ذنب على أهل الهوى

وبلغ العشق أيضاً مجنون عامر إلى ما ذكرناه في موضعه. قال بعضهم: سمعت أعرابيةً تطوف وهي تقول اللهم مالك يوم القضا، وخالق الأرض والسّماء، ارحم أهل الهوى، وأنقذهم من عظيم البلاء، فإنك تسمع التّجوى، قريبٌ لمن دعا. ثمّ أنشأت تقول:

يا ربّ إنّك ذو منّ وذو سعةٍ

دارك بعافيةٍ منك المحيّنا

الذّاكرين الهوى من بعد ما رقدوا

حتّى نراهم على الأيدي مكّيّنا

فقلت لها: يا هذه أيقال هذا في الطّواف؟ فقالت: إليك عتّي، لا يرهقك الحبّ. فقلت: وما الحبّ؟ فقالت: حلّ أن يخفى، ودقّ على أن يرى: له كمونٌ ككمون التّار في الحجر، إن قدحته أروى، وإن تركته توارى. قال: فتبعته حتّى عرفت مترها، فلمّا كان من غدٍ جاء مطرٌ شديدٌ فمررت بياها وهي قاعدةٌ مع أترابٍ لها، وهنّ يقلن لها: أضرب بنا المطر، ولولا ذاك لخرجنا إلى الطّواف فأنشأت تقول:

قالوا أضرب بنا السّحاب بقطره

لما رأها بعيرتي تحكي،

لا تعجبوا ممّا ترون، فإنّما

تلك السّماء لرحمتي تبكي.

وقد زعم قومٌ أنّه لا ذنب على أهل الهوى، ولا وزر على ذوي الضّنا. إنّ خطاياهم تمنحي عنهم لطول بلائهم، وكثرة شقائهم، ولما يلقون من القلق، ويعانون من الأرق.

لو أدرك عمر عفراء وعروة لجمعهما

أبو الحسن الميداني عن الأصمعيّ قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: لو أدركت عفراء وعروة، لجمعت بينهما.

العرجيّ المحتال

قال الزّبير بن بكار: كان العرجيّ وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان، رضي الله عنه، يعشق أمّ الأوقص المخزومي القاضي، وهي امرأةٌ من بني تميم، فكان يتعرّض لها، فإذا رآته رمت بنفسها وتسّرت منه. فمرّ بها يوماً وهي في بعض نسوةٍ وهنّ يتحدّثن، فعرفها فأحبّ أن يراها عن قرب، فعدل عنها ولقي أعرابياً ركباً معه لبنٌ رطبٌ، فدفع دابّته وثيابه وأخذ قعوده ولبنه، ولبس ثيابه، ثمّ أقبل على التّسوة. فصحن يا أعرابيّ: عندك لبن؟ قال: نعم ومال إليهنّ، وجلس يتأمّل التّميميّة وينظر أحياناً إلى الأرض كأنّه يطلب شيئاً. وهنّ يشربن من اللبن، فقالت له امرأةٌ منهنّ: أيّ شيءٍ تطلب يا أعرابيّ أضاع منك في

الأرض؟ قال: نعم قلبي: فلما سمعت التميمية كلامه نظرت إليه، وكان أزرق، فعرفته، وقالت: ابن عمر، ورب الكعبة. ووثبت فسترها نساؤها، وقلن له انصرف عنا، لا حاجة لنا إلى لبنك. فمضى منصرفاً.

أهل العشق صحيح مساكين

قال العتيبي: سمعت أعرابية تقول: مسكين العاشق، كل شيء عدوه: هبوب الريح تقلقه، ولمعان البرق يؤرقه، ورسوم الديار تحرقه، والعدل يؤلمه، والتذكير يسقمه. إذا دنا الليل منه هرب النوم عنه، ولقد تداويت بالقرب والبعد فما أبجح فيه دواء. ولقد أحسن الذي يقول:

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قلب الدار خير من البعد

داؤهما دواؤهما

وقال أعرابي: إن لي عيناً دموعاً، وقلباً مروّعاً، فماذا يصنع كل واحدٍ منهما بصاحبه مع أن داؤهما دواؤهما، وسقمهما شفاؤهما.

البعيدة القريبة

وذكر أعرابيٌ وجده بامرأة فقال: ما ازدادت مني بعداً إلاّ ازدادت بها قرباً.

بعدها دهرٌ والساعة شهرٌ

وذكر أعرابيٌ امرأةً كان يواصلها في شبابه، فقال: ما كانت أيامي معها إلاّ كأباهيم القطا قصراً، ثمّ طالت بعدها شوقاً إليها، وأسفاً عليها، فالיום بعدها دهر، والساعة شهر.

رعت لعيسى الودّ

قال أبو بكر بن دريد: كانت امرأةً من لحمٍ يقال لها سعدى تهوى ابن عمّ لها، يقال له عيسى. فلما خشي أهلها الفضيحة قالوا لها: إن نطقت فيه بشعرٍ قطعنا لسانك. فعندها قالت:

خليلي إن أصدتني أو هبطتني بلاداً هوى نفسي بما فأذكرانيا
ولا تدعا إن لامي ثم لائمٌ على سخط الواشين أن تعذرانيا
فقد شفّ جسسي بعد طول تجلدي أحاديث عن عيسى تشيب التواصيا
سأرعى لعيسى الودّ ما هبت الصبا وإن قطعوا في ذاك عمداً لسانيا.

الطلاق بين سعة الثقبه وسرعة الإنزال

طلّق أعرابيُّ امرأته: فقالت: لم طلّقتني؟ فقال: لأنك واسعة الثقبه، حديدة الرّكبة خفيفة الوثبة. فقالت له: وأنت سريع الإراقة، بطيء الأفافه، ثقيلٌ بين اليدين، خفيفٌ بين الرّجلين.

لبنى وقيس بن ذريح

وطلّق قيس بن ذريح امرأته لبني فندم على ذلك، وقال:

فكان فراق لبني كالخداع

فواكبدي على تسريح لبني

فيا للناس للواشي المطاع

تكنفني الوشاة فأزعجوني

على أمرٍ وليس بمستطاع

فأصبحت الغداة ألوم نفسي

تبين غبنه بعد البياع

كمغبونٍ يعضّ على يديه

الحجاج وابنة عبد الله بن جعفر

وتزوَّج الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر، فلمّا دخلت عليه نظر إليها وعبرتها تجود على خدّها، فقال لها: بأبي وأمّي، ممّ تبكين؟ فقالت: من شرف اتّضع، ومن ضعة شرفت. فلمّا كتب إليها عبد الملك بن مروان بطلاقها، قال لها: إنّ أمير المؤمنين امرني بطلاقك. قالت: هو والله أبرّ بي ممّن زوّجك إباي. فلمّا مات أبوها لم تبك عليه، فقيل لها في ذلك، فقالت: والله أنّ الحزن ليبعثني، وإنّ الغيظ ليصمّتي.

زينب بنت مرّة والمغيرة

وكانت زينب بنت مرّة عند ابن تميم لها يقال له المغيرة فجرى بينهما عتاب فطلّقها ثلاثاً فقالت:

عرج أثّك عن بعض الذي أجدّ

يا أيّها الرّاكب الغادي مطيّه

إلّا وجدت به فوق الذي وجدوا

ما عالج الناس من وجدٍ ومن كمد

وودّه آخر الأيام اجتهد.

حسي رضاه، وإني في مسرّته

الإثم لها في الآخرة

كانت عند رجل امرأة يُقال لها أم مالك وكان بها معجباً. فأقسمت عليه أمّه أن يطلقها، فذهب عقله،

ونحل جسمه. فحضره الموت، فدخلت عليه أم مالك تَعُودُه، فلَمَّا وُلَّتْ قالَ لِأُمِّه: يا عَجُوزَ لِيَهْنِكْ فَقدَ ابْنِكْ في الدُّنْيَا، وَالإِثْمُ لَكَ في الآخِرَةِ. ثُمَّ أَنشَأَ أَن يَقُولَ:

لنا حاجة في آل مروان دونها
من التفر الغرّ الوجوه قبيل
فمت كمداً إن كان يومك قد أتى
أو اصبر على ما خلّيت فقليل

فلَمَّا خَرَجْتَ عَنْه، فَاضَتْ نَفْسُه. وَمَا وَصَلَتْ إِلى مَترِها حَتَّى سَقَطَتْ مَيِّتَةً.

ولات ساعة مندم

قال إبراهيم بن عتبة: طَلَّقَ أَعْرَابِيٌّ امْرَأَتَهُ وَحَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ عَقْلَهُ فَنَدِمَ. وَأَنْشَأَ يَقُولَ:

إذا ذكرت ليلي تفرق دمه
كأن لم تكن عينٌ بها قبل قرّت
وإنّ ثلاثاً منك لو تعلمينه
دنت دون حلو العيش حتى أمرت

راودها عن نفسها ثم تزوجها

أبو العيْناء، عَن أَبِي حَمزَةَ الغَسَّانِي قالَ: نَزَلَ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ بَيْتَ أَعْرَابِيَّةٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ضَيْفًا، فَأَتَتْهُ بِقَرِيٍّ حَاضِرٍ، وَماءٍ بَارِدٍ. فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِليها مِنْ وَراءِ السِّتْرِ، ثُمَّ رَاودَهَا عَن نَفْسِها، فَقَالَتْ لَهُ: يا هَذَا أَمَّا يَقرِّعُكَ الإِسلامَ وَالكَرَمَ؟ كَلِّ، وَإِن أَرَدْتَ غَيرَ ذَلِكَ فَارْتَحِلْ. فَقَالَ لَهَا: زَوِّجِيي إِذا نَفَسَكِ. فَقَالَتْ لَهُ: الأُولِياءُ يَزَوِّجونَكَ. فَخَافَ أَن لا يَزَوِّجُوهُ لِلعداوةِ بَينَ الحَيِّينَ، فَانْتَسَبَ إِلى بَنِي عَدْرَةَ فَزَوِّجُوهُ فَأَقامَ عِنْدَهُمْ زَمانًا. ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّهُ أَسَدِي فَقَالُوا لَهُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَكَفءٌ كَرِيمٌ، وَلَكِنْ نَكَرَهُ أَن تَنكَحَ فِينا وَأَنْتَ حَرَبٌ لَنَا، فَحَلَّ عَن صَاحِبَتِنَا. وَكانَ يَحبُّها حَبًّا شَدِيدًا فَطَلَّقَها، وَقَالَ:

أحبك يا عم حب الحياة
وينيل المنى وبلوغ الظفر
ويعجبني منك عند اللقاء،
حياء الكلام، وموت النظر
ونائي الجبين، شديد البياض،
كثيف الجوانب، مثل القمر .
له وهجٌ كضرام الحريق،
يكاد بمزق جلد الذكر

قال أبو ذكوان: لم تقل العرب فيما يريده الرجال من النساء أحسن من هذا.

عرضوا عليه زواج البصرية فأبى

قال: خرج محمد بن المشيري الخارجي إلى البصرة في طلب ميراث له، وبها نفرٌ من قومه. فأقام بها حولا ينشدهم ويحدثهم. وكانت امرأة منهم ذات جمالٍ ومالٍ لا يطمع فيها أحد. فقالوا له: يا أبا سلمان هل

لك في امرأة منا، سيّدة في قومها جمالاً وعقلاً، وعفافاً، ورأياً، قد سمعت بمقدمك، فذكرت لها، فزعمت أنك طلّقت زوجتك التي خلّفتها في بلدك فرغبت فيك، فإن أحببت أقمت عندنا فيما ترى من طيب بلادنا وربعنا، وعلينا صداقك، وما تحتاج إليه؟ فأقبلوا به وأدبروا واجتهدوا فأبى عليهم، وقال في ذلك:

أسائلُ بالعراق فراقِ سعدٍ
ولا تبدي ولا يراها الفراق
لئن ربح الفراق لهجر سعدي
عليّ أشدّ ما ربح الفراق
إذا عدلوا أقول لهم: لسعدى
خلائقٌ لا يحلّ لها الطلاق
حرامٌ أن يقول نساء قومٍ
تركتك أو تحدث بي الفراق

أهكذا تجازى النساء؟!

سمعت أعرابية تقول لزوجها: يا مفلس، يا قرنان، فقال لها: إن كان ما ذكرت حقاً فواحدة من الله، وأخرى منك، يا زانية، وأنت طالقٌ ثلاثاً.

حرها واسع

خاصمت امرأة زوجها، فطلّقتها فقالت له: يا هذا، لم طلّقتني وقد كنت لك ناصحةً، وعليك شفيقةً، وما فيّ عيبٌ إلاّ ضيقٌ بجبهتي؟ فقال لها زوجها: لو كان الضيق في حرك ما طلّقتك أبداً!

الأهوازية أشدّ ذكاءً

كانت لرجلٍ في الأهواز ضيعةٌ بالبصرة، وكان يتعاهدها في حين الانتفاع بالثمار. فتزوَّج بها امرأةً، وانتهى الخبر إلى امرأته الأهوازية فاستخرقت كتاباً على لسان بعض إخوانه بالبصرة يعزيه في البصرية و يقول: إلحق المال الذي خلّفت ولا تتأخّر. وأعطت الكتاب لبعض الملاحين وجعلت له جعلاً. فلمّا وصل الكتاب إلى زوجها وجد لموتها وجداً عظيماً، وقال للأهوازية: أصلحي لي سفرتي، فيأتي ركبٌ إلى البصرة. ففعلت، فلمّا أصبح الغد ركب فرسه، وأعطته السفرة، ثم قبضت على عنان فرسه وقالت له: ما تكثّر اختلافك إلى البصرة إلاّ ولك بها امرأةٌ تزوّجتها؟ فقال لها: والله مالي بالبصرة امرأة. للذي وقف عليه من الكتاب. فقالت له: لست أدري ما تقول؛ وإئما تحلف وتقول أيّ امرأة لي غيرك طالقٌ ثلاثاً بقول جميع المسلمين؟ فللذي وقف عليه الرجل من موت البصرية قال في نفسه: تلك ماتت، فلم أغير

صدر هذه: فقال لها: كل امرأة لي غيرك في جميع الأقاليم فهي طالقٌ ثلاثاً بقول جميع المسلمين. فقالت له: لا تتعبن فقد طلقت الحبيبة. فندم الرجل، وأسقط ما في يديه.

شعر قيس بعد زواج ليلى

ولما تزوّجت ليلى صاحبة قيس بن الملوّح، هام على وجهه مع الوحش، وكان يقول:

لها في سواد القلب تسعة أسهم	وللتاس في ذاك المكان عشير
ولست بمحصٍ حبّ ليلى لسائل	من التّاس إلا من يقول كثير.
وتنشر نفسي بعد موتي لذكرها،	فموت نفسي مرّة ونشور.
أتاني بعد ظهر الغيب أن قد تزوّجت،	فكادت بي الأرض البراح تمور
فقلت، وقد أيقنت أن ليس بيننا	تلاقٍ، وعيني بالدموع تفور:
لئن كان تبدي برد إيمانها العلى	لأفقر منّي أنّي لفقير.
فما أسرع الأخبار أن قد تزوّجت،	فهل يأتيني بالطلاق. تشير؟

أيريدہ فحلاً لبناتہ

حكى إبراهيم بن محمد بن عرفة قال: كانت أمّ عبد الملك بن سعيد بن خالد بن عمرو، عند الوليد بن يزيد بن عبد الملك. فمرض سعيدٌ، وهو بالبادية، فعاده، فدخل عليه وعنده أختها سلمى، فستروها، فرأى منها لحةً ثمّ قامت، فرأى طولها فطلق أختها وخطبها، فلم يزوجه إياها وكانت أختها أمّ عثمان عند هشام بن عبد الملك، فبعث إلى أبيها: إياك أن تزوج الوليد، تريده أن تتخذه فحلاً لبناتك يطلق واحدةً ويتزوج أخرى؟ فأبى أن يزوجه. فقال الوليد: العجب من سعيدٍ، خطبت إليه فردّني، ولو قد مات هشامٌ واستخلفت لزوجنيها، فإن زوجتها فهي طالق، وإن كنت أهواها. وقد ذكرنا حديثه مستقصى في موضعه من هذا الكتاب.

هي طالق ألف مرّة

خاصمت امرأة زوجها إلى المطّلب بن حبط المخزومي قاضي المدينة، وكانت قالت له: أسأت إليّ وأوجعتني، ووالله ما أستطيع، فإنّ بنتك تسمي من الجوع والجهد وما أقمن إلا على الوطن. فقال: أنت طالقٌ إن كان لا يقمن إلا على الوطن! فأخبرت القاضي بما قالت، وبما قال. فقال القاضي: بطلب

المقادير، وربّ الكعبة، إنّ الأيّل ليكون بالمكان الجذب الخسيس المرعى فتقيم فيه بحبّ الوطن. فقال الزوج: كأنّ المسألة، أصلح الله القاضي، أشكلت عليك هي طالق ألف مرّة.

طلقها وندم

وطلق عليّ بن منظور امرأته فندم عليها ندماً شديداً، فقال:

وفقدت عاقبة الطلاق

ما للطلاق فقدته

تحت السموات الطباق

طلّقت خير خليله

وأحبّت امرأة الأعرابي أن تفارقه فقال:

بعيش مثل مشرفة الجمال

تمنين الطلاق وأنت منّي

أحبّ إليه ليلة طلق فيها نساؤه

قال خالد بن صفوان: ما بتّ ليلة أحبّ إليّ من ليلة طلّقت فيها نسائي، فأرجع والسّور قد هتكت ومتاع البيت قد نقل. فبعثت إليّ بنتي سليلة فيها طعام، وبعثت الأخرى إليّ بفراشٍ أنام عليه.

أو ضيق الفرج أو الطلاق

وقيل لامرأةٍ كانت تطلق كثيراً: ما لك تطلقين أبداً؟ قالت: يريدون الضيق، ضيق الله عليهم قبورهم.

طلقها ثلاثاً

وقال أعرابيٌّ لامرأته:

وأفريت عمري عاماً فعاماً

أنوّهت باسمي في العالمين

ق وأنت الطلاق ثلاثاً توأماً

فأنت الطلاق وأنت الطلا

حلاوة الجماع

عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضي الله عنها: أنّ امرأة رفاعة أتت إلى النبيّ، صلّى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله إنّ رفاعة طلقني، فبتّ طلاقي، وإني تزوّجت بعده بعبد الرّحمن بن الزبير وما معه

إلا مثل هدبة الثوب، فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة! لا، حتى تذوقي عسيلة الزّوج الثاني ويزوق عسيلتك.

طلّقها عدد شعر مؤخّرتها

دخل مديني البصرة، فزوّج فيها امرأةً: ثمّ حصل بينهما شرٌّ، فقال لها: أنت طالقُ عدد شعر أسّتك. فقالت: قاتلكم الله يا أهل المدينة تسرّعون الطّلاق وتؤثرون الخلاق.

يلتمسون الضّيق ضيق الله عليهم

قال عبد الرّحمن بن حسان بن ثابت لعطاء بن صيفي الثّقفي: لو أصبت ركوةً مملوءةً خمرًا بالبيع ما كنت صانعاً بها؟ قال: أفرّقها في بني النّجار فإنّها لا تعدوهم. ولكن أخبرني، أيهما أكبر جدك ثابت أم جدتك فريعة؟ قال لا أدري. قال عطاء: الفريعة كانت أكبر، وقد تزوّجتها قبله أربعة أزواج كلّهم يلقاها بمثل ذراع البكر ثمّ يطلّقها. فقيل لها: يا فريعة، لم تطلّقين وأنت بمثل هذا الجمال؟ قالت: يلتمسون الضّيق، ضيق الله عليهم.

مكابدة العفة أيسر من الاحتيال

وطلق أعرابي زوجته، فقيل له: ألا تتزوّج بعدها؟ فقال: مكابدة العفة، أيسر من الاحتيال. بمصلحة العيال.

ضرت فسخرت منه فطلّقها

تزوّج الفضل بن قطن الحارثي ابنة المهلب بن أبي صفرة. فجلس معها يشرب، فأراد الافتخار عليها فقال: إن كنت ساقيةً يوماً على كرمٍ كأس المدام فأسقيها بني قطن ثمّ إنّه تحرك فضرط. فقالت: وأسقي هذه بني قطن أيضاً؟ فحجل وقال: إذهبي فأنت طالق.

طلّقها فتزوّجت رجلاً دميماً

وطلق عطية بن أشجع محجوبة بنت عبد الله، امرأته فتزوّجت رجلاً دميماً فقال في ذلك:

لعمري أبي سلمى، ولست بشامتٍ
بسلمى، فقد أمست بها التعل زلت .
وليس لمغفورٍ لسلمى ذنوبها
وإن هي صامت كل يومٍ وصلت،
ولو ركب ما حرّم الله لم يكن
بأعظم عند الله ممّا استحلّت؟

الكاذبة الفاجرة الضارطة

كانت لبعض الصالحين امرأةً تبغضه، فكان إذا نماها عن أمرٍ دعت الله أن يريحها منه، وأن يعجل طلاقها، فأضجرت يوماً فطلقها، فسجدت لله شكراً، فقال الرجل: اللهم إنيها وضعت إليك فما كاذباً، ووجهاً وقاحاً، ورفعت أستا مجاهرةً بالفحشاء فاجرةً. فوثب سنور في البيت فأفرعها، فضرطت، فقال: الحمد لله الذي سهّل فرقتك وعجل فضيحتك.

باب ما جاء في الغيرة

يروى عن عروة بن الزبير، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول وهو على المنبر: "لا شيء أغبر من الله." وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: أن الله ليغار للمسلم فليغر وعنه، وعن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ليس شيء أغبر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش." وعن كعب بن مالك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "الغيرة، غيرتان: فغيرةٌ يحبها الله، وغيرةٌ يكرهها الله." قلنا يا رسول الله، ما الغيرة التي يحبها الله، قال: "أن يغار أن يأتي معاصي الله، وينتهك محارمه." قلنا وما الغيرة التي يكرهها: قال "أن يغار أحدكم في غير كنهه." وعن عبد الملك بن عمير بن عبد الله بن بكار أنه قال: "الغيرة غيرتان: غيرةٌ يصلحها بما الرجل أهله، وغيرةٌ تدخله النار."

ويروى: أن سارة كانت تحب إبراهيم خليل الرحمن. فمكثت معه دهرًا لا ترزق ولداً، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر، وكانت أمة لها قبطية، فولدت لإبراهيم إسماعيل، صلى الله عليه عليهما، فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها، وعتبت على هاجر. فحلفت لتقطعن عضواً من أعضائها فقال لها إبراهيم، صلى الله عليه عليهما: هل لك أن تبري يمينك؟ قالت: كيف أصنع؟ قال: أتقي أذنيها وخصفيها. والخصف هو الخياطة. ففعلت ذلك بها، فوضعت في أذني هاجر قرطين فازدادت حسناً. فقال سارة: إني إنما زدتها جمالاً؛ فلم تتركه على كونها معه. ووجد بها إبراهيم وجداً شديداً، فنقلها إلى مكة وكان يزورها في كل وقت من الشتاء لشغفه بها، وقلة صبره عنها.

الكلام عن بعد ممنوع

وعن ابن أبي مليكة: أن ابن عمرو سمع امرأته تكلم امرأةً من وراء جدار، بينها وبينها قرابة لا يعلمها ابن عمرو، قال: فجمع لها جرائد ثم أتى فضربها بها.

عادة غير مستحسنة

وعن علقمة: أن معاذ بن جبل كان يأكل تفاحةً ومعه امرأته فدخل عليها غلاماً، فناولته امرأته تفاحةً قد أكلت منها فأوجعها ضرباً.

غيرة المرأة على قدر لذتها

وقال بعضهم: لذة المرأة على قدر شهوتها، وغيرها على قدر لذتها. واستدل بإفراط غيرها على إفراط حرصها. وهذا القول خطأ قد علمنا أن الرجل أشد غيرةً على المرأة من المرأة على الرجل. وربما كان الذي يبدو من المرأة عند تسري زوجها بالسرايري وتزويجه المهيرات، وحين تراه مع بعضهن توهيماً للفعل أن ذلك من الطربة والكرهية المشاركة فيه. وبعض ذلك يكون من طريق الألفة والتفاسة به، وليس شكل ما تلقى المرأة إذا رأت فراشها، من شكل ما يلقي الرجل إذا رأى على فراش امرأته رجلاً. لأن المرأة قد عاينت أن الرجل له أربع نسوة وألف جارية يطؤون بملك اليمين، لما أحله الله في الشريعة. وكذلك غيرة فحول الحيوان على إناثها، لأن فحل الحيوان يقاتل دونها كل فحل يعرض لها حتى تصير إلى الغالب. قال الراجز.

يغار والغيرة في خلق الذكر والأمم تختلف في الغيرة. فمن الصقالبه ناس لا يتزوجون من قرب منهم في النسب ولا الدار. وإذا مات البعل خنقت المرأة نفسها أسفاً عليه.
والمرأة في الهند إذا مات زوجها وأرادوا حرقه، جاءت ليحرقوها معه.
والديلمي يخرج من الديلم إلى حدود ما بين دار الإسلام والديلم، ومعه امرأته وإخوانه وعماته فيبيعهن صفقة واحدة، ويسلمهن إلى المبتاع، لا تدمع عينه ولا عين واحدة من عياله.

تكرم طبرستان من العجائب

وأهل طبرستان لا يتزوج الرجل الجارية منهن حتى يستبطن بها حولاً محرماً ثم يقدم بها فيخطبها إلى أهلها ويتزوجها، ثم يزعمون مع ذلك أنه يجدها بكرًا، وقد عانقها في إزار واحد سنة كاملة وهو لا يستبطن بها، ويحتمل وحشة الاغتراب، وانقطاع الأسباب. وإن من أعجب العجب أن يمكننا متعاقبين في لحاف واحد يحتجران عن ألد الأمور تكراً. وهذا التكرم عند علوج طبرستان من العجائب.

ثلاث خصال من السؤدد

قال معاوية، رضي الله عنه: ثلاث خصال من السؤدد، الصلح، واندماج البطن، وترك الإفراط في الغيرة.

غيرة قيس بن زهير

ولما نزل قيس بن زهير ببعض العرب قال لهم: أتني غيورٌ، وأنا فخورٌ، وأنا أنفٌ، ولكن لا أغار حتى أرى، ولا أفخر حتى افعل، ولا أنف حتى أضام. فعابوه بقوله لا أغار حتى أرى ويظنّ به إنّما عني رؤية السبب لا رؤية المرافقة.

وعابوا معاوية أيضاً بقوله هذا ونسبوه إلى قلة الغيرة وما أرى في قوله وترك الإفراط في الغيرة عيباً لأنّ الإفراط المجاوز للحقّ ولمقدار المصلحة وظلم الخليفة العفيفة والحرمة الكريمة غير لائقٍ. وعاب الناس قول هدبة بن خشرم حيث يقول:

فلا تنكحي إن فرّق الدهر بيننا
أغمّ القفا والوجه ليس بأنزعا

فهذا يأمرها بتزويج الأنزع القليل شعر القفا والوجه.
ولا أرى فيه عيباً أيضاً لأنّ إنّما قال ذلك ليذكرها جمال نفسه ليزهدها في غيره.

عبد الملك يعيب قولاً على نصيب

وأما قول نصيب:

أهيم بدعدٍ ما حييت وإن أمت
فيا ليت شعري من يهيم بما بعدي

فإنّي لم أجد له تأويلاً. وعاب ذلك عليه عبد الملك بن مروان، وقال لجلسائه: أو لو كنتم قائلين هذا البيت ما كنتم تقولون؟ قالوا: لا ندرى، فكيف كان أمير المؤمنين قائلًا: قال: كان يقول:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت
فلا صلحت دعدٍ لذي حلّةٍ بعدي

بعض عادات العرب

وكان الرّجل من العرب إذا خرج مسافراً بدأ بالشّجرة يعقد خيطاً على ساقها أو على غصنٍ من أغصانها، فإذا رجع إلى أهله بدا إلى الشّجرة فنظر إلى الخيط، فإن كان منحللاً حكم أنّ امرأته خانت، وإن كان على حاله حكم أنّها حفظته.

وأنشد أبو زيد النحوي:

هل ينفحك اليوم إن همت بهم
كثرة ما توصي وتعفي والرّم

والرّتم اسمٌ للخيط الذي يعقد في الخنصر لتذكّر الحاجة.
وكان معاوية بن أبي سفيان يتمثل بقول الشاعر:

ومودّع لم يستطع تسليماً
ومراكبٍ رجع السّلام بكفّه

الغيور المتمطّق

وقال آخر:

وأضحى الغيور، أرغم الله أنفه،
وقد مدّ شذقيه من الغيظ والأذى
على ملتقانا قائماً يتمطّق
كما مدّ شذقيه الحمار المحنّق

الغيور في نظر الرّاعي

وقال الرّاعي:

وظلّ الغيور أرضاً بينانه
لقد رابني أن الغيور يودّي
كما عضّ برذون على الفاس جامح
وصدّ ذوات الظّعن عتّي وقد رأت
وأنّ نداماي الكهول الجحاح
كلامي لمراء السنّ الطّوامح؟

ابن الدّمينة وخميص الحشا

وقال عبد الله بن الدّمينة:

ولمّا لحقنا بالحمول، ودوننا
عرضنا، فسلمنا، فسلم كارهاً
خميص الحشا تؤذي القميص عواتقه،
فرافقته مقدار ميلٍ وليتني،
علينا، وتبريح من الغيظ خانقه.
على زعمه، ما دمت حيّاً أرافقه

الدّارميّ لا يفارق عرسه

وقال مسكين الدّارميّ:

وإني امرؤ لا ألقى إلاّ قاعداً
ولا مقسماً لا تبرح الدّهر بيتها
إلى جنب عرسي لا أفارقها شبرا
إذا هي لم تحصن أمام قناعها،
ليجعلها قبل الممات لها قبراً.
ولا حاملي ظنّي، ولا قول قائلٍ
فليس بمنجيتها بنأي له قصرأ،
على غيرها، حتّى أحيط بها خبراً.

فهبي امرأ راعيت ما دمت شاهداً

فكيف إذا ما سرت عن بيتها شهراً؟

وقال مسكين أيضاً:

ألا أيها الغائر المستشيط،

على ما تغار إذا لم تغر؟

تعار على الناس أن ينظروا!

وهل يغبن للحاصنات النظر؟

فما خير عرسٍ إذا خفتها

وبتّ عليها شديد الحذر؟!

تكاد تصفّق أضلاعه

إذا ما رأى زائراً أو زفر.

فمن ذا يراعي له عرسه

إذا ضمّه، والمطيّ، السّفر؟

شعراء ماتوا قتلاً

وثلاثة من شعراء أولاد العجم ممن كان مشتهراً بالقول مذكوراً، بالشعر بالبادية، كلهم قتلوا منهم: وضّاح اليمن، ويسار الكواعب، وسحيم عبد بني الحسحاس. وإتّما قتلوا كفاً عن أولئك النساء، وحفظاً لهنّ، حين رأوا التعرّض، وشنعة تلك الأشعار لا يشغلهم عنها إلاّ قتلهم مخافة أن يكون ذلك القتل يحقّق المقالة القبيحة. ألا ترى أن الحجاج بن يوسف في عتوّه لم يتعرّض لابن نمير في تشبّهه بزینب أخته مخافة أن يكون ذلك سبباً للخوض في ذكرها. فيزيد زائداً، ويكثر مكثراً. وكذلك معاوية بن أبي سفيان لم يعترض لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت وكان يتشّبب بابنته، حتّى قال:

ثمّ حاضرهما إلى القبة الخضراء

تمشي في مرمرٍ مسنون

شعر سحيم الإباضيّ

ومن أحقّ بالقتل من سحيم عبد بني الحسحاس؟ حيث يقول:

وبتنا وسادانا إلى علجانةٍ

وحقفٍ تماداه الرياح تماديا

توسّدي كفاً وتنيّ معصمٍ

عليّ، ونحوي رجلها من ورائيا

وهبت شمالاً آخر الليل قرّةً

ولا ثوب إلاّ درعها وردائيا

فما زال ثوبي طيباً من نسيمها

إلى الحول حتّى أنهج الثوب باليا

ومرّوا به ليقتلوه على الذي اتّهم بها، فضحكت، فقال:

فإنّ تضحكي منّي فيا ربّ ليلةٍ،

تركتك فيها كالقواء المفرج

كاد يقتلها عقيل المرّي

وحكى العتيبي، قال: سمع عقيل بن علقمة المرّي بنتاً له ضحكت، فشهقت في آخر ضحكها. فأخذ السيف وحمل عليها وهو يقول:

فرقت، أي رجل فروق، من ضحكة آخرها شهيق

قال: فنادت يا أخوتاه! فبادروا فحاولوا بينه وبينها.

عقيل وابنته الجرباء

وحكى أبو حاتم السجستاني عن الأصمعي، قال: كان عقيل بن علقمة غيوراً، وكان الخلفاء يصاهرونه، وكانت له ابنة يقال لها الجرباء. فكان إذا خرج إلى الشام خرج بها لفرط غيرته. فخرج بها مرةً وبابنٍ يقال له عميس، فلمّا كانوا بدير سعدٍ قال عقيل:

قضت وطراً من دير سعدٍ وربّما غلا غرضٌ ناطحته بالجماحم

ثمّ قال لابنه أجز يا عميس. فقال:

فأصبحن بالمومة يحملن فتيةً نشاوي من الإدلاج، ميل العمائم

ثمّ قال لابنته: أجز يا جرباء. فقالت:

كأنّ الكرى أسقاهم صرّ خديّة عقارٌ تمثّت في المطا والقوائم .

فقال لها: وما يدريك أنت ما نعت الخمر؟ هذه صفةٌ من قد شربها.

وأخذ السوط فأهوى نحوها، وجاء عميس فحال بينه وبينها، فضربه فأوجعه فرماه عميس بسهم، فشكّ فخذيّه فبرك، فمضوا وتركوه حتّى إذا بلغوا أداني المياه منهم، قالوا: اللهمّ أسقطنا جزوراً لنا. فأدركوه وخذوا معكم الماء. ففعلوا، فإذا عقيلٌ بارك وهو يقول:

أنّ ابني زملائي بالدم من يلق أبطال الرجال يكلم

ومن يكن درءً به يقوم ششنةً أعرفها من أحزم

ثمّ زوّجها يزيد بن عبد الملك. وقد ذكرنا خبره في ما مضى .

مقدّمات الغيرة

قال: ومّا يحدث الهوى في قلوب النساء لغير أزواجهنّ، ويدعوهنّ إلى الحرص على الرجال، والطلب لهنّ أمورٌ منها: أن يظهر لها زوجها شدّة الحذر عليها، والاحتفاظ بها، والغيرة في غير موضعها. أو يكون

الرَّجُلُ مِنْهُمْ كَأَنَّ فِي الْفَسَادِ، مَظَاهِرًا لَهَا بِالزَّنَا. فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَغْرِيهَا مِنْ طَلَبِ الرِّجَالِ، وَالْحِرْصِ عَلَيْهِمْ. كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

ما أحسن الغيرة في حينها،
من لم يزل متهماً عرسه
أوشك أن يغريها بالذي
حسبك من تحصينها ضمها
لا تطلع منك على ريبةٍ
فيتبع المقرون حبل القرين.

عبد الله بن رواحة وزوجته

ذكر الشعبيّ إنّ عبد الله بن رواحة أصاب جاريةً له، فسمعت به امرأته، فأخذت شفرةً فأنته حين قام وقالت له: أفعلتها يا ابن رواحة؟ فقال: ما فعلت شيئاً. فقالت: لتقرآن قرآناً، وإلاّ بعجتك بما. قال: ففكرت في قراءة القرآن وأنا جنب فهبت ذلك، وهي امرأةٌ غيراء في يدها شفرةٌ لا آمن أن تأتي بما قالت. فقلت:

وفينا رسول الله يتلو كتابه
أرانا الهدى، بعد العمى، فقلوبنا
بيت يجافي جنبه عن فراشه،
إذا أنشقّ معروفٌ من الصّبح ساطع
به موقناتٌ، أن ما قال واقع
إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

قال: فألقت السكّين من يدها، وقالت: آمنت بالله، وكذّبت البصر. قال: فأتيت النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فأخبرته بذلك، فضحك وأعجبه ما صنعت.

المصيبة في معاتبة المرأة الرّجل

وكان بعض العلماء لشدة شهوة الباه في قلوب النساء، وتمكّنه فيهنّ، وشدة غيرته، يقول: ليس المصيبة في معاتبة الرّجل المرأة، إنّما المصيبة في معاتبته إياه. فإنّها إن نظرت إليه ووقع بقلبها موقع حظوةٍ لم يلبث أن تصير في يده، وتبعث الرّسائل والأشعار والتّحف.

يخاف عليها من عينيها

قال إسحاق: رأيت رجلاً بطريق مكّة، تعادله في الحمل جاريةٌ قد شدّ عينيها والغطا مكشوف، ووجهاً بادٍ، فقلت له في ذلك. فقال: إنّما أخاف عليها من عينيها، لا من عيون الناس.

سعيد بن سليمان والإتكشاف

قال سعيد بن سليمان لئن يرى حرمي ألف رجلٍ على حالٍ يكشف منها، ولا تراهم، أحبّ إليّ من أن ترى حرمي رجلاً واحداً غير منكشف.

حتى على العميان

واستأذن ابن أمّ مكتومٍ على رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وعنده امرأتان من نسائه، فقال لهما: "قوما وأدخلا البيت." فقالتا: يا رسول الله، هو أعمى، فقال: "أفعمياوان أتما؟".

باب تابع لما قبله

وبالرجال أعظم حاجة إلى أن يعرفوه ويقفوا عليه، وهو الاحتراس من أن يلقي الخبر السابق إلى السمع لأنه إذا ألقى دخل ذلك الخبر السابق إلى مقرّه دحولاً سهلاً وصادف موضعاً وطيباً، وطبيعة قابلة. ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته. ومتى ألقى إلى الفتيات شيء من أمور الفتیان في وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة، وعند قلة الشواغل، قوي استحكامه، وصعبت إزالته. وكذلك متى ألقى إلى الفتیان شيء من أمورهنّ وهناك سكر الشباب. فكذاك يكون حالهم، وإنّ الشياطين ليخلو أحدهم بالغلام الغرير فيقول له لا يكن الغلام فتىً أبداً حتى يصادف فتىً. فما الماء البارد العذب بأسرع في طباع العطشان من كلمته إذا كان الغلام أدنى هوى في الفتوة. وكذلك إذا خلت العجوز بالجارية الحديثة.

وقيل لابنة الحسن: لم زيت بعبدك ولم تزن بجرّ، وما أغراك به؟ قالت: طول السواد، وقرب الوساد. ولو أنّ قبح الناس وجهاً، وأخبثه نفرأ، وأسقطهم همّة، قال: لامرأة قد تمكّن كلامها وأعطته سمعها: والله يا سيّدي ويا مولاتي، لقد أتعبت قلبي، وأرقت عيني، وشغلّني عن مهمّ أمري، فما أعقل أهلاً ولا مالاً ولا ولداً. لنقض طباعها، وفتح عقدها ولو كانت أبرع الخلق جمالاً، وأكملهم كمالاً. وإتما قال عمر رضي الله عنه: أضربوهنّ بالعري لأنّ الثياب هي الدّاعية إلى الخروج من الأعراس، والقيام في المناجاة، والظهور في الأعياد. فمتى كثر خروجها لم يعد لها أن ترى من هو من شكل طبيعتها، ولو كان بعلمها أتمّ حسناً والذي رأت أنقض حسناً، لكانت بما لا تملكه أطرف ممّا تملكه. وكانت ممّا لم تملكه وتستكثر منه أشدّ الوجد وهي به أشدّ استقبالاً. كما قال:

يجوعهن حتى لا يأشرن

وقيل لعقيل بن علقمة: أما تخاف على بناتك وقد عنسن ولم تزوجهن؟ قال: كلا، أجوعهن فلا يأشرن، وأعريهن فلا ينظرن. فوافقت إحدى كلمتيه قول النبي صلى الله عليه وسلم، ووافقت الأخرى قول عمر رضي الله عنه. فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الصوم وجاء." وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أضربوهن بالعري. قال:

هارون البردعي والعطار

وكان هارون بن عبد الله البردعي يقول لأهله: محرّم عليك إن نظرت إلى سائل يقف ببابك، وسمعت حلاوة نغمه. وكان ينهي الباعة إذا دخلوا سكنه عن النداء على بضائعهم. ورأيته مرّة يضرب عطّاراً سمعه يترنّم بوصف العطر وكان ينفق بضاعته حسن صوته، فيقول: العود المطريّ، والحلب واللبان والمسك والعنبر. ويردّد ذلك بصوته فيرجّعه.

فكان النساء يستمعن إليه ويشرفن من المطالع ويتبعن الأبواب حتى تصل عيونهنّ إلى النظر إليه لو أراد الجماع لكفتهن الآذان وربما اشترين منه ما لا يحتجن إليه. قال: فقلت له: يا أبا وائل، فإنك قد انعم الله بشيء كنت تمنعه! قال: جعلت فداك، إنّما أمتنع منعي لنفسي لئلا يسمعه من في منزلي. فإن النساء أسرع شيء ذهبا قلوب إلى النغمة الحسنة، فإن كان معه حسن وجه برئت المرأة من الله أن لم تحتل في صرف قلبه إليها، ويصير الزوج قواداً. قلت: لا، ولا كل هذا! قال: فأسألك ألا سألته أن يستعمل هذا الكلام مرّة أو مرّتين أو ثلاثاً في غير هذه السكّة. فذبتنا به إلى غيرها وجعل العطّار ينادي فما أتمّ الثالثة حتى تحركت أكتافي له طرباً وجعلت لا أمر ولا آجي لما سكرت من حسن صوته. فقال: كيف تراه؟ قلت: أراه يستولي على قلوب الرجال. قال: فكم قلب الرجل على ترك التّهتك من قلب المرأة؟ هذا إذا كانت بلغت من السنّ مبلغاً ونقضت شهوتها فأما إذا كانت شابّة ولها فضل جمال، ومعها شدة شهوة، وكثرة لذّة، وهي ذات حاجة، وخالية الذرع من الفكرة في المعاش، وخالية القلب، وقد أمنت ضرب الزوج وتطليقه، وغيره الأخ، وقلة صيانة الأب، وأصاب من يشجّعها على فعلها، ويفتح لها أبواب نظرهما، ويسعى لها في طلب الصديق، ويحرضها على التّهتك، وقد قرب منها الصوت، وخلت من الرقيب، ولم يكن لها في الأرض أشراف، ولا أهل عفاف، فما يبرق السهم من الرمية كمروق هذه إلى الباطل.

شيئان لا تؤمن عليهما المرأة

وكانت هند بنت المهلب من عقلاء النساء وكانت تقول: شيئان لا تؤمن عليهما المرأة: الرجال، والطيب.

سوء الظن من شدة الحب

وأشده إسحاق بن إبراهيم:

وإني بما في كلِّ حالٍ لوائقٌ ولكنَّ سوءَ الظنِّ من شدَّةِ الحبِّ

لا تأمنن النساء

وأشده آخر:

لا تأمنن على النساء ولو أحياناً، ما في الرجال على النساء أمين
كلَّ الرجال وإن تعفَّ جهده لا بدَّ أنَّ بنظرةً سيخون

ديك الجن وجاريتته وغلّامه

وقال عبد السلام بن رغبان المشهور بديك الجن شعراً أديباً، ذا همّة حسنة. وكان له غلامٌ كالقمر، وجاريةٌ كالشمس. وكان يهواهما جميعاً. فدخل ذات يومٍ بوجد الجارية معانقةً للغلام تقبله، فشدّ عليهما فقتلهما جميعاً. ثمّ جلس عند رأس الجارية فبكاها طويلاً وقال:

يا طلعةً طلعت الحمام عليها
فجنى لها ثمر الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال خناقها
ومدامعي تجري على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما
روى الهوى شفتي من شفّتها
فوحق نعلها، وما وطىء الحصى،
شيءٌ أعزّ عليّ من عينيها
ما كان قتلها لأنّي لم أكن
أبكي إذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على الأنام بحسنها
وأنفت من نظر العيون إليها

ثمّ جلس عند رأس الغلام يبكي:

أشفقت أن يرد الزمان بغيره
أشفت أن يرد الزمان بغيره
قمرٌ أنا استخرجته من دجنةٍ
أو أتلي بعد الزمان بهجره
فقتلته وبه عليّ كرامةً
لمودّي وجلوته في حدره
فلي الحشا وله الفؤاد بأسره

عهدي به ميّتا كأحسن نائمٍ
لو كان يدري الميّت ماذا بعده
غصصٌ تكاد تفيض منها نفسه
والطّرف يسفح دمعي في نحره
بالحيّ منه بكى له في قبره
ويكاد يخرج قلبه من صدره

الرازي وبدر التّمّام

وأنشد الرازي:

أما واهتزازك لو أستطيع
ومن أين للبدر وجه ميّتٍ
فهيه حكاك بحسن الضّيّا
أغار على حسنه إذ حكا
لما لحظ التّاس بدر التّمّام
ويحيى إذا شاء بالابتسام
فمن أين للبدر حسن القوام؟
ك وكان بذلك عند الأنام

غيرة أبي تّمّام

وأنشد لأبي تّمّام:

بنفسي من أغار عليه مّيّ
ولو آتي قدرت طمست عنه
وأحسد مقلّة نظرت إليه
عيون التّاس من حذري عليه

وأنشد الآخر:

أغار عليك من قلبي
وأشفق أن أرى حدّي
ولو أعطيتني أملي
ك نصب مواقع القبل

غيرة جميل بن معمر

ويروى أن جميل بن معمر قال لبثينة: ما رأيت مصعب بن الزبير يخطر بالبلاد إلّا أخذتني عليك الغيرة.

علي الجعفري وحرارة الهوى

وعن علي بن عبد الله الجعفري، وكان شاعراً وأديباً، قال: كنت أجلس بالمدينة وأنشد أشعاري، فحجّ أبو نواس فلمّا صار إلى المدينة وأنا ذات يومٍ أنشد، والنّاس مجتمعون عليّ، إذ دخل أبو نواس. فرأيته من بين النّاس ثمّ قال: يا هذا ألاّ تنشُد بيتك اللذين تكشّحت فيهما؟ فقلت: وما هما. قال: اللذان تقول فيهما:

ولمّا بدا لي أنّها لا تحبّي

وأنّ هواها ليس عني بمنجلي

تمنيت أن تبلي بغيري لعلّها

قلت: أفلا أنشدك بيتي اللذين أتغايّر فيهما؟ قال: بلى. فأنشدته:

ربّما سرّي صدودك عني

وطلايبك وامتناعك منّي

حذراً أن يكون مفتاح غيري

قال: فسألت عنه. فقل لي أبو نواس.

لا تسألن رجلاً فيم يضرب امرأته؟

قال الأشعث بن قيس نزلت ببعض أصحاب النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فقام إلى امرأته فضربها، فحجزت بينهما. قال: فرجع إلى فراشه، وقال: يا أشعث، احفظ شيئاً سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "لا تسألن رجلاً فيم يضرب امرأته؟".

أبو الأصبع وبناته الأربع

قال ابن عائشة: كان أبو الأصبع العدوانيّ غيوراً، وكان له أربع بنات، فأبى أن يزوجهنّ، فقالت واحدةٌ منهنّ: لتقل كلّ واحدةٍ منّا ما في نفسها. فقالت كبراهن:

ألا ليت زوجي من أناسٍ ذوي غنى

حديث الشّباب طيب التّشر والذّكر

لصوقٌ بأكباد النّساء كأنّه

قلن لها أنت تريدين شاباً غنياً: وقالت الثانية:

عظيم رماد القدر رحبٌ فناؤه

له جفنةٌ يشقى بها التّيب والجزر

له خلقان: الشّيب من غير كبره

تشرين، ولا وانٍ ولا صرع غمر

فقلن لها أنت تريدين سيّداً.

وقالت الثالثة:

ألا هل تراها مرّةً وخليتها

يضمّ كبعل المشرفيّ المهند

عليه رواءٌ ليسار ورهطه

فقلن لها أنت تريدين ابن عمّ لك قد عرفته.

وقلن للصّغرى: ما تقولين أنت؟ فقالت: لا أقول شيئاً. فقلن لها: لن ندعك لأنك أطلعت على أسرارنا

وكتمت سرّك. فقالت: لا أدري ما أقول، إلاّ أنّه زوجٌ من عود، خيرٌ من قعود. قال: فخطبن، فزوَّجهنّ جميعاً.

لا تكثروا الغيرة على أهلكم

وروي عن سليمان بن داود عليهما السّلام أنّه قال لابنه: يا بني، لا تكثر الغيرة على أهلك من غير ريبة، فترمي بالسّوء من أجلك وإن كانت بريئة.

مدّ يده فلمس أربعاً

وقال بعض الظّرفاء: كنت شديدة الغيرة، فأخبرت بمجيء قبيلة سوداء فذهبت مع إخوان لي عندها ليلةً فطفئ السّراج، فضربت بيدي إلى صدرها فإذا دون يدي أربع أيدي، فما أعلم أنّي خطرٌ ببالي امرأةً بعد ذلك.

غيرة سليمان بن عبد الملك

قال: كان سليمان بن عبد الملك من أشدّ التّاس غيرةً. فحكى أبو زيد الأَسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو على دكانٍ مبلّطٍ بالرّخام الأحمر، مفروشٌ بالدّيباج الأصفر في وسط بستانٍ قد أُنعت ثماره، ورنّت أطياره، وأزهر نبت الرّبيع؛ وعلى رأسه وصائف كلّ واحدةٍ أحسن من صاحبتهَا، فقلت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكان سليمان مطرفاً فرفع رأسه فقال: أبا زيد، في مثل هذا اليوم يصلب أحدٌ حيّاً. فقلت: يا سيّدي، يا أمير المؤمنين، أو قد قامت القيامة؟ قال: نعم على رأس أهل الهوى سرّاً.

ثمّ أطرق رأسه، وقال: أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا؟ فقلت: قهوةٌ حمراء، في زجاجةٍ بيضاء، تناولنيها مقدودةً هيفاء، مضمومةٌ لفاء دعجاء، أشربها في كفّها، وأمّس فمي بقمها: فأطرق سليمان مليّاً ودموعه تنحدر. فلمّا رأى الوصائف ذلك تنحّين عنه فرفع رأسه وقال: يا أبا زيد، حللت والله في يومٍ فيه انقضاء أجلك، وتصرم مدّتك، وفناء عمرك. والله لأضربنّ عنقك أو تخبرني ما الذي أثار هذه الصّفة من قلبك؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كنت جالساً على باب أخيك سعيد بن عبد الملك وإذا جاريةٌ قد خرجت إلى باب القصر عليها قميصٌ اسكندراني، يبين منه بياض ثدييها، وتدوير سرّتها، ونقش تكتها؛ وفي رجليها نعلاها، قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعلبيها؛ ولها ذؤابةٌ تضرب إلى حقويها وتسيّل كالعثاكيل على

منكيها؛ وطرة قد أسبلت على جبينها؛ ولها صدغان كأنهما نونان على وجنتيها، وحاجبان قد تقوسا على محجري عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنفٌ كأنه قصبه درٌّ، وهي تقول: عباد الله ما الدواء لما لا يشتكي، والعلاج مما ينتمي؟ طال الحجاب، وأبطأ الكتاب. العقل ذاهب، واللبّ عازب، والعين عبرى، والأرق دائم، والوجد موجود، والتنفس والهة، والفؤاد مختلس. فرحم الله قوماً عاشوا تجلداً، وماتوا تبدلاً: لو كان في الصبر حيلة، وإلى العزاء وسيلة، لكان أمراً جميلاً!

فقلت: أيتها الجارية أنسيّة أنت أم جنّية سماويّة أو أرضيّة، فقد أعجبتني ذكاء عقلك، وأذهلني حسن منطقتك؟ فسترت وجهها بكمّها كأنها لم تربي، وقالت: أعذر أيّها المتكلّم، فما أوحش الوجد بلا مساعد، والمقاساة لصب معاند. ثمّ انصرفت، فوالله يا أمير المؤمنين ما أكلت طيباً إلّا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلّا سمج في عيني لحسنها. فقال سليمان: أبا زيد كاد الجهل يستفزني، والصبّ يعاودني، والحلم يغرب عني. تلك الذلّفاء التي يقول فيها الشاعر:

أخرجت من كيس دهقان

إتّما الذلّفاء ياقوته

شراؤها على أخي ألف درهم، وهي عاشقة لمولاها الذي باعها منه. والله لا ملت إلّا بحسرتها، ولا فارق الدنيا إلّا بغصتها. وفي الصبر سلوة، وفي توقّع الموت نهيّة. قم أبز زيد فأكنتم المفاوضة، ويا غلام ثقل يده بيدرة. قال: فلما هلك سعيد بن عبد الملك صارت الجارية إلى أخيه سليمان ولم يكن في عصرها أحمل منها، فملك قلبه، وغلبت عليه دون سائر جواريه. فخرج يوماً إلى دهناء الغوطة بموقع يقال له دير الرهبان فضرب فسطاطه في روضة خضراء موقنة، زهراء ذات حدائق وبهجة، حفّها أنواع الزهر الغضّ. فمن بين أصفر فاقع، وأبيض ساطع، مثل التّبات تحمل منه الرّيح نسيم المسك الأذفر، ويؤدي تضوّع عرفها فتيت العنبر.

وكان له مغنٌ يأنس به، ويكثر الخلو معه، ويستمتع حديثه، يقال له يسار. وكان أحسن النّاس وجهاً، وأظرفهم ظرفاً. فأمر بضرب فسطاطة بالقرب منه وكانت الذلّفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه. فلم يزل يسار يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتمّ حبور، إلى أن أتى الليل وحن انصراف يسار إلى موضعه فوجد جماعة قد أناخوا به، فسلموا عليه، فردّ عليهم السلام جذلان بتزولهم، وفرح بدخولهم. فأحضر الطّعام فأكلوا، وقدم الشّراب فنالوا منه. ثمّ قال: هل من حاجة؟ قالوا: ما جئناك إلّا للقرى. فقال: بالجانب الخصب نزلتم، وبالمثل الرّحب حللتم. فقالوا له: أمّا الطّعام فقد أكلنا، وأمّا الشّراب فقد حضر، وبقي السّماع.

قال: أمّا السّماع فلا سبيل إليه مع غيرة أمير المؤمنين ونهيّة إيّاي عن الغناء إلّا ما كان في مجلسه. قالوا: فلا حاجة لنا في الطّعام عندك ما لم نسمعنا. فلما رأهم غير موقلين عنه رفع عقيرته وغنّى بهذه الأبيات:

محبوبة سمعت صوتي فأرقها
 في آخر الليل حتى ملها السهر
 لم يحجب الصوت أجراس ولا غلق
 فدمعها لطوق الصوت ينحدر
 في ليلة البدر لا يدري مضاجعها،
 أوجهها عنده أضواء، أم القمر
 لو خلّيت لمشت نحوي على قدم
 يكاد من لبنه للمشي ينفطر

قال فلما سمعت الذلّفاء صوت يسارٍ خرجت إلى صحن الفسطاط تسمع الصوت، فجعلت لا تسمع شيئاً من خلقٍ، ولطافة قطّ، إلّا الذي وافق المعنى. ومن نعت الليل واستماع الصوت إلّا رأيت ذلك كله في نفسها، فحرّك ذلك ساكناً كان في قلبها فهملت عيناها، وعلا نسيجها. فانتبه سليمان فلم يجدها معه في الفسطاط فخرج إلى صحنه فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما هذا يا ذلّفاء؟ فقالت: يا أمير المؤمنين:

ألا ربّ صوتٍ رائعٍ من مشوّه
 قبيح المحيّا واضع الأب والجد
 يروّعك منه صوته ولعله
 إلى أمة يعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعييني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر. يا غلام، عليّ يسار. فدعت الذلّفاء خادماً لها وقالت: إن سبقت إلى يسارٍ فحدّرتك فلك عشرة آلاف درهمٍ وأنت حرٌّ. فسبق رسول سليمان فأحضره فلماً وقف بين يديه؟ وسليمان يردد غيراً، قال: من أنت؟ فقال: يسار. فقال سليمان:

تثكل في الثكل يساراً أمّه
 كان لها ربحانة تشمّه
 وخاله يثكله وعمّه
 ذو شفة حياته تغمّه

فقال يسار:

واستبقني إلى الصّباح أعتذر
 إن لسانني بالشّراب منكسر
 فإن أكن أذنبت ذنباً أو عشر
 فالسيد المولى أحقّ من غفر

ثمّ قال: يا يسار ألم أنك عن مثل هذا الفعل؟ فقال: يا أمير المؤمنين حملني الثمل وقومٌ طرقيون، وأنا عبد أمير المؤمنين. فإن رأى أن لا يضيع حظّه منّي فليفعل. قال: أما حظّ منك فلم أضيعه، ولكن لا تركت للنساء فيك حظّاً أبداً يا يسار. أما علمت أنّ الرّجل إذا تغنى أصغت إليه المرأة؟ وأنّ الفرس إذا صهل تودّقت له الحصان؛ وأنّ الفحل إذا هدر صغت له الناقة. يا غلام إتني بختان. فختنه، فعاش بعد ذلك سنةً ومات. فسمّي الدّير دير الخصيان وبه يعرف إلى الآن.

وكتب إلى عثمان بن حيّان المرّي عامله على المدينة: أن أحص من قبلك من المغنّين. فخصي الدلّال فقال: الآن صرنا نساءً حقّاً.

وَدَّعَى بَعْضُ بَنِي مَرْوَانَ أَنَّ عَمَلَ الْمَدِينَةِ صَحَّفَ. وَإِنَّمَا رَأَى فِي الْكِتَابِ أَحْصَى مِنْ قَبْلِكَ، فَقَالَ الْكَاتِبُ الَّذِي قَرَأَ الْكِتَابَ: كَيْفَ يَقُولُونَ ذَلِكَ وَلَقَدْ كَانَتْ الْحَاءُ مَبْعُجَةً بِنُقْطَةٍ كَأَنَّهَا سَهِيلٌ؟.

غَيْرَةُ عَقِيلِ بْنِ عَلْقَمَةَ

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمُوصَلِيِّ قِيلَ لِعَقِيلِ بْنِ عَلْقَمَةَ وَكَانَ شَدِيدَ الْغَيْرَةِ، وَأَرَادَ سَفْرًا: أَيْنَ غَيْرَتِكَ عَلَيَّ مِنْ تَخَلُّفٍ؟ قَالَ: أَحَلَّفَ مَعَهُنَّ الْجُوعَ وَالْعَرِيَّ، فَإِنَّهُنَّ إِذَا جَعْنَ لَمْ يَمْزَحْنَ، وَإِذَا عَرَيْنَ لَمْ يَبْرَحْنَ.

غَيْرَةُ سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ

وَعَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شَعْبَةَ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عَبَادَةَ قَالَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضْرَبْتُ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "لَا تَعْجَبُوا مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لِأَغِيرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ اللَّهُ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ". فَقَالَ: "يَا أَبَا ثَابِتٍ أَكُنْتَ ضَارِبَهُ بِالسَّيْفِ؟" قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَفَى بِالسَّيْفِ شَأْنًا." وَلَمْ يَتَمَّهَا. أَرَادَ شَاهِدًا لِنَلَا يَبَالِغُ فِيهِ الْغَيْرَانُ أَوْ السَّكْرَانُ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ قَتَيْبَةَ: كَانَ امْرُؤُ الْقَيْسِ بْنِ حَجْرٍ مَثْنَانًا لَا يُولِدُ لَهُ ذَكَرٌ، وَكَانَ غَيُورًا شَدِيدَ الْغَيْرَةِ، فَإِذَا وُلِدَتْ لَهُ بِنْتًا قَتَلَهَا. فَلَمَّا رَأَى نِسَاءَهُ ذَلِكَ غَيَّبَ بَنَاتَهُنَّ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ. وَبَلَغَهُ ذَلِكَ فَكَرَبَ رَاحِلَتَهُ وَخَرَجَ مُرْتَادًا لَهْنٍ حَتَّى أَنَاخَ عَلَيَّ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، وَإِذَا جَوَارٍ مَجْتَمَعَاتٍ، فَقَالَ: أَيْتَكُنَّ تَجِيزُ لِي هَذَا الْبَيْتَ وَلَهَا رَاحِلَتِي؟ فَسَكُنْتُ عَنْهُ، وَقَالَتْ ابْنَتُهُ: هَاتِ. فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

بيضاء بهنكة عليها لؤلؤ

تبلت فؤادك إذ عرضت عشية

قال: فسكنت ساعة، ثم قالت:

كنقا الظلِّيم زال عنها الجوجؤ

لعقيلة الأدحي بات يحفها

فَضَرَبَهَا بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهَا. وَسَارَ حَتَّى نَزَلَ بِحَيٍّ آخَرَ، فَإِذَا بِجَوَارٍ يَلْعَبْنَ فَقَالَ: أَيْتَكُنَّ تَجِيزُ لِي هَذَا الْبَيْتَ وَلَهَا رَاحِلَتِي؟ فَسَكُنْتُ عَنْهُ، وَقَالَتْ ابْنَتُهُ: هَاتِ. فَقَالَ:

على مثل الحصير من الرّحام

إذا بركت تعالی مرفقاها

فسكنت ساعة، ثم قالت:

فهبت كالفتيق من التّعام

وقاموا بالعصي ليضربوها

قال: فقتلها، ثم سار حتى نزل بحبي آخر، فإذا بجوارٍ يلعبن. فقال: أيتكنّ تجيز لي هذا البيت ولها راحلتي؟ فسكتن عنه. وقالت ابنته: هات. فقال:

وكأتهنّ نعاج رملٍ هائلٍ
بدفٌ يمدن كما يميد الشّارب
فسكتت ساعةً، ثمّ قالت:

بل هي أقرب في الخطا من خطوها
إن الخرائد مشيها متقارب
قال: فترل إليها فقتلها وسار.

أهدر دمه ولم يتمتّع بها

نزل أعرابيٌّ من طيء، يقال له المثنى بن معروف، بأبي جبر الفزاري فسمعه يوماً يقول: لوددت أنّي بتّ الليلة خالياً ببنت عبد الملك بن مروان. فقال المثنى: أحلالاً أم حراماً؟ فقال: ما أبالي. قال: فوثب إليه فضرب رأسه برحالة فشجّه، ثم ارتحل وهو يقول:

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً
على التأيّائيّ قد وترت أبا جبر
نشرت على اليافوخ منه رحالةً
لنصري أمير المؤمنين ولا يدري
وما كان شيءٌ غير أنّي سمعته
ينادي نساء المؤمنين بلا مهر

قال، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأهدر دم أبي جبرٍ وبعث إلى المثنى بصلة جزيلة.

هند وزوجها روح

وعن عبد الملك بن عمير قال: كانت هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري عند روح بن زنباع، وكانت امرأةً فصيحةً أديبةً، برزةً؛ وكان رجلاً غيوراً، فراها ذات يومٍ مشرفةً على وفدٍ من جذام. فجعل يضربها، ويقول. أتشرفين وتنظرين إلى الرجال؟ قالت: ويحك، وهل أرى إلاّ جذامياً، والله ما أحبّ منهم الحلال فكيف الحرام؟ فقال روح في ذلك:

أئنّي عليك بأن باعك ضيقٌ
وأنّ أصلك في جذامٍ ملتصق

وفيه تقول هند؟

وهل أنا إلاّ مهرةً عربيّةً
سلسلة أفراسٍ تحللها بغل
فإن نتجت حرّاً كريماً فبالحرّاً
وإن يك أقرافٌ فما أنجب الفحل

فقال لها روح: اللهم إن متّ قبلها فابتلها بزوج يلطم وجهها، ويقيء في حجرها. ومات روح بن زنباع وتزوجها بعده محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، وكان شاباً جميلاً، شراباً للخمر؛ فأحبته حباً شديداً، فكان يلطم وجهها ويقيء في حجرها. فقالت: رحم الله أبا زرعة، فقد استجيبت دعوته. وأنشدت للخبزي: ما أحسن الغيرة في حينها إلى آخر الأبيات المتقدمة.

والشغرى يدلي بدلوه

وقال الشغرى:

ولم أنكر عليك فطليبي

إذا ما جئت ما أمّك عنه

بسوطك لا أباً لك فاضريبي

فأنت البعل يومئذ فقومى

الغيرة المفرطة

نزل عاصم بن عمر الخطّاب، رضي الله عنه، خيمته بقديد. بفناء بيت من بيوت قديد، وهو يريد مكة معتمراً، فحطّ رحله، وكان رجلاً جسيماً من أعظم الناس بدنًا، وأحسنهم وجهًا. فأرسلت إليه ربة البيت: يا هذا إن لي زوجاً غيوراً يمرّ الإنسان بجانب بيتي فيضربني، وإن رآك في هذا المنزل لقيت منه شرّاً، فأنشدك الله ألا تحوّلت عني! فأرسل إليها: إني قد نزلت وأنا مرتحلٌ عن قليل وليس عليك من زوجك بي بأس، والتحويل يشقّ عليّ. قال فردّت إليه الرسول حتى تحوّل عنها. ومرتّ به عجوزٌ خارجةٌ من عندها فدعاها وسألها عن المرأة، فقالت: هي خرديةٌ بن أكتم، وتزوجها ربيع بن أصرم، ولها بئى صغيرٌ سمّته باسم أبيها. ثمّ ذهبت العجوز. وقال عاصم بن عمر أبيات شعريّ. ثمّ دخل زوجها واستقرّ في منزله، فلمّا فرغ من شعره سمعه وهو يضربها فصبر حتى علم أنّه شفى غيظه ثمّ إنّه أتاه، فصاح به، فخرج له: بأبي أنت، ما عرضك لي؟ فأخبره خبره وخبرها، فقال: بأبي أنت، لو كنت معي في منزلي ما كان عليّ منك بأس.

أبت أعراقه إلا احمراراً

قال كان عقيل بن علقمة من الغيرة والأنفة على ما ليس عليه أحد علمناه، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيّه، فقال: أمّا إذا كنت فاعلاً فجنّبي هجناك. وخطب عقيل وقال:

أبت أعراقه إلا احمراراً

رددت صحيفة القرشيّ لما

لقمان الحكيم الغيور

علي بن سليمان الأخفش قال: قال ابن الكلبي: كان لقمان بن عاد حكيماً العرب غيوراً، فبنى لامرأته صرحاً وجعلها فيه، فنظر إليها رجلٌ من الحي فعلقها، فأتى قومه فأخبرهم وجده بها، وسألهم الحيلة في أمره. فأمهلوه حتى أراد لقمان الغزو، فعمدوا إلى صاحبهم وشدّوه في حزمة سيوفٍ وأتوا إلى لقمان فاستودعوها إياه، فوضع السلاح في بيته، فلما مضى تحرك الرجل في السيوف، فقانت إليه المرأة تنظر فإذا هي برجلٍ، فشكا إليها حبه إياها، فأمكنته من نفسها، فلم يزل معها مقيماً حتى قدم لقمان فردّته في السيوف كما كان، وجاء قومه فاحتملوه. وإنّ لقمان نظر يوماً إلى نخامةٍ في السقف فقال: من تنخم هذه؟ فقالت: أنا. قال: فتنخمي. فقصرت فقال: يا ويلتاه والسيوف دهنتي. فقتلها ثم نزل فقلي ابنته صخر قاعدةً فأخذ حجراً فهشّم رأسها فماتت. وقال: أنت أيضاً امرأة. فضربت العرب بذلك المثل. فكان يقول المظلوم منهم ما أذنت إلاّ ذنب صخر.

عمر والتّعمان بن نضلة

ولّى عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، التّعمان بن نضلة العوي بميسان، وأراد رحيل امرأته معه، فأبت ذلك وكرهته. فلما وصل إلى ميسان أراد أن يغيرها فترحل إليه، فكتب إليها:

ألا هل أتى الخنساء أنّ خليلها	بميسان يسقى في زجاجٍ وحتتم
إذا شئت غنتني دهاقين قريةٍ	وصاحبه يجثو على خدّ مبسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني	ولا تسقني بالأصغر المتلّم
لعلّ أمير المؤمنين يسوؤه	تندمنا في الجوسق المتهدّم

فبلغت الأبيات عمر بن الخطّاب، فقال: أي والله، وأبي وأبيك، يسوؤني. يا غلام، اكتب بعزله. فلما قدم على عمر بكّته بهذا، فقال: يا أمير المؤمنين ما شربها قط، ولا قلت الأبيات إلاّ بسبب كذا. فقال عمر: أظنّ ذلك ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً. ذاق طعم الغيرة ضرب البعث على رجلٍ من أهل الكوفة فخرج إلى أذربيجان فاشترى فرساً وجاريةً وكان مملكاً بابنة عمّه فكتب ليغيرها:

ألا بلغ أمّ المؤمنين بأننا	غنينا وأغنينا الغطارفة الجرد
بعيد مناط المنكبين إذا جرى	وبيضاء كالتّمثال زيناها العقد
فهذا لأيام الغدو وهذه	لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلما ورد كتابه، دعت بالدّواة وكتبت إليه:

إذا شئت غناني غلامٌ مرجلٌ
وإن شاء منهم ناشيءٌ مدّ كفه
فما كنتم تقضون حاجة أهلكم
فعجّل علينا بالسّراح فإنّه
ولا قفل الجند الذي أنت فيهم
وزادك ربّ النَّاس بعداً على بعد
ونازعته في ماء معتصر الورد
إلى كبِدٍ ملساءٍ أو كفلٍ تُهد
شهوداً فتقضوها على النَّأي والبعد
مناناً ولا ندعو لك الله بالرّدّ

فلما ورد كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية ولحق بها، فكان أوّل شيءٍ بدأها به أن قال لها: بالله أكنت فاعلةً ما قلت؟ فقالت: الله في قلبي أعظم وأجلّ، وأنت في عيني أحقر وأذلّ من أن أعصي الله فيك. ثمّ قالت له: كيق ذقت طعم الغيرة؟ فوهب لها الجارية، ورجع إلى مكانه.

أثر الغيرة عند روح بن زنباع

قالت هند بنت التّعمان بن بشيرٍ لزوجها روح بن زنباع، وكان شديد الغيرة: عجباً منك كيف يسودك قومك وفيك ثلاث خصالٍ أنت من جذامٍ وأنت جبان، وأنت غيور؟ فقال لها: أمّا في جذامٍ فإنّي في أرومتها؛ وأمّا الجبن فإنّما لي نفسٌ واحدةٌ فأنا أحفظها، ولو كانت لي نفسٌ أخرى لجذت بها؛ وأمّا الغيرة فحقيقٌ لمن كانت له امرأةٌ حمقاء مثلك أن يغار عليها مخافة أن تجيئه بولدٍ من غيره فتقذف به في حجره.

عبد الله بن سيرة الشّديد الغيرة

حكى دعبل بن عليّ قال: عبث عطارٌ اسمه فيروز بامرأةٍ من الشّام تسومه عطاراً فعلمت بقلبه، فقعد لها على طريقها، فلما أضجرها قالت: والله لو أنّ عبد الله بن سيرة بقرني ما طمعت في هذا منّي. فبلغت عبد الله بن سيرة هذه الكلمة وهو في البعث بأرمينية، فترك مركزه وأقبل لا يلوي على أحدٍ، حتى وقف بباها ليلاً، وكان يوصف بشدّة الغيرة، فاستأذن عليها، فأذنت له، فقال لها: أيتها المرأة من هذا الذي عبث بك حتى تمنيت أنّي بقربك؟ قالت: رجلٌ عطار. قال لها: فما ابنتي؟ قالت: لا. قال لها: فعديه الليلة القابلة وإني أسبقه إلى بيتك.

فبعثت إليه تقول له: إذ أبيت إلا ما تريد، فهلمّ إلى بيتي الليلة عندي. فأقبل إليها وقد سبقه ابن سيرة، فلما دخل وثب عليه وضربه ضربةً رمى برأسه، ثمّ قتل خادماً، وقال لها: إنّما قتلته لئلا يطلع على الخبر أحدٌ من النَّاس. ثمّ ناولها مائة دينارٍ، وقال لها: اشتريني بما خادماً وانفقي باقيها على نفسك. ثمّ قال: هلمّي

فأسأ فقلع رأس البالوعة ثم جرّهما فألقاهما فيها، ثم سوّى رأس البالوعة، وقال للمرأة: أظهري أنّ الخادم قد أبق. ثم خرج، ولم يعلم به أحد، ولم يأت منزله حتّى قدم أرمينيّة وقال في ذلك:

يغتاله التّحر أو يغتاله الأسد

إنّ المنايا لغيرانٍ لمعرضةً

أو حيةً في أعالي منتهى الزبد

أو عقرباً أو شحى في الحلق معترضاً

حما زوجة ابن الدّمينّة

وكانت لابن الدّمينّة امرأةٌ يقال لها حما، وكان مزاحم بن عمر السّلولي يأتيها ويتحدّث إليها، فمنعها ابن الدّمينّة من ذلك فاشتدّ ذلك عليه، فقال مزاحم عند ذلك يذكرها:

وخذ التّجائب تبديها وتنميتها

يا ابن الدّمينّة والأخبار تحملها

وبين سرّها لا شكّ كاوبها

أمانة، كيةً ما بين عانتها

فلما بلغ ابن الدّمينّة ذلك عرف العلامة التي في زوجته وعلم أنّه لم ير ذلك منها إلاّ وقد أفضى إليها. فأتى امرأته فقال: قد بلغني غشيان مزاحم لك، وقد قال فيك ما قال. فأنكرت ذلك، وقالت: والله ما أرى ذلك الموضوع قط. قال: فما أعلمه بعلامتك التي وصفها؟ قالت: النّساء رأين ذلك إذ كنت جارتهنّ، فتحدّثن بذلك، فسمعه مزاحم. وتغافل ابن الدّمينّة عن مزاحم حتّى ظنّ أنّه ذهب من قلبه، ثمّ قال لامرأته: لئن لم ترسلي إليه الليلة يأتيك في موضع كذا لأقتلنك. فأرسلت إليه: إنك قد سمعت بي ولا أحبّ أن تأتيني وأنا سأتيك في موضع كذا. فقعد في الموضوع ابن الدّمينّة وأصحابه، وجاء مزاحم وهو يظنّ أنّها في الموضوع الذي وعدته به، فخرجوا إليه وأوثقوه وصرّوا صرّةً من رملٍ في ثوبٍ وضربوا بها كبده حتّى مات، واحتملوه حتّى أتوا به ناحية دور قومه فطرحوه بها. وجاء أهله فأخذوه ولم يجدوا به أثر سلاح، فعلموا أنّ ابن الدّمينّة قتله. ورجع ابن الدّمينّة إلى امرأته فقتلها وقتل ابنه له منها، وطلبه السّلوليون فلم يجدوه:

ليلي وحارثة بن عوف

وحكى الثّوري: أنّ رجلاً من بني عقيل تعلّق جاريةً وأبى أهلها أن يزوّجوه إيّاها، وكانت من أحجل النّساء، وكان اسمها ليلي، فسمع بها رجلٌ موسرٌ من ثقيف يقال له حارثة بن عوف، فقدم على أهلها فأرغبهم، فزوّجوه وظعن بها. فقال العقيلي الذي كان تعلّقها:

تقطع إلاّ من ثقيفٍ وصالها

ألا إنّ ليلي العامريّة أصبحت

غمامة صيفٍ زعزعتها شماتها

كأنّ مع الرّكب الذين تحمّلوا

ثم اشتد شوقه وزاد ولعه، فخرج في أثرها حتى قدم الطائف، فانتسب أنه أخ لها وصدقت هي فأدخله زوجها، وذبح له ونحر، وكان صاحب خمير. فجلس هو والثقيفي يشربان وهي تسقيهما فلما أخذت الخمر في العقيلي باح بسرّه، فلما سمعه الثقيفي همّ به ثم غلبه السكر فخرج العقيلي تحت الليل وتبعه الثقيفي بأكلب له عقرٌ فأدركه وقد شارف بلاد بني كليب، وقد غلبه العطش فمات. فخلى أكلبه على جيفته فأكلته. فسمعت بذلك الكلابيون فرحلوا في أثر الثقيفي فأدركوه فقتلوه وخلوا عليه أكلبه فأكلته. وسمع العقيليون ببحر الرجلين فركبوا إلى المرأة فطرقوها في منزله فقتلوها، ورحلوا. فوثبت عليها أكلب زوجها فأكلتها. فقال جار الثقيفي:

لعمري لقد ساق العقيلي حتفه
وما خير ليلي كان عنها بأبعد
وخبير الفتى القيسي قد سبق نحوه
وأمسي مقيماً بين أضلاع أزيد
أقاموا جميعاً رهن أجواف أكلب
كذلك أمر الله في اليوم والغد

الغيرة من الإيمان

ويروى عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "الغيرة من الإيمان، وأبما رجل أحسن بشيء من الفجور في أهله فلم يغيره، إلا بعث الله إليه ملكاً يقول له غر أربعين يوماً، فإن لم يفعل مسح بجناحه على عينيه، فإن رأى حسناً لم يدره، وإن رأى قبيحاً لم ينكره".

الجهاد على الرجال والغيرة على النساء

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: كتب الجهاد على رجال أمّتي، والغيرة على نساءها، فمن صبرت منهنّ واحتسبت أعطاه الله أجر الشهيد.

رأي لعلي في المرأة

وعن علي عليه السلام أنه قال: من أطاع امرأته في أربع أكبه الله في النار على وجهه. أن يعطيها في أن تذهب إلى العرسات وإلى المعلمات وإلى الحمامات وإلى الجنائز.

الأحوص وأم جعفر

وقال الأحوص يتشّبب بأم جعفر الحظمية:

أدور، فلولا أن أم جعفر
بأبياتكم، ما درت حيث أدور

وما كنت دوّاراً ولكن ذا الهوى،
لقد منعت معروفها أمّ جعفر،
إذا لم يزر لا بدّ أن سيزور
وإني إلى معروفها لفقير

فاستعدى أيمن، أخوها، عليه عامل المدينة وكان أيمن جسيماً ضخماً وكان الأحوص نحيفاً، فدفع إلى كلّ واحدٍ منهم سوطاً وقال لخالد: أضرب الأحوص. فقال بعض الشعراء:

لقد منع المعروف من أمّ جعفر
علاك بمن السوط حتى لقيته
أخو ثقة عند الحفاظ صبور
بأصغر من ماء الصفاق يفور

قال الأحوص بعد ذلك:

إذا أنا لم أغفر لأيمن ذنبه
يسيء فأعفو ذنبه، فتردني
فمن ذا الذي يعفو له ذنبه بعدي
أيادٍ يدانها مباركةٌ عندي

من الغيرة إلى البوادي

تزوَّج عبد الله بن يزيد الحنفي امرأةً حسناء، وكان رجلاً ثقيلاً جسيماً ظريفاً، فأحبّها حبّاً شديداً، وكان من أشدّ الناس غيرةً. فدعاه حبّه لها، وشدةً غيرتها عليها، أن خرج بها إلى بعض البوادي فابتنى لها قصرًا وسكن به وأقام معها مدّةً.

لم يكن شأنه العفاف ولكن . . .

وخرج عمر بن سعيد العبدي يريد سفرًا له، فأخذته السماء في بعض الطّريق فنظر، فإذا هو بقصرٍ عظيمٍ، فعُدل إليه، وقرع بابه، فخرج إليه عبد الله بن يزيد فعرفه، فسلم عليه وأنزله، وهياً له طعاماً ثمّ دعا بشرابٍ من خميرٍ عتيق. فبينما هما يشربان إذ تطلّعت المرأة فرأت ابن سعيدٍ وكان غلاماً شاباً، وسكر زوجها سكرًا شديدًا فخرجت المرأة إلى عمر بن سعيد فحدّثته وأنسته ودعته إلى نفسها فأبى، وقال: ما كنت بالذي أفعل برجلٍ أتاني مترله. ولم يزل يدافعها حتى أفاق عبد الله بن يزيد من سكره، فأنشأ عمر يقول:

ربّ بيضاء حصرها يتنّى
لم يكن شأنى العفاف ولكن
قد دعيتي لوصلها فأبيت
كنت ندمان زوجها فاستحيت

فعلم عبد الله بن يزيد ما أراد، فلمّا انصرف عمر بن سعيد عمد عبد الله إلى المرأة فجعل في عنقها حبلاً وعلّقها به إلى السقف، فاضطربت حتى ماتت. وعلم أنّ النساء لا حفظ لهنّ، وآلى على نفسه أنّه لا يتزوَّج امرأةً أبدًا. وترك قصره وعاد إلى مترله.

إذا نام الحارس أفاقت العقرب

وقال الفضيل بن الهاشمي: كنت مع ابنة عمي نائماً على سريرٍ إذ ظهرت إليّ بعض جواري، فزلت، فقضيت حاجتي، ثم انصرفت. فبينما أنا أراجع، إذ لدغني عقربٌ فصبرت حتى عدت إلى موضعي من السرير، فغلبني الوجع، فصحت، فقالت لي ابنة عمي: ما لك؟ قلت لها: لدغني عقربٌ. قالت: وعلى السرير عقربٌ؟ قلت: نزلت لأبوّل فأصابتنِي، ففطنت، فلما أصبحت جمعت خدمها واستحلفتهم أن لا يقتلن عقرباً في دارها إلى سنة. ثم قالت:

فإن عقاربنا تغضب

إذا عصي الله في دارنا

أقام الحدود بما العقرب

ودار إذا نام حراسها

الذئب تعدو على من لا كلاب له

قالوا وبيننا ابن أبي ربيعة في الطواف، إذ رأى جاريةً من أهل البصرة، فأعجبته، فدنا منها، فكلمها، فلم تلتفت إليه. فلما كان في الليلة الثانية عاودها، فقالت له: إليك عني أيها الرجل فإنك في موضعٍ عظيم الحرمة! وألح عليها وشغلها عن الطواف، فأتت زوجها، فقالت له: تعال معي فأرني المناسك. فأقبلت وهو معها وعمر جالسٌ على طريقها فلما رأى الرجل معها عدل عنها فقالت:

وتتقي مريض المستأسد الحامي

تعدو الذئب على من لا كلاب له

فحدّث المنصور هذا الحديث، فقال: وددت أنه لم تبق فتاةٌ من قريش في خدرها إلا سمعت الحديث.

لا يراعي لابن عمه محرماً

وكان عمارة بن الوليد بن المغيرة بن الوليد سيف الله من فتيان قريشٍ جماًلاً وشعراً، وهو الذي جاءت به قريش إلى أبي طالب قالوا: هذا عمارة، قد عرفت حاله، فخذ به بدل ابن أخيك محمداً نقلته. فقال لهم أبو طالب: ما أنصفتموني تعطوني ابن أخيكم أحفظه وأعطيتكم ابن أخي تقتلوه؟ وبعثت قريش عمارة بن الوليد، وعمرو بن العاص إلى التّجاشي في أمر من قدم إليه من المهاجرين، فلما كانوا في السفينة ومع عمرو امرأته أم عبد الله فقال لها عمارة: قبلي. فقال لها عمرو: قبلي ابن عمك. وقال عمرو في ذلك:

لمنك أن يدعى ابن عمّ له ابن ما

ليعلم عمّار أنّ من شرّ شيمه

ولست تراعي لابن عمك محرماً

أإن كنت ذا بردين أحوى رجلاً

و لم ينه قلباً عارياً حيث يَتما

إذا المرء لم يترك طعاماً يَحبه

إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

قضى وطراً منه وغادر سبة

وقعد عمرو على منجاف السفينة لقضاء الحاجة، فدفعه عمارة، فألقاه في البحر، فما تخلّص حتّى كاد يموت. فلما صار إلى التجاشي أظهر له عمرو أنّه لم يحفل بما أصابه منه، فجاده عمارة يوماً فحدّثه أنّ زوجة الملك التجاشي علّقت وأدخلته إلى نفسها، فلما تبين لعمرو حال عمارة وشى به عند الملك واخبره خبره، فقال له التجاشي: أتتني بعلامةٍ أستدلّ بها على ما قلت؟ فعاد عمارة، فأخبره عمرو بأمره وأمر زوجة التجاشي فقال له عمرو: لا أقبل هذا منك إلّا أن تعطيك من دهن الملك الذي لا يدّهن به غيره. فكلّمها عمارة في الدهن، فقالت له: أخاف من الملك. فأبى أن يرضى منها إلّا أن تعطيه من ذلك الدهن، فأعطته منه، فأعطاه إلى عمرو، فجاء إلى الملك، فأمر السّواحر فنفخن في إحليله، فذهب مع الوحش، فلم يزل متوحّشاً حتّى خرج إليه عبد الله بن أبي ربيعة في جماعةٍ من أصحابه، فجعل له على الماء شركاً، فأخذه، فجعل يصيح به: أرسلني فأني أموت إن أمسكتني. فأمسكه، فمات في يده.

عائشة تغار على خديجة

عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما غرت على امرأةٍ لرسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ما غرت على خديجة. ولقد هلكت قبل أن يتزوّجني بثلاث سنين، لما أسمع من كثرة ذكره إياها. وكان يذبح الشاة فيفرّقها على صدائق خديجة. قال ودخل رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها: " بالكره منّي يا خديجة ما أرى منك، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً. أما علمت أن الله زوّجني معك في الجنّة مريم ابنة عمران، وكلّتم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون؟ " قالت: وقد فعل الله ذلك برسوله؟ قال: " نعم " . قالت: فبالرفاء والبنين.

باب ما جاء في وفاء النساء

تعاهدا ألا يتزوّجا

حكى الأصمعي، عن رجلٍ من بني ضبّة قال: ضلّت لي إبلٌ فخرجت في طلبها حتّى أتيت بلاد بني سليم، فلما كنت في بعض تخومها، إذا جاريةٌ غشى بصري إشراق وجهها، فقالت: ما بغيتك فأني أراك مهموماً؟ قلت: إبلٌ ضلّت لي، فأنا في طلبها. قالت: فتحب أن أرشدك إلى من هي عنده؟ قلت: نعم. قالت: الذي أعطاكهنّ هو الذي أخذهنّ فإن شاء ردهنّ، فاسأله من طريق اليقين لا من طريق الإختيار.

فأعجبني ما رأيت من جمالها وحسن منطقتها، فقلت لها: هل لك من بعلٍ؟ قالت: كان والله فدعي فأجاب إلى ما منه خلق، ونعم البعل كان. قلت لها: فهل لك في بعلٍ لا تدمّ خلائقه، ولا تخشى بوائقه؟ فأطرت ساعةً ثم رفعت رأسها وعيناها تذرّفان دموعاً فأنشأت تقول:

كنا كغصنين من بانٍ غذاؤهما
ماء الجدال في روضات جنّات
فاجتث صاحبها من جنب صاحبه
دهرٌ يكرّ بفرحاتٍ وترحات
وكان عاهدني إن خانني زمنٌ
أن لا يضاجع أنثى بعد موتات
وكنت عاهدته أيضاً، فعاجله
ريب المنون قريباً مذ سنينات
فاصرف عتابك عمّن ليس يصرفه
عن الوفاء له خلب التّحيّات

قال: فانصرفت وتركتها.

على العهد باقية

قال الأصمعي: قال لي الرّشيد: امض إلى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم. فانحدرت، فزلت على صديقٍ لي بالبصرة، ثم بكرت أنا وهو على المقابر، فلمّا صرت إليها إذا بجاريةٍ نادى إلينا ريح عطرها قبل الدنوّ منها، عليها ثيابٌ مصبغاتٌ وحلى، وهي تبكي أحرّ بكاء. فقلت: يا جارية ما شأنك؟ فأنشأت تقول:

فإن تسألاني فيم حزني؟ فإني
رهينة هذا القبر يا فتيان.
أهابك إجلالاً، وإن كنت في الثرى،
مخافة يوم أن يسؤك مكاني
وإني لأستحييك، والترب بيننا،
كما كنت أستحييك حين تراني.

فقلنا لها ما رأينا أكثر من التّفاوت بين زيّك وحزنك فأخبرني بشأنك؟ فأنشأت تقول:

يا صحب القبر، يا من كان يؤنسي
حيّاً، ويكثر في الدّنيا مواساتي،
أزور قبرك في حلّي وفي حللي،
كأني لست من أهل المصيبات؛
فمن رأني، رأى عبريً مفجعةً
مشهورة الزّيّ تبكي بين أمواتي.

فقلنا لها وما الرّجل منك: قالت: بعلي، وكان يجب أن يراني في مثل هذا الزّيّ، فأليت على نفسي أن لا أغشى قبره إلا في مثل هذا الزّيّ لأنّه كان يحبّه أيام حياته، وأنكرتماه أنتما عليّ.

قال الأصمعي: فسألته عن خبرها ومترها. وأتيت الرّشيد فحدّثته بما سمعت ورأيت، حتّى حدّثته حديث الجارية. فقال: لا بدّ أن ترجع حتّى تخطبها إليّ من وليّها، وتحملها إليّ، ولا يكون من ذلك بد. ووجّه معي خادماً ومالاً كثيراً. فرجعت إلى قومها فأخبرتهم الخبر، فأجابوا وزوّجوها من أمير المؤمنين وحملوها

معنا وهي لا تعلم. فلما صرنا إلى المدائن نما إليها الخبر، فشهقت شهقةً فماتت، فدفناها هنالك. وسرت إلى الرّشيد فأخبرته الخبر، فما ذكرها وقتاً من الأوقات إلاّ بكى أسفاً عليها.

كان يحسبها راعية للعهد

توفّي رجلٌ وبقيت امرأته شابةً جميلةً، فما زال بها النساء حتى تزوّجت. فلما كانت ليلة زفافها رأت في المنام زوجها الأوّل آخذاً بعارضيّ الباب وقد فتح يديه وهو يقول:

حييت ساكن هذا البيت كلّهم
حييت ساكن هذا البيت كلّهم
أُمت عروساً وأمسى مسكني حدثٌ
أُمت عروساً وأمسى مسكني حدثٌ
واستبدلت بدلاً غيري، فقد علمت
واستبدلت بدلاً غيري، فقد علمت
قد كنت أحسبها للعهد راعيةً
قد كنت أحسبها للعهد راعيةً

ففزعّت من نومها فزعاً شديداً، وأصبحت فاركاً وآلت أن لا يصل إليها رجلٌ بعده أبداً.

أذات عروس ترى؟!!

ولما قتل عثمان، رضي الله عنه، وقفت يوماً على قبره نائلة بنت الفرافصة الكلبي، فترحمت عليه ثمّ انصرفت إلى مترها، ثمّ قالت: إنّي رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خفت أن يبلى حزن عثمان في قلبي. فدعت بفهرٍ فهتفت فاهاً، وقالت: والله لا يقعد رجلٌ منّي مقعد عثمان أبداً. وخطها معاوية فبعثت إليه أسناتها، وقالت: أذات عروسٍ ترى؟ وقالوا: لم يكن في النساء أحسن منها مضحكاً.

لا تنكحي أغمّ الفقفا

كان هدبة بن حشرم العذري قتل ابن عمرٍ يقال له زياد بن زيد فطلبه سعيد بن العاص، وهو يلي المدينة لمعاوية فحبسه، فقال في السّجن قصيدته التي يقول فيها:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه
عسى الكرب الذي أمسيت فيه
وي في سجنه يقول أيضاً:
وي في سجنه يقول أيضاً:
ولما دخلت السّجن يا أمّ مالك
ولما دخلت السّجن يا أمّ مالك
وعند سعيد غير أنّي لم أبح
وعند سعيد غير أنّي لم أبح

وسئل عن هذا، فقال: لما رأيت ثغر سعيدٍ شبّهت به ثغرها، وكان سعيد حسن الثغر. فحبس هدبة سبع

سنين ينتظر به احتلام المستورد بن زيادة، فلما احتلم، أخرج صبح تلك الليلة إلى عامل المدينة فرغبه في العفو، وعرض عليه عشر ديات، فأبى إلا القود. وكان ممن عرض الديات عليه الحسن بن علي، عليهما السلام، وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم. فلما أبى، بعث هؤلاء وغيرهم من إخوانه بالحنوط والأكفان فدخل عليه رسولهم السّجن فوجدوه يلعب بالترد. فجلسوا ولم يقولوا له شيئاً، فلما لحظهم إذا بطرف بردٍ خرج من بعض الأكفان فأمسك، ثم قال: كآته قد فرغ من أمرنا؟ فقالوا: أجل. فقام فاغتسل ثم رجع إليهم فأخذ من كل واحد ثوباً وردّ ما بقي. وأخرج ليقاد منه، فجعل ينشد الأشعار. فقالت له حيا المدينة: ما رأيت أقسى قلباً منك، تنشد الأشعار، وقد دعي بك لتقتل، وهذه خلفك كأنها غزالٌ عطشانٌ تولول؟ يعني امرأته. فوقف، ووقف الناس معه، فأقبل على حيا فقال:

وجدت بها ما لم تجد أمّ واحدٍ
ولا وجد حيي بابتاب كلاب
وإني طويل الساعدين شمرطل
على ما اشتبهت من قوّة وشباب .

فأغلقت الباب في وجهه. وعرض له عبد الرحمن بن حسان فقال: أنشدني! فقال له: على هذه الحال؟ قال: نعم. فابتدأ ينشده:

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني
ولا أتمى الشرّ، والشرّ تاركي،
ولا جازع من صرفه المتقلب
ولكن متى ما أحمل الشرّ أركب

قال: ونظر رجل إلى امرأته فدخلته غيره، وقد كان زيادة جدع أنفع بسيفه:

فإن يك أنفي بأن عني جماله
فلا تنكحي إن فرّق الدهر بيننا
فما حسبي في الصالحين بأجدعا
أغمّ القفا والوجه ليس بأنزعا

خنت يا فلانة عهدي

وعن أبي حمزة الكناني قال: كنت في حرس خالد بن عبد الله القسري، فقال خالد: من يحدثني بحديث عسى يستريح إليه قلبي؟ فقلت: أنا. فقال: هات. فقلت: إنّه بلغني أنّه كان فتى من بني عذرة، وكانت له امرأة منهم، وكان شديد الحب لها، وكانت له مثل ذلك، فبينما هو ذات يوم ينظر وجهها إذ بكى، فنظرت إلى وجهه وبكت، فقالت له: ما الذي أبكاك؟ قال: والله، أتصدقيني إن صدقتك؟ قالت: نعم. قال لها: ذكرت حسنك وجمالك وشدة حبي، فقلت أموت فتتزوج غيري. فقالت: والله والله، أنّ ذاك الذي أبكاك؟ قال: نعم. قالت: وأنا ذكرت حسنك وجمالك وشدة حبي لك فقلت أموت فيتزوج امرأة غيري. قال الرجل: فإنّ النساء حرامّ عليّ بعدك. فلبثا ما شاء الله.

ثمّ إنّ الرجل توفي فجزعت عليه جزعاً شديداً فخاف أهلها على عقلها أن يذهل، فأجمع رأيهم على أن

يزوجوها، وهي كارهة، لعلها تتسلى عنه. فلما كان في الليلة التي تهدى فيها إلى بيت زوجها، وقد نام أهل البيت، والماشطة تهيء من شعرها، إذ ناكت نومةً يسيرةً فرأت زوجها الأوّل داخلًا عليها من الباب وهو يقول: خنت يا فلانة عهدي، والله لا هנית العيش بعدي فانتبعت مرعوبةً، وخرجت هاربةً على وجهها، وطلبها أهلها فلم يقعوا لها على خير.

ماتا ودفنا معاً

قال إسحق خرجت امرأةً من قريش من بني زهرة إلى المدينة تقضي حقاً لبعض القرشيين. وكانت ظريفةً جميلةً، فرآها من بني أمية رجلٌ فأعجبته، وتأمّلها فأخذت بقلبه، وسأل عنها فقيل له: هذه حميدة بنت عمر بن عبد الله بن حمزة. ووصفت له بما زاد فيها كلفه، فخطبها إلى أهلها فزوجوه إياها على كرهٍ منها، وأهديت إليه فرأت من كرمه وأدبه وحسن عشرته ما وجدت به، فلم تقم عنده إلا قليلاً حتى أخرج أهل المدينة بني أمية إلى الشام، فترل بها أمرٌ ما ابتليت بمنله، فاشتدّ بكاؤها على زوجها وبكاؤه عليها، وخيرت بين أن تجمع معه مفارقة الأهل والولد والأقارب والوطن أو تتخلّف عنه مع ما تجد به، فلم تجد أحفّ عندها من الخروج معه مختارةً له على الدنيا وما فيها. فلما صارت بالشام صارت تبكي ليلها ونهارها ولا تنهتاً طعاماً ولا شراباً شوقاً إلى أهلها ووطنها، فخرجت يوماً بدمشق مع نسوةٍ تقضي حقاً لبعض القرشيين فمرت بفتى جالسٍ على باب منزله، وهو يتمثل بهذه الأبيات:

ألا ليت شعري، هل تغير بعدنا	صحون المصلّى، أم كعهدي القرائن؟
وهل أدور حول البلاط عوامرٌ	من الحيّ، أم هل بالمدينة ساكن؟
إذا لمعت نحو الحجاز سحابةً،	دعا الشوق منّي برقها المتيامن
وما أشخصتنا رغبة عن بلادنا،	ولكنّه ما قدر الله كائن.

فلما سمعت المرأة ذكر بلدها وعرفت المواضع، تنفّست نفساً صدّع فؤادها فوقعت ميتةً. فحملت إلى أهلها وجاء زوجها، وقد عرف الخبر، فانكبّ عليها فوقع عنها ميتةً. فغسلاً جميعاً وكفناً ودفنا في قبرٍ واحدٍ.

أرادها لحسن ثغرها فقط

وكانت حولة بنت منظور بن زياد الفرزاري عند الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وكانت أختها عند عبد الله بن الزبير، وهي أحسن الناس ثغراً، وأتمهم جمالاً. فلما رأى ذلك عبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير زوجها، ثمّ خطبها، فكرهت أن تتزوجوه وهو قاتل زوجها، فأخذت فهرأً وكسرت

به أسنانها. وجاء رسول عبد الملك فخطبها، فأذنت له ليرأها، فأدّى إليها رسالته ورأى ما بها، فقالت: ما لي عن أمير المؤمنين رغبة، ولكّني كما ترى، فإن أحبّني فأنا بين يديه، فأتاه الرسول فأعلمه بذلك، فقال: أنا، والله، إنّما أردتها على حسن ثغرها الذي بلغني، وأمّا الآن فلا حاجة لي فيها.

لا حرّ بوادي عوفٍ

ومَن يضرب به المثل في الوفاء جماعة بنت عوف بن محلم الشيباني وذلك أنّ عمرو بن عبد الملك طلب مروان القرط وهو مروان بن زباج العبسيّ فخرج هارباً حتّى هجم على أبيات بني شيبان، فنظر إلى أعظمها بيتاً ببصره فإذا هو بيت جماعة بنت عوف فألقى نفسه بين يديها فاستجارها فأجارته. ولحقته خيل عمرو فبعثت إلى أبيها فعرفته أنّها أجارته فمنعهم عوف عنه وأنصرف أصحاب عمرو. فأرسل عمرو إلى عوف قد آليت ألا أقطع طليي إلا أن يضع يده في يدي. فقال عوف: والله ما يكون ذلك أبداً لكنّ يدي بين يديك ويده. قال، فرضي عمرو بذلك. فوضع مروان يده في يد عوف ووضع عوف يده في يد عمرو. فقال عمرو: لا حرّ بوادي عوف. فذهبت مثلاً.

من أحاديث المحبين

وحكى عصام المرّي، عن أبيه، قال: بعثنا رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، في سرية قبل نجد، وقال: إن سمعتم مؤذناً، أو رأيتم مسجداً فلا تقتلن أحداً. فبينما نحن نسير إذ لحقنا رجلٌ معه طعانتن يسوقها أمامه، فأخذناه، فقلنا له: أسلم. قال: وما الإسلام؟ فعزمنّا عليه، قال: أرايتم إن لم أسلم ما أنتم صانعون بي؟ قلنا: نقتلك. قال: فهل أنتم تاركي حتّى أوصي من في هذا الهودج بكلمات. قلنا: نعم. فدنا من الهودج وفيه ظعينة فقال: أسلمي جبيش قبل انقطاع العيش. فقالت: أسلم عشراً أو تسعاً وتراً، أو ثانياً تترأ. قال، ثمّ جاء فمدّ عنقه. قال: شأنكم اصنعوا ما أنتم صانعون. فضربنا عنقه ولقد رأيت تلك الظعينة نزلت من هودجها وألقت نفسها عليه فما زالت تقبله وتبكي حتّى هدأت فحرّكناها فإذا هي ميتة.

خاتمه وبموتها وقت له

العتبيّ قال: كان خالد بن عبد الله القسريّ ذات ليلة مع فقهاء من أهل الكوفة فقال بعضهم: حدّثونا حديثاً لبعض العشاق. قال أحدهم: أصلح الله الأمير، ذكر هشام بن عبد الملك غدر النساء وسرعة رجوعهنّ. فقال له بعض جلسائه: أنا أحدثك، يا أمير المؤمنين: بلغني عن امرأةٍ من يشكر يقال لها أمّ عقبة بنت عمرو بن الأعران، وإنّها كانت عند ابن عمّ لها يقال له غسان، وكان شديد المحبة لها، والوجد

بها، وكانت له كذلك. فأقام بها على هذا الحال ما شاء الله، لا يزيد كل واحدٍ منهما بصاحبه إلاّ اعتباراً.

فلما حضرت غسان الوفاة قال لها: يا أمّ عقبة اسمعي ما أقول، وأجيبني عن نفسك بحقّ. فقالت له: والله لا أحبّتك بكذبٍ، ولا أجعله آخر حظّك معي. فقال: إني رجوت أن تحفظي العهد، وأن تكوني لي إن مات عند الرجاء. أنا والله واثقٌ بك، غير إني بسوء الظنّ أخاف غدر النساء. ثمّ اعتقل لسانه فلم ينطق حتّى مات. فلم تمكث معه إلاّ قليلاً حتّى خطبت من كلّ مكان، ورغب فيها الأزواج لاجتماع الخصال الفاضلة فيها من العقل والجمال والمال والعفاف والحسب. فقالت بحميدة له:

سأحفظ غساناً، على بعد داره، وأرعاه حتّى نلتقي يوم نحشر .

وإني لفي شغلٍ عن الناس كلّهم، فكفّوا، فما مثلي من الناس يغدر .
سأبكي عليه، ما حييت، بدمعةٍ تحول على الخدين منّي فتكثر

فبئس الناس منها حيناً. فلما طالت بها الأيام نسيت عهده، وقالت: من قد مات فقد فات. وأجابت بعض خطّابها فتزوّجها المقدم بن حابس، وقد كان بها معجباً. فلما كانت الليلة التي أراد بها الدخول، أتاها في منامها زوجها الأوّل فقال لها:

غدرت، ولم ترعي لبعلك حرمةً، ولم تعرفي حقّاً، ولم ترعي لي عهداً
غدرت به لما ثوى في ضريحه، كذلك ينسى كلّ من سكن اللحد

فانتبهت مرتاعةً مستحييةً منه كأنه يراها أو تراه كأنه في جانب البيت. فأنكر حالها من حضرها، وقلن لها: ما لك؟ وما بالك؟ قالت: ما ترك لي غسان في الحياة إرباً، أتاني السّاعة فأنشدني هذه الأبيات. ثمّ أنشدتها بدمعٍ غزيرٍ، وانتحابٍ شديدٍ من قلبٍ جريحٍ موجهٍ. فلما سمعن ذلك منها أخذن بها في حديثٍ آخر لتنسى ما هي فيه، فتغفّلتهنّ ثمّ قامت كأنها تقضي حاجةً فأبطأت عليهنّ. فقمن في طلبها، فوجدنها قد جعلت السّوط في حلقها وربطته إلى عمود البيت وجذبت نفسها حتّى ماتت. فلما بلغ ذلك زوجها المقدم، حسن عزّاؤه عنها، وقال: هكذا فليكن النساء في الوفاء، قلّ من يحفظ ميتاً، إنّما هي قلائلٌ حتّى ينسى وعنه يتسلّى

لم يلتفت إليهنّ

استعدى آل بئينة مروان بن الحكم على جميل بن معمر، فهرب حتّى أتى رجلاً شريفاً من بني عذرة في أقصى بلادهم وله بناتٌ سبعٌ كأنهنّ البدور جمالاً. فقال الشّيخ لبناته: تحلّين بأجود حليكنّ، والبسن فاخر

ثيابكن، ثم تعرضن لجميل. فمن اختار منكن زوجته إياها. ففعلن ذلك مراراً وجعلن يعارضنه: فلم يلتفت إليهن. وأنشأ يقول:

حلفت لكي تعلمن آتي صادقاً، وللصدق في خير الأمور وأنجح
لتكليم يومٍ من بشينة واحد
ورؤيتها عندي، ألدّ وأملح،
من الدهر أن أخلو بكنّ فإتما،
أعالج قلباً طامحاً حيث يطمح
قال أبوهنّ: دعن هذا، فوالله لا أفلح أبداً.

نساء قريش خير النساء

كانت أمّ هاني بنت أبي طالب تحت زوجها هبيرة بن أبي ليث المخزومي، فهرب يوم فتح مكة إلى اليمن فمات كافراً. فخطب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أمّ هاني فقالت: والله لقد كنت أحبّك في الجاهلية فكيف في الإسلام؟ ولكنتي امرأة مصيبة وأكره أن يؤذك. فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: " نساء قريش خير نساء ركبن المطايا، أحناهنّ على ولدٍ صغيرٍ، وأرغاهنّ، على زوجٍ ذي يدٍ. "

ماتت في الطريق

أبو بكر الأنباري، عن أبي اليسر قال: دخلت منزل نخّاسٍ لشراء جارية، فسمعت في بيت بازاء البيت جارية تقول:

وكنّا كزوجٍ من قطا في مفازة
لدى خفض عيشٍ معجبٍ مونقٍ رغد
أصاهما ريب الزّمان فأفردا
ولم أر شيئاً قطّ أوحش من فرد
فقلت للنخّاس: أعرض عليّ هذه المنشدة. فقال إنّها حزينةٌ. قلت: ولم ذلك؟ قال: اشتريتها من ميراثٍ، فهي باكيةٌ على مولاها. ثمّ لم ألبث أن أنشدت:

وكنّا كغصني بانهٍ وسط دوحهٍ
نشم جنا الجنّات في عيشةٍ رغد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطعٌ
فيا فردةً باتت تحنّ إلى فرد
قال أبو السّمراء: فكتبت إلى عبد الله بن طاهر بخبرها. فكتب إليّ: أن ألق عليها هذا البيت، فإن أجازته فاشتراها ولو كانت بخراج خراسان. والبيت:

قريبٌ صدّ، بعيدٌ وصل،
جعلت منه لي ملاذا
فقلت:

فعايبوه، فزاد شوقاً
فمات عشقاً، فكان ماذا؟

قال أبو السَّمراء: فاشتريتها بألف دينارٍ وحملتها إليه. فماتت في الطَّرِيق، فكانت إحدى الحسرات.

تستحييه في الحياة والممات

قال الأصمعي: خرج سليمان بن عبد الملك ومعه سليمان بن المهلب بن أبي صفرة من دمشق متزَّهين، فمرًّا بالجبانة، وإذا امرأةٌ جالسةٌ على قبرٍ تبكي، فهبَّت الرِّيح، فرفعت البرقع عن وجهها، فكأنَّها غمامةٌ جلت شمساً، فوقفنا متعجِّبين ننظر إليها، فقال لها ابن المهلب: يا أمة الله، هل لك في أمير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إليهما، ثمَّ نظرت إلى القبر، وقالت:

بملحود هذا القبر، يا فتیان

فإن تسألاني عن هواي، فإنه

كما كنت أستحييه وهو يراني

وإني لأتسحييه والترب بيننا،

فانصرفنا ونحن متعجِّبون.

قال الأصمعي: رأيت بالبادية أعرابيةً لا تتكلم، فقلت: أخرساء هي؟ فقيل لي: لا، ولكنها كان زوجها معجباً بنغمتها فتوقى، فألت أن لا تتكلم بعده أبداً.

المبكرة إلى القبر

قال الفرزدق أبقى لرجلٍ من بني هُشَل، يقال له حصن، غلام. فخرجت في طلبه أريد اليمامة. فلما صرت في ماءٍ لبني حنيفة ارتفعت لي سحابةٌ، فرعدت وبرقت وأرخت عزاليها، فعدلت إلى بعض ديارهم وسألت القرا. فأجابوا، ودخلت الدار، وأنخت ناقتي، وجلست. فإذا جاريةٌ كأنَّها طلعة قمر، فقالت: ممَّن الرَّجُل؟ قلت من بني حنظلة. قالت: من أيِّ حنظلة؟ قلت: من بني هُشَل. قالت: فأنت من الذين يقولون فيهم الفرزدق:

بيتاً دعائه أعزَّ وأطول

إنَّ الذي سمك السَّماء بني لنا

ومجاشعٌ وأبو الفوارس هُشَل

بيتا زرارةٍ محتبٍ بفنائه

فقلت: نعم. فتبسَّمت، ثمَّ قالت: فإنَّ جريراً هدم قوله، حيث يقول:

وأحلَّ بيتك بالحضيض الأسفل

أخزي الذي سمك السَّماء مجاشعاً

قال: فأعجبني ما رأيت من جمالها وفصاحتها، ثمَّ قالت لي: أين تؤم؟ قلت: اليمامة. فتنفَّست نفساً وصل إليَّ حرَّة، فقلت: أذات خدر، أم ذات بعلٍ؟ فبكت. فقلت: ما أجبتني عمَّا سألتك. قال فلما فهمت قولي ولم تكن أوَّلاً فهمته من شدَّة استغراقها، فلما كان بعد ساعةٍ أنشأت تقول:

بأنك قد حملت على سرير

يخيل لي، أبا عمرو بن كعب،

فإن يك هكذا، يا عمرو، إني

مبكرةً عليك إلى القبور

ثم شهقت شهقةً فماتت. فقلت لهم: من هذه؟ قالوا: عقيلة بنت الضحّاح بن التّعمان بن المنذر. قلت: فمن عمرو؟ قالوا: ابن عمّها، خطبها ولم يدخل بها. فارتحلت من عندهم فدخلت اليمامة، فسألت عن عمرو فإذا به قد دفن في ذلك الوقت من اليوم.

الوفاء في الجاهلية يختلف عنه غي الإسلام

يروى عن سماك بن حرب: أن زيد بن حارثة قال: يا رسول الله، انطلق بنا إلى فلانة نخطبها عليك أو عليّ إن لم تعجبك: فأتيناها فذكر لها زيد رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فقالت له: يا رسول الله، إني عاهدت زوجي ألا أتزوج بعده أبداً، وأعطاني مثل ذلك. فقال لها رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: "إن كان ذلك في الإسلام ففي له، وإن كان ذلك في الجاهلية فليس بشيء".

الوفاء والذكاء

قال الأصمعي خرجت إلى مقابر البصرة، فإذا أنا بامرأة على قبر، من أجمل النساء، وهي تندب صاحبه وتقول:

أم قرّ عيناً بزائريه

هل أخبر القبر سائليه

بالجسد المستكين فيه

أم هل تراه أحاط علماً

وطوداً عد لآمليه

يا جبلاً كان ذا امتناع

يقرب من كفّ مجتنيه

يا نخلةً طلعتها نضيد

حققت ما كنت أتقيه

يا موت ماذا أردت مني

أذمّ دهري وأشتكيه

دهرٌ رماني بفقد إلفي

وكلّ ما كنت تتقيه

أمنك الله كلّ خوفٍ

تكون أمناً لساكنيه

أسكنك الله في جنانٍ

قال، فقلت لها: يا أمة الله، ما هذا منك؟ قالت: لو أعلمك مكانك ما أنشدت حرفاً، هذا زوجي وسروري وأنسي، والله لا زلت هكذا أبداً أو ألحق به. قلت لها: أعيدي عليّ الشعر. فقالت: هذا من ذلك. فقلت خذي إليك. وأنشدتها الأبيات، فقالت فإن يكن في الدنيا الأصمعي فأنت هو.

قصة عاشقين

قال: كان لأشجع بن عمرو السلمي جاريةً، يقال لها ريم، وكان يجدها وجداً شديداً، وكانت تحلف له
أنها إن بقيت بعده لم يحكم عليها رجلٌ أبداً. فقال يخاطبها:

إذا غمضت فوقي جفون حفيرةٍ
من الأرض فابكيني بما كنت أصنع
تعزيك عني بعد ذلك سلوةً
وإن ليس فيمن وارت الأرض مطمع

فأجابته ريم تقول:

ذكرت فراقاً والفراق يصدّع،
وأيّ حياةٍ بعد موتك تنفع.
إذا الزمن الغدار فرق بيننا،
فمالي في طيبٍ من العيش مطمع .

فلو أبصرت عيناك عيني أبصرت،
شأيب جدرٍ غيبتها ليس تقشع

وقالت فيها أيضاً:

وليس لإخوان النساء تطاول،
ولكنّ إخوان الرجال يطول.
فلا تبخلي بالدمع عني فإن من،
يضنّ بدمعٍ عن هوى، لبخيل .
فما لي إلى ردّ الشيبه حيلةً،
ولا لي إلى دفع المنون سبيل.
وإن لدائي قد مضوا لسيولهم،
وإن بقائي بعدهم لقليل.

فأجابته ريم:

بكي من صروفٍ خطبهنّ جليل
ومن ذا الذي ينعي على حدث الردى،
وكلّ جليلٍ سوف يلقي حمامه،
وللموت في أثر التّفوس رسول.
لي الويل، إن عمّرت بعدك ساعةً،
وكلّ نعيمٍ دائمٍ سيزول.
وتزعم أنّي لا أجود بعبرةٍ،
وإنّ كثير الويل لي لقليل.
ومن ذا الذي أبكي له، إن فقدته،
إذا نجمة قد حان منه أفول.
فلا وقيت ريم، إذاً، ما تخافه
سواك، ومن دمعي عليه يسيل.
ولا لقيت يوم القيامة ربّها
إذا ناب للزّمان جليل.
وميزانها بالصّالحات ثقل

إذا ماسخا قلب امرئٍ بمودّةٍ، فقلبي بودّ عن سواك بخيل .

ولما مات أشجع، آلت على نفسها أن لا تأكل طعاماً، ولا تذوق شراباً. فعاشت بعده أياماً، ثمّ توفّيت،
فدفنت إلى جانبه.

باب ما جاء في غدر النساء

رأي عمر في النساء

قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أستعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهنّ على حذرٍ.

رأي الملك عمرو في النساء

قال عمرو الملك:

بعد هندٍ لجاهلٍ مغرور
كلّ شيءٍ يجنّ فيه الضمير

إنّ من غرّه النساءُ بودٌ
حلوة العين واللسان وفيها

رأي طفيل الغنوي في النساء

وقال طفيل الغنوي:

منهنّ مرٌ، وبعض المرّ مأكول
فإنّه واقعٌ لا بدّ مفعول

إنّ النساء لأشجارٌ تبين لنا
إنّ النساء متى ينهين عن خلقٍ

إنّ تقويم الضلّوع انكسارها

وفي حديث المرفوع أنّ المرأة خلقت من ضلعٍ عوجاء، فإن ذهبت تقوّمها كسرتمها، فاستمع بها على عوجٍ فيها.

وكان أبو ذرّ الغفاري يقعد على منبر رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم فينشدّه:

ألا إنّ تقويم الضلّوع انكسارها.
أليس عجيباً ضعفها واقتدارها؟

هي الضلّع العوجاء لست تقيمها
أيجمعن ضعفاً واقتداراً على الفتن

في خلافتهم البركة

وفي الحديث شاوروهنّ وخالفوهنّ، فإنّ في خلافتهم البركة.

علقمة طبّ بأدواء النساء

قال علقمة بن عبدة:

بصيرٌ بأدواء النساء طيب
فليس له في ودهن نصيب

فإن تسألوني بالنساء فيأتي
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله

تلين لك ولغيرك

وقال آخر:

جزوعاً إذا بانت، فسوف تبين.
لغيرك من طلاهما ستلين؛
على قدم الأيام سوف تخون
فليس لمخضوب البنان يمين

تمتّع بها، ما ساعفتك، ولا تكن
وإن هي أعطتك اللبان فيأتيها،
وحنها وإن كانت تفي لك، إنَّها
وإن حلفت أن ليس تنقض عهدها،

تحجّ وتكشف عن وجهها للشباب

وقال أبو عبيدة: حجّت امرأة عجير السلوي معه، فأقبلت لا تطرق على شاب في الرّفقة إلاّ وتكشف
وجهها، فقال في ذلك:

وإن لم يعاقبها العجير، فعاقب
إذا كان حجّ المسلمات الثّواب

أيا ربّ لا تغفر لعنمة ذنبيها،
حرامّ عليك الحجّ لا تطعمينه

للفارس العجلان منها نصيب

وقال أعرابيُّ:

فقولك هذا للفؤاد مريب،
وللفارس العجلان منك نصيب؟

لا تكثري قولاً منحتك ودّنا،
تعددين ما أوليتني منك قابلاً،

لم تكن عنده شريفة

أراد رجلٌ أن يشتري قينةً وقد كان أحبّها، فبات عند مولاهما ليلةً فأمكنته من نفسها وكان الامتناع منه،
فأنشأ يقول:

منظراً لو تزيينه بعفاف
جنب القلب طاهر الأطراف

ما رأينا بواسطة كسليمي
بت في جنبها وبات ضجيعي

فأقيمي مقامنا ثمّ بيبي،

لست عندي من فتية الأشراف

لا يشتهي الفاجرة

وقال آخر:

لا أشتهي رنق الحياة ولا التي
ولكنني أهوى مشارب أحرزت

تخاف وتغشاها المعبدة الحرب
عن الناس حتى ليس في صفوها عيب

الإصبع لا تستر زانية

وقال أعرابي أيضاً

تبعتك لما كان قلبك واحداً،
ولن يلبث الحوض الوثيق بناؤه

وأمسكت لما صرت نبأً مقسماً .
على كثرة الوراد أن يتهدّما

الباغية دون اكتفاء

وقال أبو نواس:

ومظهرة لخلق الله حبّاً،
أتيت فؤادها أشكو إليه،
فيا من ليس يكفيها خليل،
أراك بقيّةً من قوم موسى،

وتلقي بالتحية والسلام
فلم أخلص إليه من الزحام
ولا ألفا خليل كلّ عام،
فهم لا يصبرون على طعام .

إذا غاب بعلٌ جاء بعل

وكان رجلٌ يحبّ امرأةً فخطب في اليوم الذي ماتت فيه، فقيل له في ذلك فقال:

خطبت كما لو كنت قدّمت قبلها
إذا غاب بعلٌ كان بعلٌ مكانه

لكانت بلا شكٍ لأوّل خاطب
فلا بدّ من آتٍ وآخر ذاهب

تزوّجته وطافت بالبيت عريانة

وعن المطّلب بن الوداعة السّهميّ قال: كانت ضباة بنت عامر، من بني عامر بن صعصعة، تحت عبد الله بن جدعان. فمكثت عنده زماناً لا تلد، فأرسل إليها هشام بن المغيرة: ما تصنعين بهذا الشيخ الكبير الذي

لا يولد له: فقولي له فليطلقك. فقالت ذلك لعبد الله بن جدعان، فقال لها: إني أخاف إن طلقتك تتزوجي هشام بن المغيرة! قالت له: فإن لك عليّ أن لا أفعل هذا. قال لها: فإن فعلت، فإنّ عليك مائةً من الإبل تنحرينها وتنسجين ثوباً يقطع ما بين الأخشبين وتطوفين بالبيت عريانةً. قالت: لا أطيق ذلك. وأرسلت إلى هشام فأخبرته، فأرسل إليها ما أهون ذلك، وما يكن بك من ذلك، أنا أيسر من قريش في المال، ونسائي أكثر النساء بالبطحاء، وأنت أجمل النساء ولا تعابين في عريك، فلا تأتي ذلك عليه. فقالت لابن جدعان: طلقني، فإن تزوجت هشاماً فعليّ ما قلت. فطلقها بعد استيثاقه منها. فتزوجها هشام، فحرق عنها مائة جزور، وأمر نساؤه فنسجن ثوباً يملأ ما بين الأخشبين، ثم طافت بالبيت عريانةً. قال المطلب: فأتبعها بصري إذا أدبرت وأستقبلها إذا أقبلت، فما رأيت شيئاً مما خلق الله منها وهي واضعة يدها على فرجها وقريش قد أهدقت بها، وهي تقول:

وما بدا منه فلا أحله

اليوم يبدو بعضه أو كله

التلفيق عند الزبير بن بكار

قال الزبير بن بكار: خطب الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من عمّه الحسين بن علي رضي الله عنهما فقال له: يا ابن أخي، قد انتظرت هذا منك انطلق معي، فخرج معه حتى أدخله منزله ثم أخرج إليه ابنته فاطمة وسكينة، وقال له: اختر أيهما شئت! فاختر فاطمة، فزوجه إياها. فلما حضرت الحسن الوفاة قال لها: إنك امرأة مرغوب فيك، متشوّف إليك لا تتركين، وإني ما أدع في قلبي حسرةً سواك. فتزوجني من شئت سوى عبد الله بن عمر بن عثمان. ثم قال لها: كأني قد خرجت وقدمت جارك لابساً حلتّه، مرجلاً جمته، يسير في جانب الناس معترضاً لك، ولست أدع من الدنيا همّاً غيرك. فلم يدعها حتى استوثق منها بالإيمان.

ومات الحسن، فأخرجت جنازته، فوافاه عبد الله بن عمر وكان يجذب فاطمة وجدداً شديداً، وكان رجلاً جميلاً كان يقال له المطرف من حسنه، فنظر إلى فاطمة وهي تلطم وجهها على الحسن، فأرسل إليها مع وليدة له: أن لابن عمك أرباً في وجهك فارفقي به. فاسترخت يدها واحمرّ وجهها حتى عرف ذلك جميع من حضرها. فلما انقضت عدتها خطبها فقالت: كيف أفعل بإيماني؟ قال لها: لك بكل مال مالان؛ وبكل مملوك مملوك كان. فوفى لها وتزوجها فولدت له محمداً. وكان يسمّى من حسنه الديباج والقاسم ورقية.

وقال الزبير: لما حضرت الوفاة حمزة بن عبد الله بن الزبير خرجت عليه فاطمة بنت القاسم بن علي بن

جعفر بن أبي طالب فقال لها: كأني بك تزوجت طلحة بن عمر بن عبد الله بن معمر، فحلفت له بعق رقيقها، وإن كل شيء لها في سبيل الله أن تزوجه أبداً. فلما توفي حمزة بن عبد الله وحلت، أرسل إليها طلحة بن عمر فخطبها فقالت له: قد حلفت. وذكرت يمينها، فقال لها: أعطيك بكل شيء شيئين. وكانت قيمة رقيقها وما حلفت عليه عشرين ألف دينار، فأصدقها ضعفها فتزوجته، فولدت له إبراهيم ورملة. فروج طلحة ابنته رملة من إسماعيل بن علي بن العباس بمائة ألف دينار وكانت فائقة الجمال والخلق، فقال إسماعيل لطلحة بن عمر: أنت أئجر الناس. قال له والله ما عاجلت تجارة قط. قال: بلى حين تزوجت فاطمة بنت القاسم بأربعين ألفاً فولدت لك إبراهيم ورملة، فروجت رملة بمائة ألف دينار فريحت ستين ألفاً وإبراهيم.

تزوجته قبل انقضاء عدتها

وعن هشام بن الكلبي قال: قال عبد الله بن عكرمة: دخلت على عبد الرحمن بن هشام أعوده فقالت: كيف تجد؟ فقال: أجد بي والله الموت، وما موتي بأشد علي من أم هشام، أخاف أن تتزوج بعدي. فحلفت له أنها لا تتزوج بعده فغشي وجهه نوراً، وقال: الآن فليترل الموت متى شاء. فلما انقضت عدتها تزوجت عمر بن عبد العزيز. فقلت في ذلك؟.

وإن تعست بؤساً فللعين والفم

فإن لقيت خيراً فلا يهنيها

فلما بلغها ذلك كتبت إلي: قد بلغني ما تمثلت به، وما مثلي في أخيك إلا كما قال الشاعر:

قضت نجبها بعد الحنين المرجع

وهل كنت إلا والها ذات ترحه

ففي غير من قد وارت الأرض مقنع

فدع ذكر من قد وارت الأرض شخصه

قال: فبلغ مني كل مبلغ. فحسبت حسابها فإذا هي قد عجّلت بالتزوج وبقي عليها من عدتها أربعة أيام. فدخلت على عمر فأخبرته فانقضى النكاح.

هل يزول الهوى بعد الموت

قال الزبير بن بكار: كانت امرأة من العرب تزوجت رجلاً، فكانت تجد به، ويجد بها وجداً شديداً، فتحالفا وتعاهدا أن لا يتزوج الباقي منهما. فما لبث أن مات بعلمها، فتزوجت، فلامها أهلها على نقض عهدها، فقالت:

وحبي لذا مات ذاك شديداً.

لقد كان حبي ذاك حباً مبرحاً

وحبي لذا طول الحياة يزيد

وكانت حياتي عند ذلك جنة

فلماً مضى، عادت لهذا مودتي،

كذاك الهوى بعد الممات يبید

لم ترع لبعثها حرمة

حكى الهيثم بن عدي قال: عاهد رجلاً امرأته وعاهدته أن لا يتزوج الباقي منهما، فهلك الرجل، فلم تلبث المرأة أن تزوجت. فلماً كان ليلة البناء بها رأت في أول الليل شخصاً فتأملتته، فإذا هو زوجها، وهو يقول لها: نقضت العهد ولم ترعي له. وأصبحت فأتمت نكاحها.

تركها وأوصى بها فخانتها

وروى ابن شهاب: أن رجلاً من الأنصار غزا فأوصى ابن عم له بأهله، فأتى ابن عم الرجل ليلة من الليالي فتطلع على حال زوجة ابن عمه فإذا بالبيت مصباح يزهر ورائحة طيبة، وإذا برجل متكئ على فراش ابن عمه وهو يتغنى ويقول:

خلوت بعمره بدر التمام

وأشعث غرة الإسلام متي

على جرداء لاحقة الحزام

أبيت على ترائبها ويغدو

فنام يتمين إلى فنام

كأن مجامع الريلات منها

فلم يقدر الرجل أن يملك نفسه حتى دخل عليه فضربه حتى قتله. ورفع الخبر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فصعد المنبر وخطب وقال: عزمت عليكم أن كان الرجل الذي قتل حاضراً ويسمع كلامي فليقم. فقال: أبعد الله، ما كان من خبره؟ فأخبره وأنشده الأبيات، فقال: أضربت عنقه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: أبعد الله، فقد هدر دمه.

لم ترع عهداً ولم يرع قرابة

قال أبو عمرو الشيباني: كان أبو ذؤيب الهذلي يهوى امرأة يقال لها أم عمرو، وكان يبعث إليها خالد ابن أخيه زهير، فراودت الغلام عن نفسها، فامتنع وقال: أكره أن يبلغ أبا ذؤيب. فقالت له: ما يراني وإياك إلا الكواكب. فبات وقال:

وأم عمرو فلنعم الصاحب

ما ثم إلا أنا والكواكب

فلماً رجع إلى أبي ذؤيب استراب به، وقال: والله إنني لأجد ريح أم عمرو منك. ثم جعل لا يأتيه إلا استراب به، فقال خالد:

يا قوم ما لي وبي ذؤيب،
بمسّ عطفني، ويشمّ ثوبي،
كنت إذا ما جئته من غيب،
كأني أربته بريب.

فقال أبو ذؤيب، وهي من قصيدة من جيد شعره:

دعا خالداً أسرى ليالي نفسه
فلما توفّأها الشّباب وغدره،
يولي على قصد السبيل أمورها
وفي النفس منه غدرها وفجورها،
لوى رأسه عني، ومال بودّه،
تعلّقها منه دلال ومقلّة،
يظلل لأصحاب السّفاه يثيرها

فأجابه خالد:

فلا يبعدن الله عقلك إن غزا
وكنت إماماً للعشيرة تنتهي
وقاسمها بالله جهداً لأنتم
فلم يغن عنه خدعه حين أزمعت
وسافر والأحلام جُمّ غيورها
إليك إذا ضاقت بأمرٍ صدورها
ألذّ من الشكوى إذا ما يسورها
صريمته والنفس مرّ ضميرها

قال: وكان أبو ذؤيب أخذها من ملك بن عويمر وكان ملك يرسله إليها، فلما كبر أخذت أبا ذؤيب،
فلما كبر أخذت خالداً. وقال:

تريدين كيما تجمعي وخالداً
أخالداً، ما راعيت منّي قرابةً
وهل يصلح السيّفان، ويحك، في غمد؟
فتحفظني بالغيب أو بعض ما تبدي.

عن قريبٍ تبيع كفلها

قال أبو عبيدة: كان صخر بن عبد الله الشّريد يتعشّق ابنة عمّه سلمى بنت كعب، وكان يخطبها فتأبى عليه، فأقام على ذلك حيناً ثمّ أغارت بنو أسدٍ على بني سليمٍ فغلبوهم وصخر غائب. وأخذت سلمى فيمن أخذ من النّساء، وقتل عددٌ منهم، وأسر آخرون. وأقبل صخر فنظر إلى ديارهم بلقعاً وأحبر الخبر، فشدّ عليه سلاحه، واستوى على فرسه، وأخذ أثرهم حتّى لحقهم، فلما نظروا إليه قالوا: هذا كان شرّد من بني سليم، وقد أحبّ الله أن لا يدع منهم أحداً. فجعل يبرز إليه الفارس بعد الفارس فيقتله، فلما أكثر فيهم القتل، حلّت أسارى بني سليم بعضها بعضاً، وثاروا على بني أسد.

ونظر صخر إلى سلمى وهي مع عبد أسود، قد شدّها على ظهره، فطعنه صخرٌ فقتله واستنقذ سلمى ورجع بها. وقد أصابته طعنة أبي ثور الأسدي في جنبه، وتزوج سلمى. وكان يحبّها ويكرمها، ويفضّلها

على أهله. ثم بعد ذلك انتقض جرحه فمرض حولاً، وكان نساء الحيّ يدخلن إلى سلمى عوائد فيقلن: كيف أصبح صخر؟ فتقول: لا حيّ فيرجى ولا ميت فينسى. ومرّ بها رجلٌ وهي قائمةٌ وكانت ذات خلقٍ وأرداف، فقال: أبيع هذا الكفل؟ فقالت: عن قريبٍ فسمعها صخر، ولم تعلم، فقال لها: ناوليني السيف أنظر هل صدىءٌ أم لا؟ وأراد قتلها، فناولته ولم تعلم، فإذا هو لا يقدر على حمله فقال:

أرى أمّ صخرٍ ما عملَ عيادي	وملّت سليمي مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازةً	عليك ومن يغترّ بالحدثان
فأيّ امرئٍ ساوى بأمّ حليبةٍ	فلا عاش إلاّ في شقا وهوان
أهمّ بأمر الحرم لو أستطيعه،	وقد حيل بين العبر والتزوان
لعمري لقد أيقظت من كان نائماً	وأسمعت من كانت له أذنان
فللموت، خيرٌ من حياةٍ كآتها	محلة يعسوب برأس سنان.

قال: ونبأت في موضع الجرح قطعةً فأشاروا عليه بقطعها، فقال لهم: شأنكم. فلما قطعت مات.

غدرت حتى بأبيها

قال كان السّاطرون والملك، ملك اليونانيين، قد بنى حصناً يسمّى الثّثار ولم يكن له بابٌ ظاهرٌ فكلّ من غزاه من الملوك رجع عنه خائباً حتى غزاه سابور ذو الأكتاف، ملك فارس، فحصره أشهراً لا يقدر على شيءٍ. فأشرفت يوماً من الحصن النّضيرة ابنة الملك، فنظرت إلى سابور فهويته، وكان من أجمل النّاس وأمدّمهم قامّةً، فأرسلت إليه: إن أنت ضمنت لي أن تزوّجني وتفضّلني على نساءك دلتك على فتح هذا الحصن. فضمن لها ذلك فأرسلت إليه: أن أنثر في الثّثار تبناً واجعل الرّجال يتبعونه حتى يروا حيث يدخل. فإنّ ذلك المكان يفضي إلى الحصن، وفيه بابه. ففعل ذلك سابور، وعمدت النّضيرة إلى أبيها فسقته الخمر حتى أسكرته، فلم يشعر أهل الحصن إلاّ وسابور معهم وهم آمنون.

قال: فلما فر سابور بالحصن، وقتل الملك أبا نضيرة، وجمع جنده، تزوّج بالنّضيرة فباتت معه مسهرةً لا تنام تتقلّب من جنب إلى جنب. فقال لها سابور: ما لك لا تنامين؟ فقالت: إنّ جنبي تجافى عن فراشك. قال: ولم، فوالله ما نامت الملوك على ألين منه ولا أوطأ، وإنّ فرشه لزغب اليمام. فلما أصبح سابور نظر إلى ورقة آس بين أعكائها، فتناولها، فدمى موضعها. فقال لها: ويحك بماذا كان أبوك يغديك؟ قالت: بالبخّ والزّيد والبلح والشّهد وصفو الخمر. فقال لها سابور: إني لجديرٌ أن لا أستبقيك بعد إهلاك أباك وقومك،

وكانت حالك عندهم هذه الحالة التذ تصفين، وأمر بإحضار فرسين فربطت إلى أرجلهما بغدائرها ونفرا فقطعاها نصفين، فذلك قول عدي حيث يقول:

من قعره أيد مناكيها

والحصن صبّت عليه داهية

أرباب ملك جزل مواهبها

من يعد ما كان وهو يعمره

وصلت الخيانة حتى إلى أم البنين؟

ويروى أنّ وضّاح اليمـن نشأ هو وأمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان بالمدينة صغيرين فأحبّها وأحبّته، وكان لا يصبر عنها حتى إذا شبّت حجبت عنه، فطال بهما البلاء. فحجّ الوليد بن عبد الملك فبلغه جمال أمّ البنين وأدبها فتزوّجها ونقلها معه إلى الشّام فذهب عقل وضّاح عليها وجعل يذوب وينحلّ فلما طال عليه البلاء وصار إلى الوسواس خرج إلى مكّة حاجاً وقال لعليّ أستعيذ بالله ممّا أنا فيه وأدعو الله فلعنّه يرحمّني.

فلما قضى حجّه شخص إلى الشّام فجعل يطوف بقصر الوليد بن عبد الملك في كلّ يومٍ لا يجد حيلةً حتى أرى في يومٍ من الأيام جاريةً صفراء خارجةً من القصر تمشي فمشى معها ولم يزل بها حتى أنست به فقال لها: أتعرفين أمّ البنين بموضعي؟ فقالت: عن مولاتي تسأل؟ قال لها: هي ابنة عمّي، وإنّها لتسرّ بموضعي لو أخبرتها، قالت: فأنا أخبرها.

فمضت الجارية فأخبرت أمّ البنين فقالت لها: ويلك أحيّ هو؟ قالت لها: نعم يا مولاتي. قالت لها: إرجعي إليه، وقولي له كن مكانك حتى يأتيك رسولي، فيأتي لا أدع الاحتيال لك: واحتالت له فأدخلته في صندوق، فمكث عندها حيناً فإذا أمنت أخرجته فقعد معها، وإذا خافت عين رقيب أدخلته في الصندوق. وأهدي يوماً لوليد جوهر فقال لبعض خدمه خذ هذا العقد وأمض به إلى أمّ البنين وقل لها: أهدي هذا إلى أمير المؤمنين فوجّه به إليك. فدخل الخادم مفاجأةً ووضّاح معها قاعد فلمحه الخادم، ولم تشعر أمّ البنين، فبادر إلى الصندوق فدخله.

وأدى الخادم الرسالة وقال: هبي لي من هذا الجوهر حجراً واحداً. فقالت له: لا أمّ لك، فما تصنع بهذا. فخرج وهو عليها حق، فجاء الوليد فأخبره الخبر ووصف له الصندوق الذي رآه دخله، فقال له: كذبت، لا أمّ لك: ثمّ نهض الوليد مسرعاً فدخل إليها وهي في ذلك البيت وفيه صناديق كثيرة فجاء حتى جلس على ذلك الصندوق الذي وصف له الخادم فقال لها: يا أمّ البنين هبي لي صندوقاً من صناديقك هذه؟ قالت: أنا لك يا أمير المؤمنين، وهي لك، فخذ أيّها شئت. قال: ما أريد إلاّ هذا الذي تحتي. قالت له يا أمير المؤمنين إنّ فيه شيئاً من أمور النساء. فقال: ما أريد غيره. قالت فهو لك.

قال فأمر به فحمل، ودعا بغلامين وأمرهما أن يحفرا حتّى وصلا إلى الماء ثمّ وضع فمه في الصندوق وقال يا صاحب الصندوق قد بلغنا عنك شيء فإن كان حقاً فقد دفننا خبرك، وإن كان كذباً فما أهون علينا، إنّما دفننا صندوقاً. وأمر بالصندوق فألقي في الحفيرة، وأمر بالحدّام الذي عرفه فقذف معه، وردّ التراب عليهما. قال فكانت أمّ البنين لا ترى إلّا في ذلك المكان تبكي إلى أن وجدت ذات يومٍ مكيوبةً على وجهها مّيّنة.

استطعن التّخلص في آخر لحظة

وروي عن أبي نواس قال حجبت مع الفضل بن الرّبيع فلمّا كنّا بأرض فزارة أيام الرّبيع، نزلنا منزلاً بفنائهم ذا أرضٍ أريضٍ، ونبتٍ غريضٍ، وقد اكتست الأرض نبتها الزّاهر، وبرزت براحم غرورها والتّحف أنوار زحرفها الباهر ما يقصر عن حسنه التّمارق المصفوفة، ولا يداني بهجته الزّرابي المبوثة. فزادت الأبصار في نضرتها، وابتهجت النفوس بشمارها. فلم نلبث أن أقبلت السّماء بالسّحاب، وأرخت عزاليها ثمّ اندهمت برذاذٍ ثمّ بطشٍ ثمّ بوابلٍ حتّى إذا تركت الدّيم، كالوهاد انقشعت وأقلعت وقد غادرت الغدران مترعةً برفقٍ، والقيعان ناضرةً تتألّق، يتضحك بأنوار الزّهر الغضّ حتّى إذا هممت بتشبيه منظرٍ حسنٍ رددته إليه، وإذا تقّت إلى موضعٍ طيّبٍ لم يجد في البكاء معولاً إلّا عليه. فسرحت طربي راتعاً في أحسن منظرٍ، واستنشقت من رباها أطيّب من ريح المسك الأذفر. فقلت لزيميلى: ويحك أمض بنا إلى هذه الخيمات، فلعلنا نلقى من نأثر عنه خيراً، نرجع به إلى بغداد.

فلمّا انتهينا إلى أوائلها إذا نحن بجباء على باب جارية مرقعة بطرف مريض وسان التّظر قد حشي فتوراً، وملىء سحراً، فقلت لصاحبي: والله إنّها لترنو عن مقلة لا رقية لسليمتها ولا برء لسقيمتها. فقال لي: وكيف السّبيل إلى ذلك؟ فقلت: استسقى ماءً. فدنونا منها فاستسقيناه فقالت نعم، ونعما عين وإن نزلتما ففي الرّحب والسّعة. ثمّ قامت تتهادى كالدّعص الملبد. فراعني والله ما رأيت منها، فأتت بالماء فشربت منه، وصبيت باقية على يدي، ثمّ قلت: وصاحبي عطشانٌ أيضاً. فأخذت الإناء ودخلت الخباء ثمّ جاءت، فقلت لصاحبي: تعرض لكشف وجهها. فقال:

فلا بارك الله في البرقع

إذا بارك الله في ملبسٍ

وتكشف عن منظرٍ أشنع

تريك عيون المها غرّةً

فمرّت مسرعةً وأتت وقد كشف البرقع وتقمّعت بخمارٍ أسود وأنشأت وهي تقول:

أضلاً ولما يعرفا مبتغاهما

ألا حيّ ضيفي معشر قد أراهما

ليستمتعا باللحظ ممن سقاها

هما استقيا ماءً على غير ظمأة

كما ذمّ تجرا سلعةً مشتراهما

يذمّان تلباس البراقع ضلّة

قال: فشبهت، والله كلامها بعقد درّ وهي من سلكه. فهو ينتثر بنغمة عذبة رخيمة لو خوطبت به الصمّ الصلاب لانبعجت ماءً لرتوبة منطقتها، وعذوبة لفظها، بوجه يظلم لنوره ضياء العقول، ويتلف من رؤيته مهج النفوس. فهي كما قال:

فلو جنّ إنسانٌ من الحسن حتّت

فرقت وجلّت واستكرت فأكملت

فلم أتمالك أن خرت ساجداً، فقالت: ارفع رأسك غير مأجور، ولا تدمنّ بعدها برقعاً. فكشف البرقع عما يطرد الكرى، ويشغل الهوى، من غير بلوغ أرب، ولا إدراك طلب. وليس إلاّ الحين المملوب، والقدر المكتوب، والأمل المكذوب. فبقيت والله معقول اللسان عن الجواب، حيران لا أهتدي إلى طريق الصواب. والتفت إليّ صاحبي لما رأى لهفي فقال: ما هذه الخنفة لوجه، إنّما برقت لك بارقةً لعلك ما تدري ما تحتها. أما سمعت قول الشاعر؟ حيث يقول:

وتحت الثياب العار لو كان باديا

على وجه مّي مسحةً من ملاحه

فقالت: بئس ما ذهبت إليه، لا أبالك، لأنّنا أشبه بقول الشاعر حيث يقول:

على كشح مرتج الرّوادف أهضم

منعمة حوراء يجري وشاحها

فزاريّة العينين طائيّة الفم

خزاعيّة الأطراف كندية الحشا

ثمّ رفعت ثيابها حتّى جاوزت نحرها، فإذا هي كفضيب فضّة قد شيب بماء الذهب، يهترّ على مثل كتيب؛ ولها صدرٌ كالورد عليه رمّانتان أو حقان من عاج يملآن يد اللامس؛ وخصر مطويّ الاندماج، يهترّ في كفّل رجاج، لو رمت عقده لانعقد؛ وسرّة مستديرة يقصر وهمي عن بلوغ وصفها؛ تحت ذلك أرنبٌ جاثمٌ أو جبهة أسدٍ غادر، وفخذان لفّوان، وساقان خدلجان يحسان الخلاخيل، وقدمان خمصاوان. فقالت: أعارت ترى؟ قلت: لا والله، قال: فخرجت عجوزٌ من الخباء وقالت: أيها الرّجل امض لشأنك، فإنّ قتيلاها مطلول لا يودي، وأسيرها مكبول لا يفدى. فقالت لها الجارية: دعيه فمثله قول ذي الرّمّة:

قليلاً فإنّي نافعٌ لي قليلها

وإن لم يكن إلاّ تمتع ساعة

فولّت العجوز وهي تقول:

بعينيك عينيتها، فهل ذاك نافع؟

فما لك منها، غير أنّك ناكحٌ

قال: فبينما نحن كذلك إذ ضرب الطبل للرحيل فانصرفت بكمد قاتلٍ، وكربٍ داخلٍ، ونفسٍ هائمةٍ،
وحسرةٍ دائمةٍ، فقلت في ذلك:

رسم الكرى بين الجفون مخيل
عفا عليه بكا عليك طويل
يا ناظراً ما أفلعت لحظاته
حتى تشخص بيتهنّ قتيل
أحللت من قلبي هواه محلةً
ما حلّها المشروب والمأكول
بكمال صورتك التي في مثلها
يتحير التشبيه والتمثيل
فوق القصيرة والطويلة فوقها
دون السمين ودونها المهزول

قال: فوالله ما انتفعت بحجّ ولا لقيت أحداً ممّا كنت تأهّبت للقائه. ثمّ رجعنا منصرفين، فلمّا كنّا بذلك
المتزل وقد تضاعف نوارّه، واعتمّ نبتّه، وتزايد حسنه، قلت لصاحبي: امض بنا إلى صاحبتنا. فلمّا مضينا
وأشرفنا على الخيام ونحن دونها، سترني روضةً أريضةً مونقةً، عليها جمان الطلّ، يغازلها كالأعين التجلّ،
وقد أشرفت بدموعها على قضب الزبرجد، وهبت ريح الصّبا فصبت له الأغصان، وتمايلت تمايل التّشوان.
فصعدنا ربوةً، ونزلنا وهدّةً، فإذا هي بين خمسٍ لا تصلح أن تكون خادمةً لإحداهنّ، وهنّ يجنين من نوار
ذلك الزّهر، وينقلبن على ما أعتم من عشيةٍ وزهرة. فلمّا رأينا تقربن، فسلمنا عليهنّ. وقالت الجارية من
بينهن: وعليك السّلام، ألسّت صاحبي آنفاً؟ قلت: بلى، ولكنّ لحبي كان ذلك. فقلن لها: أو تعرفينه؟
قالت: نعم. فقصّت عليهنّ القصّة كلّها ما كتمت منها حرفاً واحداً.

قلن لها: ويحك، أمّا زودته شيئاً؟ قالت زودته والله موتاً مريحاً، ولحداً ضريحاً. فانبرت لها أنضرنّ وجهاً،
وأرقهنّ خدّاً، وأرشقهنّ قدّاً، وأبدعهنّ شكلاً، وأكملهنّ عقلاً، فقالت: والله ما أجملت بدءاً، ولا
أحسنت عوداً، ولقد أسأت في الرّد، ولم تكافئيه بالودّ، وإني أحسبه إليك وامقاً، وإلى لقائك تائقاً، فما
عليك من إسعافه في هذا المكان ومعك من لا ينمّ عليك. فقالت لها: يا تعساً إلى ما دعوتني، والله لا أفعل
من ذلك شيئاً أو تفعلينه وتشركيني في حلوه ومرّه، وخيره وشرّه. فقالت لها: تعساً تلك إذا قسمة ضيزي
تعشقين أنت فترهين، وتوصلين فتقطعين، ويرغب فيك فترهدين، ويذل لك الودّ فتمنعين الرّفد، ثمّ
تأمريني أن أشاركك فيما يكون منك شهوةً ولذّةً، ومنيّ عناءٍ وسخرةً؟ ما أنصفت في القول، ولا أجملت
في الفعل.

قالت أخرى منهنّ: قد أطلت الخطاب في غير قضاء أرب؟ فاسألن الرّجل عن قصّته وما في نفسه من
بقيّته؟ فلعلّه لغير ما أنتنّ فيه. فقلن: حيّاك الله وأقرّ بك عيناً، من أنت، ومن تكون؟ فقلت: أمّا الاسم
فالحسن بن هانيء الحكمي وأنا من شعراء السّلطان الأعظم ومن يتزيّن بمجلسه، ويفتخر بحمده وشكره،
ويتقي لسانه. قصدت لتبريد غلّة، وإطفاء لوعةٍ قد أحرقت الكبد، وأذابت الجسد، ثمّ استبطنت الأحشاء

فمنعت من القرار، ووصلت الليل بالتهار. فقالت: لقد أضفت إلى حسن المنطق والمنظر، كريم الخيم والمخبر، وأرجو أن تبلغ أمينتك، وتنال بغيته. فهل قلت شيئاً في صبوتك؟ قلت: نعم. قلن: أنشد فأنشدتهن:

حجبت رجاء الفوز بالأجر قاصداً،
لحطّ ذنوب من ركوب الكبائر،
فأبت، كما آب الشقيّ بخفه
حنين، فلم أوجر بتلك المشاعر
دهتني بعينها، وبهجة وجهها،
فتاة، كمثل الشمس أسحر ساحر؛

منعمة، لو كان للبدر نورها،
لما طلعت بيض التجوم الزواهر .
فإن بذلت، نلت الأمانى كلها،
وإن لم تلتني، زرت أهل المقابر .

فقلن: أحسنت، والله. ثم قالت: إنها والله ساعتك الطولى، إن خالفتي! قالت: لقد سمعت جوابي. فقالت أخرى: أجيبيها إلى ما دعت من الشركة لتكون إحداكن في الأمر. فقلن: قد انتصفت، وقد أطلت الخطاب على أمرٍ فأمضيه قبل انتشار الحي، فالوقت ممكن، والمكان حال. فأجمعن على ذلك ولست أشك فيما أظهرن، ثم قلن: بمن تبدأ؟ قلت اقترعن. فوقعت القرعة على أملحهن. فصرت إلى باب المغارة هناك، فأدخلتني وأبطأت عني قليلاً، وجعلت أتوق وأنظر إلى دخول إحداهن. فبينما أنا كذلك، إذ دخل عليّ أسود كأنه سارية، بيده أيره وهو منعظ كمثل ذراع البكر. فقلت: ما تريد؟ قال: أنيكك. فأهممتني والله نفسي، فصحت بصاحي، وكان أجلد مني، فخلصني من الأسود. ولم أكد أخلص منه فخرجت من المغارة فإذا هنّ ينظرن من الخيمات كأنهنّ لآلىء ينحدرن من سلك، وهنّ يتضاحكن حتى غبن عن بصري. فأسرعنا الرجعة إلى رحالنا فقلت لصاحي: من أين جاء الأسود؟ قال: كان يرعى غنماً عند ربوة من المغارة، فأومأ أن إليه، فأسرع نحوهنّ، فأوحين إليه شيئاً فرابني ذلك. فأسرعت نحوك فسبقني ودخل عليك، ولولا ذلك لكان قد تمكّن منك الأسود. فقلت: أتراه كان يفعل؟ قال لي: فأنت في شك من هذا؟ فقلت له: اكنم عليّ. وانصرف وأنا والله أحزى من ذات التحيين.

فاجرة السرداب

قال دعبل بن علي: بينا أنا سائرٌ بباب الكرج وقد استولى الفكر على قلبي فحضرني بيت شعرٍ خطر به لساني من غي التطق به، فقلت:

ونوم عيني لها انبساط

ونوم حفي له انقباض

وإذا جارية معترضة تسمع كلامي فقالت:

وذا قليلٍ لمن دهنه

بلحظها الأعين المراض

فلم أعلم أنني خاطبت جاريةً أعذب منها لفظاً، ولا أسحر طرفاً، ولا أنضر خدّاً، ولا أحسن مشياً، ولا أرجح عقلاً. فوددت أن كلَّ جارحةٍ منِّي عينٌ تنظر، أو قلبٌ يفهم، أو أذنٌ تسمع. فقلت:

أترى الزّمان يسرّنا بتلاقٍ

ويضمّ مشتاقاً إلى مشتاقٍ

ما للزّمان يقال فيه وإتما

أنت الزّمان فسرّنا بتلاقٍ

قال: فلحظتها، وتبعني. وذلك حين أملاقي، واحتلال حالي. فقلت: مالي إلا منزل صريع الغواني، فأتيته، واستوقفتها، ودخلت إليه. وقلت: ويحك يا مسلم، أجمل لك الخبروجة على الباب تقلّ له الدّنيا وما فيها من عسرٍ وضيقه. قال لي: شكوت إلى ما كدت أبدؤك به الشكوى، ولكن أتت بما على كلِّ حال. فلمّا دخلت قال لي: والله ما أملك إلا هذا المنديل. فقلت له: هو البغية. قال، فأخذته فبعته بثلاثين درهماً، واشترت خبزاً ولحماً ونبيذاً. وإذا هما يتنازعان حديثاً كأنه قطع الرّوض ذكرت به قول بشّار فقلت:

وحديثٍ كأنه قطع الرّو

ض وفيه الصّفراء والحمراء

فقال لي مسلم: بيتٌ نظيفٌ، ووجهٌ ظريفٌ، ولا نفل ولا ريحان؟ أخرج فالتمس لنا ذلك. قال، فخرجت وجئت بما طلب، فإذا لا حسّ منهما ولا أثر لهما، فجعلت أطيل الذّكر، وأرجم الظّنّ، حتّى إذا جنّ الليل وفي قلبي لهيب النيران، تاب عليّ عقلي وقلت: لعلّ الطّلب يوقني على موضعٍ خفيّ. فوقفت على باب سردابٍ وإذا هما قد نزلا ومعهما جميع ما يحتاجان إليه فأكلا وشربا ونعما. فدليت رأسي وصحت مسام ثلاث مرّات، فلم يكلمني بأكثر من أن قال لي: محلّنا، والتّفقة من عندنا، وأنت فضولي، ما هذا الذي تقترح؟ اصبر مكانك حتّى يؤذن لك، فبقيت طول ليلتي أتقلّي على جمر الغضا لا أعرف أين أنا. فلمّا انشقّ الصّبح إذا به طلع وطلعت الجارية في أثره، فأسرعت إليه وخرجت تعدو ولم تخاطبني، فكانت أعظم حسرةٍ نزلت بي.

باب ما جاء في الزّنا والتّحذير من عواقبه

سيّئات الزّنا

روي عن الأعمش، عن سفيان، عن حذيفة، أن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، قال: " يا معشر المسلمين إياكم والزّنا، فإنّ فيه ستّ حصال: ثلاثاً في الدّنيا، وثلاثاً في الآخرة. فأما التي في الدّنيا: فزوال البها، ودوام الفقر، وقصر العمر؛ وأما اللواتي في الآخرة. فسخط الله جلّ ثناؤه، وسوء الحساب، والخلود

المقيم على الزنا كعابد وثن

وعن الحارث بن النعمان قال: سمعت أنس بن مالك يقول أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "المقيم على الزنا كعابد وثن".

هؤلاء اللواتي يزنين

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "ليلة أسرى بي انطلق بي إلى خلقٍ من خلق الله ونساءٍ معلقاتٍ بثديهنّ ومنهنّ بأرجلهنّ، منكّسات، ولهنّ صراخٌ وخوار. فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء اللواتي يزنين ويقتلن أولادهن، ويجعلن لأزواجهنّ ورثةً من غيرهم".

الله يبغض ثلاثة

وعن أبي الدرداء. أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "أن الله عزّ وجلّ يبغض ثلاثة. الشيخ الزّاني، والمقلّ المختال، والبخيل المتّان".

أعظم الذنوب أن تزاني حليّة جارك

وعن عمر بن شريحيل، عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: قلت: يا رسول الله، أو قال غيري: أيّ الذنوب أعظم عن الله؟ قال: "أن تجعل لله نداً وهو خلقك". قلت: ثمّ أي؟ قال: "أن تقتل النفس بغير حقّ"، ثمّ أي؟ قال: "أن تزاني حليّة جارك". قال: "ثمّ أنزل الله في كتابه تصديق ذلك". ثمّ قال: "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً".

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "الزّاني بحليّة جاره لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكّيه، ويقول أدخل النار مع الدّاحلين".

مسؤوليّة الرّجل

وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول حين نزلت آية الملائكة: "أيما امرأة أدخلت على قومٍ من ليس منهم فليست من الله في شيءٍ، ولن يدخلها الله جنته. وأيما رجلٍ جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين".

الزنا يجمع خصال الشرِّ كلها

ذكر الزنا عند يحيى بن خالد بن برمك فقال: الزنا يجمع الخصال كلها من الشرِّ. لا تجد زانياً معه ورع، ولا وفاءً بعهد، ولا محافظةً على صديق؛ الغدر شعبةٌ من شعبه، والخيانة فنٌّ من فنونه، وقلة المروءة عيبٌ من عيوبه، وسفك الدَّم الحرام جنايةٌ من جناياته.

الملك زائلٌ وما تدين تدان

وحكى ابن الأعرابي قال: كان الحارث بن أبي شمر الغساني إذا أعجبته امرأة ووصفت له، بعث إليها واغتصبها نفسها، فأتاه أبوها فقال له:

ليلاً وصباحاً كيف يختلفان

يا أيها الملك المخوف أما ترى

ليلاً وهل لك بالملك يدان

هل تستطيع الشمس أن تأتي بها

واعلم بأنك ما تدين تدان

فاعلم وأيقن أن ملكك زائلٌ

كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر

وعن عدي بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: كان في بني إسرائيل راهبٌ عبد الله زماناً من الدهر، حتى كان يؤتى بالجانين يعوذهم فيروؤون على يديه. وأنه أتى بامرأة من أشراف قومها قد جنت وكان لها أخوة، فأتوه بها، فلم يزل الشيطان يزيّن له حتى وقع عليها، فحملت، فلما استبان حملها، لم يزل الشيطان يخوفه ويزيّن له قتلها ودفنها، فقتلها ودفنها.

وذهب الشيطان في صورة رجلٍ حتى أتى بعض أحوثها فأخبره بالذي فعل الراهب، ثم أتى بقيّة أحوثها رجلاً رجلاً فجعل الرجل يلقي أخاه فيقول له: والله لقد أتاني آتٍ فذكر لي شيئاً كبيراً علينا. فأخبر بعضهم بعضاً بما قيل لهم، فأتوا إلى الراهب فقالوا: ما فعلت أختنا؟ قال: خرجت، ولست أدري أين ذهبت. فرفعوا ذلك إلى ملكهم، فسار إليه الناس حتى استزلوه من صومعته، فأقرّ لهم بالذي فعل، فأمر به فصلب على خشبة، وتمثّل له الشيطان فقال له: أنا الذي زيّنت لك هذا وألقيتك فيه، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك وأخلصك؟ قال: نعم. قال: تسجد لي سجدةً واحدةً فسجد له الرجل، ثم قتل. فهذا داخلٌ

تحت قول الله عزّ وجل: " كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ". ولم تنزل أشراف العرب في الجاهلية يتجنّبون الزنا ويذمّونه، وينهون عنه.

الزنا يورث الفقر

وروى هشام بن عروة عن أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قالت: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل في الجاهلية وهو مسندٌ ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش إياكم والزنا، فإنه يورث الفقر.

إياكم وفضيحة النساء

وفي وصية دريد بن الصمة: إياكم وفضيحة النساء فإنها عقوبة غدٍ، وعار أبدٍ، يكاد صاحبها يعاقب في حرمه بمثلها، ولا يزال لازماً ما عاش له عارها.

راودته فامتنع فسمته

وحكى بعضهم قال: وفد عبد المطلب بن هاشم على بعض ملوك حمير فألطف منزلته وأكرمه. وكان تاماً جميلاً، فقال له الملك: يا أبا الحارث، أحب أن ينادمي ابنك. فأذن له أبوه في ذلك. وكان الحميري أجمل ملوك حمير، وكانت زوجته أجمل منه. فكان إذا شرب مع الحارث خرجت زوجته فجلست معهما تسقيهما، فعشقت الحارث زوجة الملك، فكلفت به، فراسلته، فأعلمها أنه محصن عن الزنا ولا يخون نديمه. فألّحت عليه فكتب إليها:

عف منادمي عفيف المتزر

لا تطعمي فيما رأيت فيأتي

غمروا فظفن البيت عند المشعر

أسعى لأدرك مجد قوم سادة

أربي بنفسي أن يعير معشري

فافني خيالاً واعلمي أنني امرء

ثم إنّه أحرر أباه، فصوّب رأيه وقال له: يا بني إن نساء الملوك طفاحاً. فلما رأته قد عزفت نفسه عنها قالت: والله لا أدعه تتمتع به امرأة أبداً. فدرست إليه شربة فشربها وارتحل مع أبيه، فلما قدم مكة مات فجزع عليه عبد المطلب جزعاً شديداً وقال يرثيه:

ببطن مكة تعفوه الأعاصير

سقى الإله صدى واريته بيدي

فما لقلبي عن ذكراك تغيير

يا حارث الخير قد أورثني شجناً

وما بدا علم في الآل معمور

فلست أنساك ما هبت شامية

راودته فامتنع فسمّه والدها

ولما قتلت بنو أسد بن خزيمه حجر بن الحارث أبا امرئ القيس دار في أحياء العرب فلم ير منهم ما يحب، فمضى حتى قدم على هرقل ملك الروم، فأقام عنده شهراً فأكرمه ونادمه، وأعجبه كماله وعقله. ثم بعث معه ستمائة من أبناء الملوك ومن تبعهم. ونظرت إليه ابنة الملك فعشقتة وأرسلت إليه أن يلقاها قبل خروجه، فجعل يعتذر لها ويعللها ولا يرضى أن يخون أباه فيها مع ما فعله معه. وخرج منصرفاً إلى بلده فقالت بنت هرقل لأبيها: ما صنعت بنفسك وجهت أبناء ملوك الروم مع ابن ملك العرب؟ لو قد استمكن مما أراد غزاك ونزع ملكك. فوجه إليه الملك بحلة منسوجة بالذهب مسمومة فلما لبسها تنفط جلده، وتساقط لحمه، فنظر إلى جبل فسأل عنه، فقيل له: اسمه عسيب. فقال:

وأني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إن المزار قريب

وكلّ غريبٍ للغريب نسيب

أجارتنا إنا غريان ههنا

وقيل إنه قال هذا لأنه رأى قبراً عند هذا الجبل فسأل عنه فأخبر أنه قبر امرأة من بنات ملوك الروم. فمات هناك.

أفضل الثلاثة: العفيف الجواد

ومما فضل به بسطام بن قيس على عامر بن طفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب. أن بسطاماً كان فارساً عفيفاً جواداً؛ وكان عتبة فارساً عفيفاً بخيلاً؛ وكان عامر فارساً جواداً عاهراً. فاجتمعت في بسطام ثلاث خصال شريفة فبذلك فضلها بسطام.

ساد بعفافه

قال الشعبي تنافر عامر بن الطفيل بن ملك بن جعفر وعلقمة بن علاثة بن الأحوص إلى هرم بن قطبة بن سنان الذيباني حكيم العرب فقال لعلقمة: بأي شيء أنت أسود من عامر؟ قال: أنا بصير، وهو أعور، وأنا أبو عشرة وهو عقيم، وأنا عفيف وهو عاهر.

العوام أكثر الناس عذراً

وإنما أطلقت العرب حديث الرجال إلى النساء لما كانوا يرون من التقص في الرّيب، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران، وما يعرف بعضهم من بعض من استعمال الوفاء، والتحرّز من العار. لأنّ الرّجل منهم كان

يصون حرمة جاره وصاحبه كصيانة الابنة والأخت والزوجة من حرمة. لا يرى أحدٌ منهم لنفسه رخصةً في إضاعة ذلك، وإنّما يتحمّل الغدر، ويرخص نفسه فيه، من باين البوادي، وخالط الحضر، لأنّه رأى أجناس العبيد، وأخلاق العوام، وقد نشأوا على عادة فجرها وعليها ولن يستوي من كرم طبعه وصحّت بنيته وترك الفواحش وجانبها تترّها عنها ولأنّها محظورةٌ عليه وغير مباحة له. وأحبّ شيءٌ إلى الإنسان ما منع عنه. فترك الأوّل طبعاً، وترك هذا تكلفاً. وأمّا العوام وأخلاق النّاس فلا يكادون يتورّعون عن محرّم، ولا يستحيون من عارٍ، وهم أكثر العالم غدرًا.

شهادة المسح ع

قال المسيح عليه السّلام: لا يزني طرفك بما غضضت بصرك.

أحبّلها بنظراته

ونظر أشعث إلى ابنه يوماً وهو يديم النّظر إلى امرأته فقال له يا بني أظنّ نظرك إليها قد أحبّلها. أخذ هذا بعض الشعراء فقال:

بنظرته أنثى لقد حبلت منّي

ولي نظرةٌ لو كان يجبل ناظرٍ

رشقوها بأبصارهم فعتفتهم

مرّت امرأةٌ بقومٍ من بني نمير فرشقوها بأبصارهم وأداموا النّظر إليها، فقالت: قبّحكم الله يا بني نمير، فوالله ما أخذتم بقول الله تبارك وتعالى: " قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم " ولا بقول الشاعر:

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فغضّ الطرف إنك من نميرٍ

فخجل القوم بما قالت وأطرقوا.

أربعٌ لا يشبعن من أربع

وكان يقال: أربعٌ لا يشبعن من أربع: عينٌ من نظر، وأذنٌ من خير وأرضٌ من مطر، وأنذى من ذكر.

يخاف عينيها

قال إسحاق بن بهيل: رأيت رجلاً في طريق مكة وعديله في الحمل وجارية قد شدَّ عينيها وكشف سائر وجهها فقلت له في ذلك، فقال: إنما أخاف عينيها لا عيون الناس.

حلقت شعرها لأتته رآه خصي

وكان عند بعض القرشيين امرأة عريئة فدخل عليها خصي لزوجها وهي واضعة خمارها تمشط شعرها، فحلقت شعرها، وقالت: لا يصحبي شعرٌ نظر إليه غير ذي محرّم منّي.

الزنا ليس فقط بإجهاد النفس

وقال رجلٌ لأعرابي: ما الزنا عندكم؟ قال: النظرة، والقبلة. قيل له: ليس هذا الزنا عندنا! قال: وما هو؟ قال: أن يجلس بين شعبها الأربع ثم يجهد نفسه. قال: بأبي أنت، ليس هذا زانياً هذا طالب ولد!

ليلة الدير وما ليلة الدير؟

قيل لأبي الطّمحان القبني: أخبرنا عن أقبح ذنوبك؟ قال: ليلة الدير. قيل: وما ليلة الدير؟ قال: نزلت على نصرانيةٍ فأكلت طفشلاً بلحم خنزير، وشربت من خمرها، وزنيت بها، وسرقت كساءها، ومضيت.

لو تمرّست به ما استعصمت

وقال الجاحظ: قرأ قارئاً: قالت فذلكنّ الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم. فقال إبراهيم بن عزوان: لا والله ما سمعت بأعدل من هذه الفاسقة، أمّا والله لو تمرّست بي ما استعصمت.

منعه ثلاثة عندها

بات أعرابيٌّ ضيفاً لبعض الحضر فرأى امرأته، فهمّ أن يأتي إليها في الليل فمنعه الكلب؛ ثمّ أراد ذلك مرّةً أخرى، فمنعه ضوء القمر؛ ثمّ أرادت ذلك في السحر، فإذا عجوزٌ قائمةٌ تصلي. فلما رأى ذلك قال:

غير العجوز وغير الكلب والقمر

لم يخلق الله شيئاً كنت أبغضه

وهذه سبحة قوامة السحر

هذا ييوح، وهذا يستصاء به،

عيان القيان أجمل

وصف أعرابيُّ رجلاً ماجناً فقال: والله لو أبصرته عيدان القيان لتحركت أوتارها، ولو رأته مومسةً لطار خمارها.

بغت ثلاث مرّاتٍ

وحكى خريدة بن أسماء، قال: حججنا، ونحن في رفقة، إذ نزلنا منزلاً ومعنا امرأةٌ نامت ثمّ انتبهت وحيّةً على عنقها لا تضرّها بشيءٍ، فلم يجترىء أحدٌ منا أن ينحيها عنها، فلم تزل كذلك حتى أبصرت الحرم فانسابت ومضت عنها، فحمدنا الله ودخلنا مكةً فقصينا نسكنا، ورأى الغريص المغنّي المرأة وقد سمع الحديث وما تحاكاها الناس عنها فقال لها: يا شقيّة ما فعلت حيّتك؟ قالت: في النَّار. قال: ستعلمين في النَّار. قال فضحكت المرأة ولم تفهم ما أراد وارتحلنا منصرفين حتى إذا كنّا بالموضع الذي حين نزلناه جاءت الحيّة حيث انسابت وتطوّقت عليها، فلما تألّمت المرأة عرفتها، ثمّ صفرّت الحيّة، فإذا الوادي يسيل علينا من جنباته حيّاتٍ، فنهشتها حتى بقيت عظماً ونحن نرى ذلك. ثمّ انصرفنا جميعاً فقلنا للحارية التي معها: ويحك خبيرنا بخبر هذه المرأة، فقد والله رأينا منها عجباً؟ قالت: نعم بغت ثلاث مرّاتٍ، تلد في كلّ مرّةً غلاماً، فإذا وضعت حمت تنوراً ورمته فيه وتكتم خبره. قال: فقلت سبحان الله ما أعجب هذا. وذكرت قول الغريص لها ستعلمين من في النَّار، فزادنا ذلك تعجباً منها.

على غير ذنبٍ جناه

قال أحمد بن يحيى: كان مرثد، عمّ عمرو بن قميّة الشاعر، عنده امرأةٌ جميلةٌ، وكان قد كبر، وكان يجمع بني أخيه وبني عمّه في منزله للغداء كلّ يومٍ. وكان عمرو بن قميّة شاباً جميلاً، وكانت أصبع رجله الوسطى والتي تليها مفترقتين. فخرج مرثد يرمي بالقداح، فأرسلت امرأته إلى عمرو بن قميّة: ابن عمّك يدعوك. فجاءت به من دير البيوت، فلما دخل عليها لم يجد عمّه فأنكر أمرها، فراودته عن نفسها، فقال لها: لقد جمت بأمرٍ عظيمٍ، وما كان مثلي يدعى لمثل هذا! قالت: لتفعلنّ ما أقول لك أو لأسوأئك. قال: إلى المساء دعوتني! ثمّ أنّه قام فخرج. وأمرت بجفنةٍ فكبّت على إثر رجله فلما رجع مرثد وجدها متغضبةً فقال لها: ما لك؟ قالت: إنّ رجلاً من قومك قريب القرابة جاء يستامني نفسي ويريد فراشك منذ خرجت. قال: ومن هو؟ قالت: أمّا أنا فلا أسميه، ولكن قم فاقتف أثره تحت الجفنة. فلما رأى الأثر عرفه فأعرض عنه وجفاه، ولم يزد على ذلك، وكان أعجب الخلق إليه. وعرف ابن قميّة ذلك وكره أن يخبره فقال:

لعمرك ما نفسي بجدٍ رشيدة
تؤامرني شراً لأصرم مرثدا
عظيمٌ رماه القدر لا متعبسٌ
ولا مؤيس منها إذا هو أخمدا
فقد ظهرت منه بوائق جمّة
وأفرغ في لومي مراراً وأصعدا
على غير ذنبٍ أن أكون جنّيته
سوى قول باغٍ جاهد فتهجّدا

وبلغت الأبيات مرثداً فكشف عن الأمر حتى تبين له، فطلّق امرأته وعاد على ما كان عليه لابن أخيه.

الله يعلم شأن ذاك الجار

وذكر هشام بن محمد الكلبى، عن الحصين بن ليبد قال: كان الخطيئة نازلاً في بني المسند من بني ضبة فرأى لبنة بنت قرطة أخت العلاء، وكانت فاسدة، فأعجبته فكلمها فأجابته، فوقع عليها، فحملت منه. ثم ارتحل الخطيئة، فلما بان حملها، زوّجها العلاء بن غالب بن صعصعة فولدت الفرزدق على فراشه فنسب إليه. ففي ذلك يقول جرير بن الخطفي.

كان الخطيئة جار أمك مرّة
والله يعلم شأن ذاك الجار
لا تفخرنّ بغالبٍ ومحمدٍ
وافخر بعبس يوم كلّ فخار

اختبره ونفاه

قال: وقدم الفرزدق على عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، فأكرمه وأحسن ضيافته. فبلغه أنه زان أن يختبر ذلك، فقال لجارية له: انطلقى إلى الفرزدق، وعمر في حجرة له ينظر ما يصنع الفرزدق، فأتته الجارية بالغسل والدّهن، وذهبت لتغسل رأسه، فوثب عليها فركضته وقالت: لعنك الله من شيخ. ثم خرجت فأتت عمر فأخبرته فنفاه من المدينة. وقال جرير:

نفاك الأعزّ بن عبد العزيز
وحقّك تنفى من المسجد

فقال الفرزدق:

فأوعني وأجلّني ثلاثاً
كما وعدت بمهلكها ثمود

ودخا الفرزدق يوماً على سليمان بن عبد الملك، وهو خليفة، فقال: أنشدني يا أبا فراس! فأنشده قصيدته حتى بلغ إلى قوله:

خرجن إليّ لم يطمئن قبلي
فمئن أصحّ من بيض النعام
فبتن بجاني مصرعاتٍ
وبت أفض أغلاق الختام

قال ما لم يفعل

فقال له سليمان: ما أظنك يا أبا فراسٍ إلاّ قد أحللت نفسك، أقررت عندي بالزّنا، وأنا إمامٌ، ولا بدّ من إقامة الحدّ عليك. فقال: يا أمير المؤمنين، ما أحللت نفسي إن كنت تأخذ بقول الله وتعمل به. قال سليمان: فيقول الله نأخذ عليك الحد. قال الفرزدق: فإنّ الله يقول: "والشّعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنّهم في كلّ وادٍ يهيّمون، وإنّهم يقولون ما لا يفعلون". وأنا، يا أمير المؤمنين، قلت ما لم أفعل. فتبسّم سليمان، وقال: تلافيتها يا أبا فراس، ودرأت الحدّ عن نفسك. وخلع عليه، وأمر له بجائزة.

طلب غنيمة فوجد أيراً

قال أبو عبيدة: هوى أبو العباس الأعمى امرأةً ذات بعلٍ فراسلها فأعلمت زوجها، فقال لها: أطمعيه. فأطعمته، ثمّ قال: أرسلني إليه فليأتك. فأرسلت إليه، فأتاها، وجلس زوجها إلى جانبها، فقال لها أبو العباس: إنك وصفت لنا فألمسينا. فأخذت يده فجعلتها على أير زوجها وقد أنعظ، فنثر يده وعلم أنّه قد كيد، فخرج من عندها وقال:

على أيرٍ أشدّ من الحديد

أتيتك زائراً فوضعت كفي

أمسك طائعاً ألا أعود

عليّ آية ما دمت حيّاً

وخيرٌ من زيارتكم قعودي

فخيرٌ منك من لا خير فيه

طيبة عليه حراماً

وكان بشّار الأعمى يرتع، فبلغ امرأته ذلك، فعاتبته مراراً فحلف لها. وإنّها سألت عن المكان الذي يمضي إليه فدلت على امرأةٍ تجمع بين النساء وبين الرّجال، فبذلت لها شيئاً وسألته إذا جاءها بشّار أن تبعث إليها. ففعلت، وقالت: أبشّار قد وقعت اليوم امرأة من أجمل النساء ووصفتها له فطرب إليها، فلمّا خلا بها وخالطها ضربت بيديها في لحيته وشمته، وقالت: أين إيمانك الفاجرة؟ فقال لها: لعنك الله ألا تركتني حتّى أقضي حاجتي، فوالله ما رأيت أبرد منك حاللاً، ولا أطيب منك حراماً! !

زوجة الرّشيد ومخارق

قال إسحاق بن إبراهيم: كان مخارق يهوى البهار جارية أمّ جعفر وشغف بها حتّى أفضى غايته في حبّها. فبينما هو منصرفٌ ذات ليلة من دار المأمون في دجلة، وقد عمل الشّراب فيه، وأمّ جعفر جالسة في دارها على دجلة إذ رفع عقيرته يغتني شعر عباس بن الأحنف:

إن بمنعوني مرّي قرب داركم، فسوف أنظر من بعد إلى الدار.
ما ضرّ جيرانكم، والله يكلؤهم، لولا شقائي إقبالي وإدباري
لا يقدرّون على منعي، وإن جهدوا إذا مررت، وتسليمي بإجهاري.

فسمعت أمّ جعفر صوته فأمرت خدامها فصاحوا بملاحة فقدم وصعد إليها، فدعت له بكرسيّ وصينيّة
فيها نبيذ فشرّب، وخلعت عليه وقالت لجواريها: أضرّين معه. فكان أوّل ما تغنّى به:

أغيب عنك بودّ لا يغيره نأي المحلّ ولا صرف من الزّمن
فإن أعشّ فلعلّ الدهر يجمعنا وإن أمت فبطول الشّوق والحزن
قد حسّن في عينيّ ما صنعت حتّى أرى حسناً ما ليس بالحسن

قال، فاندفعت البهار تباريه في الصّوت وتغنّى:

تعتلّ بالشّغل عنّا لا تكلمنا والشّغل للقلب ليس الشّغل للبدن

فضحكت أمّ جعفر، وقالت، ما رأيت ولا سمعت قط بأحسن من هذا. ووهبت له الجارية فأخذها
وانصرف.

أخذ الجارية والعتيذة والدنانير

قال إبراهيم بن الخطيب: حدّثني مخارق قال: كنت عند الرّشيد فلما أراد الانصراف قال لي: يا مخارق
بكرّ عليّ. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. فلما أصبحت بكرّرت أريد ما ذكره، فإذا جارية راكبة وهي
أحسن النّاس عينين في التّقاب، فنظرت إليها، ونظرت إليّ، فلم أملك نفسي وتعشّقتها وتبعتها حتّى
دخلت منزل المعبدي الهاشمي، فقلت لغلماني: إذا كان المغرب فصيروا إليّ، فإذا كنت في الدّنيا خرجت
إليكم، وإذا كنت متّ فقد قضيت وطراً. قال: واقتحمت ودخلت الدّار، فإذا جماعة مجتمعون وقد
أحضروا طعاماً فأكلت معهم، وأحضر الشّراب، وغنّت الجارية فإذا هي أحذق النّاس وأطيبهم، فغنّيت،
فقال المعبدي: ما أحسنه وأبهاه، فمن هو؟ فقال له القوم: ما نعرفه. فقال: ما أظرف هذا يدخل منزلي
بغير أمري أبغوا إليّ صاحب الشّربة. وكلّ ذلك بمسمعي، قالت الجارية: يا مولاي لا تفعل، لعلّ له
عذراً. فبحياتي هب لي جرمه فقد رحمته، وأحسب أنّ هذه صناعته. قال: فطابت نفسي فلما خرجت
قال لي: يا فتى تغنّي؟ فقلت: نعم. فغنّيت، فطرب القوم وقال المعبدي: إن كان في الدّنيا مخارق فأنت
هو! قلت: نعم أنا مخارق وحدّثته حديثي والسّبب في دخول منزله، فسرّ وفرح ودعا بدواة وقرطاسٍ
وأقبل يكتب ويعود إليه الجواب، ثمّ وزن مالاّ ووجه به.

فلما كان بالعشيّ قال: يا غلام هات تلك العتيدة. فأحضر عتيدةً مملوءةً طيباً، وقال: هات ذلك التّخت. فأحضره إياه، فقال: أتدري ما نحن فيه: قلت: لا. قال: قد اشتريت لك الجارية بأربعين ألف دينار، وهذه عتيدةٌ فيها طيب، وتخت ثياب. فأخذت بيدها وانصرفت بها عروساً، فلما أصبحت بكرت على الرّشيد فقال لي: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ فحدّثته الحديث فسرّ به، وقال: ما توهمت أنّ في أهلي مثل هذا. وأمر من ساعته أن يحمل إليه أربعون ألف دينار.

أخذ الجارية لشعره وأدبه

وكان ليوسف بن القاسم، وهو أبو أحمد بن يوسف، وزير المأمون، غلامٌ أسودٌ متأدّبٌ نشأ في الأعراب فهوى جاريةً لرجلٍ قرشيٍّ، فشكاه القرشيّ لمولاه، فضربه وحبسه، وحلف أن لا يطلقه إلاّ بعد شفاعة من شكاه، فقبل له: ويحك أتحبك كما تحبها؟ فقال:

تجلد أحياناً وما بي من تجلد

كلانا سواء في الهوى غير أنّها

جنوني عليها حين أنهي وأوعد

تخاف وعيد الكاشحين وإنّما

فبلغ مولاه شعره فقال: وإنّ فيه لهذا الفضل! فركب من وقته إلى القرشيّ فقال له: أسألك أن تبيني هذه الجارية بأيّ ثمنٍ شئت. فقال: ما أفعل حتّى أعرف السّبب في ذلك. فعرفه الخبر وأنشده البيتين، فقال: أشهدك إنّي قد وهبت له الجارية، وأنا أعطي الله عهداً أن أخذت لها ثمناً أبداً، لشفاعتك وأدب الغلام. ووجّه الجارية معه فدفعها إلى الغلام.

المتوكّل يعيش همّ المحبّين

قالوا كان المتوكّل جالساً يوماً في القصر الذي يقال له المختار إذ مرّ خادمٌ أسودٌ لفتيحة مبادراً يريد الدّخول إلى دار النّساء، فسقط منه كتابٌ محتومٌ، فأمر من جاءه بالكتاب وفتحه فإذا فيه مكتوبٌ:

أكثرني الحو في الكتاب ومّه بريق اللسان لا بالبنان

ك العذاب المفلجات الحسان

وأمرني الختام فوق ثنايا

فيه محوٌ لطعته بلساني

إنّي كلّما مررت بحرفٍ

أهديت لي وما برحت مكاني

فأراها تقبيلة من بعيدٍ

فقال: يا فتاح ما ترى؟ لقد اجترأ لي من كتب هذا الشّعرا! عليّ بالخادم. فأتي به، وقد علم الخادم إنّ الكتاب سقط منه فطار عقله خوفاً ورعباً، فقال له: من دفع هذا الكتاب إليك وأنت آمن؟ فإن صدقت نجوت، وإن لم تصدق ضربت عنقك. قال: يا مولاي إنّ لمولاتي فتيحة وكيلاً يتصرّف في أمرها من أبناء

البرامكة وهو يحبّ جاريتها نسيم الكاتبة، وأنا أسعى بينهما بالكتب التي يتكاتبان بها. فقال له: امض بلا خوف عليك. ثمّ قام المتوكّل فدخل على فتيحة وقال لها خذي في أمر جاريتك نسيم الكاتبة فيأتي قد زوجتها من فلان وكيلا وأنقذت عنه عشرة آلاف درهم. وأمر بإحضار الوكيل فقال له: هل لك في نسيم؟ فذهب عقله، وطار قلبه، وخاف خوفاً شديداً، فقال له: تكلم وأنت آمن، فقد زوجتك بها، ومهرتها عشرة آلاف درهم وأمرت لا بعشرة آلاف تو لم بها. وسأل فتيحة تعجيل زفافها إليه ففعلت.

خدعها القواد

وحكى الهيثم بن عدي، عن ابن عباس، قال: كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية تحت عبد الملك بن مروان، وكان يجد بها ويحبّها حباً شديداً، فغضبت عليه، فطلب رضاها بكلّ أمرٍ، فأبت حتّى أضرب به ذلك وشكا إلى خاصّته. فقال له عمر بن الأسدي: ما لي إن أرضيتها؟ قال له: حكمك. قال، فخرج فأتاها وجلس بين يديها يبكي. فقال له حاضنتها: ما لك يا أبا حفص؟ قال: لقد جئت إلى بنت عمّي في أمرٍ مهمّ عظيم، فاستأذني لعلها تقضي حاجتي. فقالت: ما بالك؟ فقال لها: قد عرفت حالي مع أمير المؤمنين عبد الملك، ولم يكن لي غير ابنين، فتعدّى أحدهما على الآخر فقتله. فقلت: أنا وليّ الدّم وقد عفوت. فقال أمير المؤمنين: ما أحبّ أن أعوّد رعيّتي هذا. وهو قتله بالغداة فنشدتك الله ألا كلمته فيه، وسألته في إبقائه لي، فأنتك تجمعين في ذلك إحياء وإحياء نفسي. فأنته إن قتله قتلت نفسي. فقالت: ما أكلمه. فقال لها: ما أظنّك تكسبين شيئاً أحبّ من إحياء نفسين. . . وبكى بكاءً شديداً فلم يزل بها صواحبتها وخدمها وحاشيتها حتّى قالت: عليّ بثيابي. فلبست، وكان بينها وبينه بابٌ قد ردمته. فأمرت بفتحه ثمّ دخلت. فأقبل أحد الغلمان فقال: يا أمير المؤمنين هذه عاتكة. قال: ويلك رأيتها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. وإذا هي قد أقبلت وعبد الملك على سريره. فسلمت، فسكت، فقالت: أمّا والله لولا مكان عمر ابن بلال ما فعلت، ولا أتيتك والله. إن عدا أحد بنيه على الآخر فقتله، وهو الوليّ وقد عفا عنه، لتقتله؟ قال: أي والله، وهو راغم. قالت: أنشدك الله أن لا تفعل. فدنّت فأخذت بيده، فأعرض عنها، فأخذت أرجله فقبّلتها، فأكبّ عليها وضمّها إلى نفسه ورفعها إلى سريره، وقال: قد عفوت عنه. فتراضيا.

وراح عبد الملك فجلس مجلس الخاصّة، فدخل عمر بن بلال، فقال: يا أبا حفص أظنّت الحيلة في القيادة فلك حكمك! فقال: يا أمير المؤمنين، ألف دينارٍ ومزرعة بما فيها من الرقيق والآلة. قال: هي لك. قال:

ومرابض لولدي وأهل بيتي. قال: وذلك كله لك. . . وبلغ عاتكة الخبر فقالت: ويلي على القواد خدعني.

حسب الاتفاق بعد حين

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان، رحمه الله، رأى، كاتباً له يكلم جاريةً لامرأته فاختت بنت قريظة، في بعض طرق داره، فقال له: أتخبها؟ قال: أي والله، يا أمير المؤمنين. قال: أخطبها من فاختة. فخطبها. وكلم معاوية فاختة فأجابته، فزوجهها منه، فدخل معاوية وبين يديه عتيذة من العطر لعرس جارتها، فقال: هوّني عليك يا بنت قريظة، إني أحسب الاتفاق كان بعد حين.

يغلبن الكرام ويغلبهنّ اللئام

قال عمر بن شبة: كان الأحنف بن قيس يوماً جالساً مع معاوية، إذ مرّت بهما وصيفة فدخلت بيتاً من البيوت، فقال معاوية: يا أبا بحر، أنا والله أحبّ هذه الجارية وقد أمكنتني منها لولا الحياء من مكانك. فقال الأحنف: فأنا أقوم. بل تجلس لئلا تستريب بنا فاطمة. فقال الأحنف: شأنك. فقام معاوية إليها. فبينما هو يماجنها إذ خرجت بنت قريظة فقالت للأحنف: يا قواد، أين الفاسق. فأوماً الأحنف إلى البيت الذي هو فيه، فأخرجته ولحيته في يدها، فقال لها الأحنف: أرفقي بأسيرك، رحمك الله. فقالت: يا قواد، وتتكلم أيضاً؟ فقال معاوية: يغلبن الكرام ويغلبهنّ اللئام.

ثقبها ثقب اللؤلؤ

قال ابن شبة: كانت بالمدينة امرأة يُقال لها صهباء، من أحسن الناس: وكانت من هذيل. وكانت رتقاء. فتزوجها ابن عمّ لها. فمكث حيناً لا يقدر عليها لشدة ارتفاقها، فأبغضته بغضاً شديداً، فطلبت منه الطلاق فطلقها. ثمّ إنّه أصاب أهل المدينة مطراً شديداً، في الخريف، وسيلٌ عظيمٌ. فخرج أهل المدينة، وخرجت صهباء مع أهلها، وخرج ابن جحشٍ وأصحابٌ له للترهة. فلما انتصف النهار وخلا الوادي، خرجت صهباء واستنقعت في السيل، وخرج ابن جحشٍ ولم تشعر به صهباء، فرآها وأحبّها وتمالك عليها.

وكان بالمدينة دلالة على النساء يُقال لها قطبة. وكانت تداخل القرشيين بنسائهم: فلقبها ابن جحشٍ فسألها عن صهباء فقال: اخطبها عليّ. قالت: قد خطبها عيسى بن طلحة بن عبيد الله، وأنعم له بها

أهلها ولا أراهم يتخطون عيسى إليك . فشتها ابن جحش وقال: كلّ مملوكٍ لي حرٌّ لوجه الله إن تحتالي فيها حتى أتزوجها، لأضربك ضربةً بالسيف - وكان مقدماً جسوراً - ففزعت منه فدخلت على صهباء وأهلها، فتحدثت معهم، ثم ذكرت ابن عمّها، فقال لعمّة صهباء: ما باله فارقتها؟ فأخبرتها خبره فأصغت إلى عمّتها فقالت لها، وأسمنت صهباء: أمّا والله لو كان ابن جحشٍ لنقبها نقب اللؤلؤة. ثم خرجت من عندهم.

فأرسلت إليها صهباء أن مري ابن جحشٍ فليخطبني. فلقيت قطبة ابن جحشٍ فأخبرته الخبر. فخطبها، فأنعمت له، وأبى أهلها إلا عيسى بن طلحة. وأتت صهباء إلى ابن جحشٍ فتزوجها وأقتضها من ساعته. وفيها يقول:

دار الصّهباء الذي لا ينتهي
عن ذكرها أبداً ولا ينهها
صفراء يطوبها الضّجيج لطافةً
طيّ الجمانة ليّناً مشاهها
نعم الضّجيج إذا التّجوم تغوّرت
بالقرب أحرأها على أولأها.

ألحقوا النّساء بأكفأهنّ

قالوا: كان رجلٌ من تجّار أهل المدينة من ذوي التّعمة، في ليلةٍ من شهر رمضان، في المسجد يصلي إذ عرض له في منزله بعض الأمر. فانصرف من التّراويح فأصاب بابه مفتوحاً، وإذا رجلٌ مع ابنته في محلّها يحدثها. فأخذ بيده وذهب به إلى منزل ابن أبي عتيق. فدقّ عليه، فأشرف عليه، فقال: أردت أن أكلمك، جعلت فداك. قال، فانحدر إليه فقال له: إن هذا الفتى وجدته في منزلي على حال كذا. فسألته فزعم أنّه ابنك. فأقبل ابن عتيق فأخذ بيد التّاجر فشكره وجزاه خيراً، وقال: لن يعود إلى شيءٍ تكرهه أبداً إن شاء الله. فأخذ الفتى ولكره وشتمه. فلمّا ولى الرّجل قال للفتى: من أنت ويلك؟ أنا ابن فلان التّاجر وابتليت بابتنة هذا التّاجر فدخلت عليها هذه الليلة أتحدّث عندها. فما راعني إلا أنّه واقفٌ على رأسي. فلم أجد ملجأً إلا أن اعتزيت إليك، لما علمت من قدرك وشرفك وكرمك. قال: أخبرني عن الجارية، أتحبّك؟ قال: نعم. قال: فهل يمكنك أن تأتي بما إلى منزلي هذا؟ قال: نعم. قال: فعدها وأت بها. وأمر غلاماً له، وقال: إذا جاءت المرأة التي يأتيك بها هذا الفتى فأدخلها، واجلس أنت مع الفتى، وأرسل إليّ من يعلمني. ففعل الفتى، وأتى بالجارية إلى المكان. وأرسل إلى ابن أبي عتيق فعرفه. فأرسل إلى أبي الجارية: إنك اصطنعت إلى فتانا يداً، وقد أحببنا أن نصنع إليك مثل ذلك في فتاتكم.

فأدخله عليها، فلمّا رآها استرجع، فقال له ابن أبي عتيق: ما هذا؟ أهون عليك هذا الأمر وأقبل وصيّة رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، حين قال: " ألحقوا النّساء بأكفأهنّ ". إن هذا الفتى ليس والله بولدي،

ولكن هو قد انتسب إليّ لما أدرك من التّجاة منك، وهو فلان ابن فلان التّاجر، وهو من نظرائها وأكفائها. فهل لك أن تزوّجه إياها وأصدقها عنه من مالي مائة دينار. قال: نعم. ولم يبرحوا حتّى زوّجها منه وأصدقها وأخرج المهر من عنده، وسأله التّعجيل بزفافها إليه.

أحييت نفسي بقتل نفسك

وحكي عن ابن أبي ورقاء الجبلي قال: خرجت من الكوفة أريد بغداد. فلما صرت بأوّل مرحلة نزل غلماننا ففرشوا بسطهم، وهَيّأوا عداؤهم، ونزلت. ولم يجر أحدٌ بعد. فرمانا الطّريق برجلٍ حسن الهيئة، فاره البرذون فصمت بالغلما. فأخذوا دابّته. ودعوت بالغداء فبسط يده غير محتشمٍ. وجعلت لا أكرمه بشيءٍ إلّا قبله. وكنا كذلك ساعة، إذ جاء غلماناه. ثمّ تناسبنا فقال الرّجل: أتا طريح بن إسماعيل التّفقي. فلما ارتحلنا كنّا كذلك في قافلةٍ لا تدرك طرقها. فقال لي طريح: ما حاجتنا إلى زحمة النّاس، وليست بنا إليهم وحشة ولا مخافة. فتأخّر بنا بعد القوم. فترلنا إلى جانب نهرٍ مظللٍ بالشّجر فتغدّينا ثمّ قمنا إلى النّهر نستنقع فيه. فلما نزع ثيابه إذ آثار داهيةٍ في جنبه يلح فيها الكف، فوقع في نفسي منه شيءٌ، فنظر إليّ وفطن وتبسّم، وقال لي: قد رأيت عجباً منك لما رأيت ما بي وأنا أحدثك حديثه إذا سرنا العشيّة.

فلمّ ركبنا قلت له: الحديث؟ قال: نعم، قدمت من عند الوليد بن يزيد بالدّنيا وما فيها، وركبت إلى يوسف بن عمر، مع قرابتي منه، فملاً يدي. فخرجت من عنده إلى الطّائف. فلما اشتدّ بي الطّريق، وليس يصحبي فيه خلق، عنّ لي أعرابيٌّ على قعودٍ له، وهو حسن الحديث قد روى الشّعر، وأنشدني لنفسه. فقلت له: من أين أقبلت؟ قال: لا أدري والله. قلت: فيلّى أين يّمت؟ قال: لا أدري والله. قال، فقلت: ما قصّتك؟ فقال: أنا عاشقٌ بجزاريةٍ من قومي، قد أفسدت عيشتي وتلفت، فأنا أستريح بأن أنحدر في الطّريق مع منحدره، وأصعد مع مصعديه. قال، فقلت له: وأين هي؟ قال: غداً تترل بإزائها. وأخذ يحدّثني بحديثه معها.

فلمّ جئنا إلى الموضع قال لي: انزل ذلك المكان فإنّها عنده منقطعةٌ. فأدركتني أريحيةٌ الحداثة، وأخذت منه علامة ما بينهما، وقصدت حيث أشار إلي. فإذا بيتٌ جديدٌ على الطّريق، وإذا امرأةٌ جميلةٌ حديثهٌ ظريفةٌ. فذكرته لها ووريت رسالته وأمارته. فزفرت زفرةً كادت تتفتت أضلاعها، وقالت: أو حيٌّ هو؟ قلت: نعم تركته في رحلي وراء هذا الجبل ونحن بايتون ومصطحبون قالت: فيأتي أرى لك وجهاً يدلّ على الخير، فهل لك في الأجر؟ فقلت: فقيرٌ إليه. قالت: فالبس ثيابي وادخل في أريكتي ودعني حتّى آتبه. فيأتك تحيي نفسي، وتغنم أجراً عظيماً. قلت: أفعل ما تريدن. قالت: إنك إذا أصبحت أذاك زوجي في هجعته

فقال يا فاجرة، فأوسعك شتماً، فأوسعته صمتاً ولا تجعل إنك سمعته فإن يقول في آخر كلامه: اقمعي سقاك يا عدوة. فضع المقمع في ذلك السقاء الأخر فإنه منخرق. قال: ومضت. فجاء زوجها ففعل ما قالت. وقال إقمعي سقاك فحبيبي الله أن تركت الصّحيح وقمعت الواهي، فما شعر إلا واللبن يتسبب بين رجلية. فعدا إلى زاوية البيت فتناول حبلاً ثمّ ثناه على اثنين فصار على ثمان، فجعل لا يتقي بع رأساً ولا وجهاً ولا جنباً فخشيت أن يبدو له وجهي فألزمته الأرض، فعمل بجني وظهري ما ترى، ومضى عني. فلم كان الصّباح جاءت فرأت ما حلّ بي من الشرّ فأكبّت عليّ وقالت: بأبي أحييت نفسي بقتل نفسك. ودخلت تعتذر وتلهّف لما بي، وتدعو لي وتتضرّع. فأخذت ثيابي وانصرفت ولا يعدل ظفرهما عندي شيء.

طلق لبني وزوجها لقيس

قد قدمنا في أخبار قيس بن ذريح كيف كان سبب تطليقه لبني وندمه عليها ثمّ ساءت حاله، ولف عقله، واشتدّ مرضه، وأشرف على حتفه. فقال أهله: لو زوجتموها إياه ليئس منها، وسلا عنها. فخطبها رجل من قريش وحكم أباه في المهر. فزوجه إياها، فحملها معه إلى المدينة. فقال قيس:

وقالوا تراها فتنة كنت قبلها	بخير، فلا تندم عليها وطلق
فليت، وبيت الله، أني عصيتهم	فأنبت في رضوانها كلّ مونق
وكلفت حوض النار سبعين حجة	وكنت على أثباح بحر مغرق
كأنني أرى الناس المقيمين بعدها	نقاعة ماء الحنظل المتغلف
وتكره عيني بعدها كلّ منظر	ويكره سمعي بعدها كلّ منطق .

قال: وخرج أبي عتيق يريد العمرة. فترل بحيّ قيس بن ذريح فسألهم عنه، فقال: دلوني عليه. فدلّوه فلمّا رآه قيس أقبل عليه ورحب به وقال: من أنت، حيّك الله وعافاك؟ قال، فانتسب له ابن عتيق وقال له: بين حديثك لي تجدني معيناً لك على أمرك إن شاء الله. فاستحى قيس من ذلك وامتنع ساعة، ثمّ جعل يحدثه حتّى بلغ إلى خبر القرشي. فقال: يا هذا، إنّي خرجت من منزلي أريد العمرة التماساً للثواب. وقد عزمت، عندما سمعت، أن أترك ما خرجت إليه فارجع معك احتساباً للأجر، فبكر فامض معي أيها الرّجل، وأكتم شأنك، ولا يعلم أحدٌ من أهلك. فحمله معه وأقبل راجعاً نحو المدينة فاستقبله أهله وإخوانه يسألونه عن سبب رجوعه. فجعل يعتذر وهو يقول لهم: عاقني عن ذلك عائقٌ. وأخفى قيساً في منزله أياماً ثمّ سأل عن منزل القرشي فدلّ عليه. فبعث مولاة له عجوزاً إلى لبني تخبرها بقيس وبما صار له

من عشقها. فقالت: يعزّ عليّ، وما حيلتي له. أطاع أباه وفارقني في غير جرمٍ. وقد صرت الآن عند غير هولا سبيل لي على نفسي. وإنّ كبدي عليه لحرّاء، وإنّ عيني لغبرا مذ فارقته وإنّها لما علمت بمكانه إشتدّ ولها حتّى أنكر زوجها شأنها فسألها عن خبرها وهل رأت شيئاً تنكره. فجعلت لا تجيب جواباً. وجعل يعتذر إليها، فقال لها: ما أراك إلاّ ذكرت قيساً. فقالت له: هيهات وأين أنا من قيس، وأين قيس منّي؟ أله عن هذا الحديث.

قال: وبلغت العجوز ابن أبي عتيق ما سمعت من لبي ففقال لها: عودي إليها فقولي لها: إن كنت على العهد فإنّك ستصلين إلى ما تريدين. قالت: أي والله لا أزال على عهده مقيمةً أو يفارق روحي جسدي؛ ولا أكافئه بسوء فعل كان منه إليّ.

قال: وأقبل ابن أبي عتيق ومعه جماعة من أشرف قريشٍ وغيرهم حتّى أتوا منزل القرشي زوج لبي فأكبر مجيئهم. فقالوا: إنّنا جنناك في حاجةٍ ولا سبيل إلى ردّها عنها. قال لهم: قضيت حاجتكم. قال ابن عتيق: كائنة ما كانت؟ قال له: نعم. قال فإنّ حاجتنا أن تجعل أمر لبي في يدي. قال القرشي: وهل رأيت أحداً سأل مثل هذا؟ قال: فهي حاجتنا، وقد جئت إليها. قال: فإنّي قد فعلت. قال: فيشهدون عليك أنّ أمرها في يدي. قال: نعم. قال ابن عتيق: فأشهدوا إنّها طالقٌ ثلاثاً. قال: قد أجزت: قال: فما برحوا حتّى نقلها ابن أبي عتيق إلى منزله. فلمّا انقضت عدتها زوجها من قيس وأصدق عنه وجّهها بأحسن جهاز، وحملها معه إلى منزله. فما لبثت عنده إلاّ يسيراً حتّى نهشته الأفعى كما قدّمنا في حديثه فمات وماتت بعد. هكذا رواه أحمد بن أبي طاهر. ولست أدري صحّة هذا الحديث، لأنّنا كنّا قدّمنا في حديثه ما يخالف هذا من أنّه لم يتزوَّج بها ثانياً.

مكر به في امرأته

حكى الهيثم بن عدي، عن الكلبي قال: كان ملك التّعمان بن المنذر أربعين سنةً لم ير منه في ملكه سقطةً غير هذه: وذلك أنّه ركب يوماً فنظر إلى امرأةٍ خارجةٍ من الكنيسة فأعجبه جمالها وحسنها وهيئتها فقال: علي بعدي بن زيد، وكان كاتبه وخاصّته فقال له: يا عدي، قد رأيت امرأةً لئن لم أظفر بها إنّها هو الموت. فلا بدّ في أن تتلطّف في الجميع بيبي وبينها. قال: ومن هي؟ قال: قد سألت عنها فقيل لي امرأةٌ حكم بن عوف، رجلٌ من أشرف أهل الحيرة. قال: فهل أعلمت بذلك أحداً؟ قال: لا فاكتمه، فإذا أصبحت فجد بكلّ كرامةٍ لتريك، يريد حكم بن عوف.

فلمّا أذن للنّاس بدأ به وأكرمه وأجلسه معه على سريره. فأعجب النّاس حاله، وتحدّثوا به. فلمّا أمسى فأذن للنّاس بدأ به فأكرمه وأجلسه معه وكساه وجمّله. ففعل به ذلك أيّاماً. ثمّ قال له عدي: أيّها الملك

عندك عشر نسوة فطلّق أقلهنّ عنك منزلةً ثمّ قل له فليتزوّجها. ففعل. فلمّا دخل عليه قال له: يا حكم
إني قد طلّقت فلانةً لك فتزوّجها. فقال حكم لعدي: ما صنع الملك بأحد ما صنع بي ولا أدري بما
أكافئه؟ فقال له عدي طلق امرأتك كما طلق امرأته. ففعل. وحظي عدي بما عند الملك: وعلم الرّجل أنّه
مكر به في امرأته. وفيها يقول بعض أهل الحيرة:

إلاّ التي أخذ التّعمان من حكم

ما في البريّة من أنثى تعادلها

ريّا وعمرو وبساط النّوم

وحدّث الزبير: إنّ كان فتىً من بني عذرة يقال له عمرو بن عود، وكان عاشقاً لجارية من قومه تسمّى
ريّا بنت الرّكين. فتزوّجها رجلٌ منهم يقال له دهيم. فأبت ريّا إلاّ حبّ عمرو بن عود، وأبى إلاّ حبّها
وقول الشّعْر فيها، والوجد بها حتّى أتى اليمن فتزل في بني الحارث بن كعب فطلبها عمرو، فخفي عليه
أمرها ولم يعلم لها خبراً ولا موضعاً. فمكث حيناً لما به، يبكي له من عرفه، لولفه وشدة ما أصابه. فخرج
به أهله إلى مكة لعلّه يتعلّق بأستار الكعبة عسى أن يرحمه ربّه ويذهب ما في قلبه من حبّها.
فلمّا كان بمنى نظر إليه فتىً من بني الحرث بن كعب فتعجّب ممّا به، وجلس يتحدّث معه، وسأله عن حاله
فشكا إليه عمرو وجده بها، وأنشد ما قال فيها، فرقّ له الفتى ورحمه. وسأله عن صفتها وصفة زوجها.
فوصفها له. فقال له الفتى: عندي خبر هذه المرأة وهذا الرّجل منذ سنسن قليلة فخرّ عمرو ساجداً ثمّ سأله
عن حالها، فأخبره أنّها سالمةٌ وأنّها باكيةٌ لا يهينها شيءٌ من العيش. قال عمرو: فهل لك في صنيعه
عندي؟ فقال له الفتى: إذن افعل ما بدا لك. قال: تتخلّف عن أصحابك، وأتخلّف عن أصحابي حتّى لا
يكون عند أحدٍ منهم علم. ثمّ أمضي معك متنكراً حتّى تخفي في موضعٍ؛ ثمّ تعلمها بمكاني. فقال الفتى:
لك ذلك في عنقي.

فلمّا كان السّفْر، تخلّف كلّ واحدٍ منهما عن أصحابه. فجهد أصحاب عمرو أن لا يتخلّف وأن يمضوا
به فأبى عليهم فودّعوه ومضوا. ثمّ مضيا حتّى وصل به الفتى فأدخله مع أخته وامرأته في سترهما. ومضى
إلى ريّا فأخبرها. فكانت تجيء إليه كلّ يوم فيشكوان ما كانا فيه من البلاء، ويتحدّثان. فاستراب زوجها
غشياً ذلك البيت. ولم تكن تغشاه ولا تعرف أهله، واستراب أيضاً تطيب نفسها وأنّها ليست كما
كانت.

وخرجت رفقةً له إلى حرّان فأخبرها أنّه خارجٌ معها. فخرج وأقام ليلتين مختفياً في موضع. وأقبل راجعاً
في الليلة الثالثة، وقد أمّناه وظنّاً أنّه قد خرج، فأتى عمرو إلى ريّا فبسطت له بساطاً قدام البيت وتحدّثا

حتى غلبهما التوم، وهي مضطجعةٌ إلى جانب البساط وعمرو إلى الجانب الآخر. وأقبل الرجل حتى وجدهما على تلك الحال. فنظر في وجه عمرو، فانتبه فزعاً. فقال له: ويلك يا عمرو، وما ينجي منك برٌ ولا بحرٌ! فقال: يا ابن عمي، ما أنا والله على ريةٍ، ولا يسألني الله عن أهلك عن قبيحٍ؛ ولكن نشأت أنا وهي وألفتها ونحن صبيان، ولست أستطيع عنها صبراً، وما بيننا أكثر من هذا الحديث الذي ترى. قال: أما أنا فلم أهرب إلى هذا البلد إلا منك. فانصرفنا راجعين وهي معهما حتى قدما على وطنهما، فأقاما بعده بيسير.

مواعيد بثينة وجميل

حكى سنة بن عقال، عن الشعبي قال: حدثني رجلٌ من بني أسدٍ، قال: إني لذات يومٍ في الحيِّ إذ أقبل فتىً نظيف الثوب، حسن الوجه، حتى وقف بي، فقال: يا فتى، هل نزا بك حيٌّ من بني عذرة؟ قال، قلت: نعم، وتيك بيوتهم. قال: وهل أحسست لي بكرةً صفتها كذا وكذا؟ قال، قلت: لا. فتزل ثم قال: أنت منشدها لي في أبيات الحي؟ قال فخرجت وأنا أنشدها حتى مررت بالبيوت وأنا أنشد. فقالت لي جاريةٌ: عند الأكمة. فأشرفت على الأكمة فلم أر شيئاً فأخبرته، فأخرج سفرتهً معه ودعاني فأكلنا، ثم نام. وجعلت أراعيه حتى ظنّ أنني قد نمت. فأخرج من رحله فلبسها، ثم اشتمل على سيفه وخرج حتى أتى الأكمة وأنا أتبعه من حيث لا يراني. فإذا بها قاعدةٌ كأنها مهرةٌ عربيةٌ. فسلم عليها وسلمت عليه ثم قال لها: يا بثينة قلت فيك كذا. ولقيت فيك كذا.

ولك يزل يحدثها وينشدها، وتحذته حتى إذا كان في السحر وضع رأسه في حجرها فنام ساعة. فلم يشعر إلا بالفجر قد برق. فقالت: قم يا جميل، لا يفضحنا الصبح.

قال: فرجعت مبادراً حتى رميت بنفسي في الرّحل. وجاء فأيقظني، ثم عمل إلى ثوبٍ من ثيابه فكسانيه، فلم يزل جميل يغشاني في كلِّ نهارٍ وليلٍ، فأطير إلى الحيِّ وآتية فأخذ ميعاد بثينة إلى موضعٍ يجتمعان فيه ويتحدثان إلى أن فطن بعض الحيِّ بأمرى. فقالت لي بثينة. أنج بنفسك، فإن الحيِّ قد شعروا بك، وقل لجميل موعدك وسكن البطن. وآتية فأخبرته، فمضى وانقطع عني خبره

دخل وأجبر على تركها

وروي عن يحيى بن خالد بن برمك قال: كنت أهوى جاريتي دنانير، وهي لمولاتها زهراء، فلما وضع المهدي الرشيد في حجري اشتريتها؛ فلم أسرّ بشيءٍ من الدنيا مثل سروري بها وملكها، فما لبثت إلا

يسيراً حتى وجه المهدي ابنه الرشيد غازياً إلى بلد الروم، فخرجت معه، فعظم على فراقها، فأقبلت لا أهتأ بطعان ولا شراب صبايةً بها وذكرًا لها. فأنا ليلةً في مضربي، وقد أصابني بردٌ شديدٌ وثلجٌ كثيرٌ، وأنا أتقلب على فراشي أذكر الجارية، إذ سمعت غناءً خفياً وصوت عودٍ بالقرب مني. فأنكرت ذلك وجلست على فراشي فأشجاني الصوت من غير أن أفهم حتى أبكاني. فقامت، ولم أوقظ أحداً من العسكر، حتى انتهيت إلى خيمة صغيرة من خيام الجند، فإذا فيها سراجٌ، فدنوت منها، فإذا فتى جالسٌ، وإذا بين يديه ركوة فيها شرابٌ وفي حجره عودٌ يضرب عليه ويتغنى بهذا الصوت:

ألا يا لقموي أطلقوا غلّ مرهقن
ومتوا على مستشعر الهمم والحزن .
ألم ترها بيضاء، روداً شباها
لطيفةً طيّ البطن كالشادن الأغن

قال: فكلما غنى بيتاً بكى وتناول قدحاً فصبّ فيه من ذلك الشراب، وشرب، ثم يعود إلى مثل ذلك. قال: فأقامت طويلاً أرى ما يفعل وأبكي لبكائه، ثم سلّمت فردّ السلام، واستأذنت فأذن لي فدخلت، فلما رأني أحلّني وأوسع لي. فقلت: يا فتى خبرني بخبرك، وما أنت فيه، وما سبب هذا البكاء؟ قال: أنا فتى من الأبناء، لي ابنة عمّ قد نشأنا جميعاً فعلقتها وعلقني، ثم بلغنا فحجبت عني، فسألت عمي ليزوجنيها فأجاب، فمكثت حيناً أحتال لمهرها حتى هبياً فأذيت، فدخلت بها، فلما أن كان يوم سابعتها ضرب عليّ البعث وخرجت وبي من الشوق إليها ما لا أحده، فحملت معي هذا العود، فإذا أصبت شراباً في بعض هذا القرى أخذت منه شيئاً، ثم أفعل ما ترى تذكّاراً إليها.

فقلت: فهل تعرفني؟ فأنكرني، فما أدري أتعمداً أم حقيقةً. قال، فقلت له: أنا يحيى بن خالد، فلما قلت له ذلك هُض قائماً. فقلت: اجلس، فإذا كان غداً فألقني، فهذا مضربي بالقرب منك، فأني أصير منك إلى ما تحب.

قال: ووافق ذلك رسولاً قد هبّأناه إلى المدينة، فما كان أسرع شيءٍ حتى دنا الصبح وهبياً الناس للرّحيل، فأول من لقيني ذلك الفتى، فأثبت وجهه وقلت له: من أنت، وفي قيادة من أنت؟ فخبّرني، فمضيت حتى دخلت على الرشيد ومعني المؤتمرات، فكنت أمرها على سمعة من عنوان يكون له فيها، فقلت وفتى من الأبناء فلان بن فلان يطلق سراحه ويعطى عشرة آلاف درهمٍ معونةً له ويصحب فلاناً الرسول. ففعل ذلك وانصرف إلى أهله.

الزنا بالجملة

وحكى إبراهيم بن إسحاق الموصلي، عن أبي السائب المخزومي قال: تعشّق العرجي امرأةً من قریش ففعلني رسولاً إليها، فأتيها برسالةٍ وأخذت موعدها لزيارته إلى موضعٍ سمّاه، ثم بكرت أنا فأنت على

أتانٍ ومعها جاريتها، وجاء على حمارٍ ومعه غلامٌ. فتحدّثنا ساعةً ثمّ قمت عنهما، فوثب عليها، ووثب الغلام على الجارية، والحمار على الأتان، وقعدت أسمع التّخير من كلّ ناحية. قال، فقال لي العرجي: يا أبا السائب، هذا يومٌ غابت عواذله، قال أبو السائب: فما لي حسبةً أرجو ثوابها رجائي لذلك اليوم وثوابه.

حلف ألا يجتمع بها ثانية

وقال: كان عمر بن أبي ربيعة يتعشّق امرأةً يقال لها أسماء، فوعده أن يزورها، فتهيأ لذلك يوماً فأبطأت عليه، فنام، فلم يلبث أن جاءت ومعها جاريةٌ، فضربت الباب فلم يستيقظ، فانصرفت وحلفت أن لا تأتيه حولاً. فقال عمر قصيدته التي أوّلها:

طال ليلى وتعناني الطرب	واعتراني طول همّ ونصب
أشهد الرّحمان لا يجمعنا	سقف بيتٍ رجباً على رجب
فبعثنا طبةً عالمةً	تخلط الجدد مراراً باللعب
ترفع الصّوت إذا لانت لها	وتراخي عند سورات الغضب
فأجابت يا فتى وابتسمت	عن منيف اللون صافٍ كالنّعب

فلما سمع ابن أبي عتيق هذه الأبيات قال له الناس في طلب إمامٍ مثل قيادتك هذه مذ قتل علي، فما يقدرون عليه.

قال حمّاد الراوية: استنشدني الوليد بن يزيد شعراً كثيراً فما استعادي إلا هذه الأبيات. وقال لي: يا حمّاد اطلب لي مثل هذه وأرسلها إلى سلمى.

كفى أخاه العذري ما أصابه

ويروى عن حمّاد قال: أتيت مكة فجلست إلى جماعةٍ في حلقةٍ فيها عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وإذا هم يتذكّرون العذريين وعشقتهم وصيانتهم، قال عمر: أحدثكم عن بعض، وذلك: أنّه كان لي خليلٌ من بني عذرة، وكان مشتهراً بحديث النساء فيتشيب بهنّ وينشد فيهنّ، على أنّه لا عاهر الخلوّة ولا سريع السّلوة وكان يوافي الموسم في كلّ سنة، فإذا أبطأ ترجمت له الأخبار وألّفت له الأشعار حتّى يقدم فيتحدّث حديث محزونٍ كئيبٍ. وإنه راث ذات سنة، حتّى قدم وفد عذرة، فأتيت القوم وأنا أنشد عن صاحبي وإذا

غلامٌ قد تنفّس الصّعداء ثمّ قال: عن أبو المسهر تسل؟ قلت نعم عنه سألت قال هيهات هيهات أصبح والله أبو المسهر لا ميؤوساً فيهمل ولا مرجوّاً فيعلل؛ لا أصبح والله كما قال الشاعر:

لعمرك ما حبّي لأسماء تاركي صحيحاً ولا أفضي به فأموت

قلت له: وما الذي به؟ قال لي: هو ميتٌ مولّه! قلت: ومن أنت يا ابن أخي؟ قال: أنا أخوه. قلت وما يمنعك أن تركبلا طريق أخيك الذي ركبه، وتسلك مسلكه. ألا إنك وأخاك كالوشى والتجّار لا ترفعه ولا يرفعك. ثمّ انصرف وأنا أقول:

أرائحة حجاج عذرة روحة ولما يرح في القوم جعد بن مهجع

خليلان نشكو ما نلاقي من الهوى متى ما يقل أسمع، وإن قال يسمع

فلا يبعدنك الله حلاً، فيأتي سألقي كما لاقيت في الحبّ مصرعي

فلمّا كان في العام الآتي وقفت في الموضع الذي كنّا نقف فيه بعرفات، فإذا شابٌ قد أقبل وقد تغيّر لونه، وساءت هيئته فما عرفته إلاّ بناقته، فأقبل حتّى اعتنقني وجعل يبكي. قلت: ما هذا وما دهاك وما غالك؟ قال برّح الغرام وطول السقام. وأخذ يشكو إليّ فقلت: يا أبا مسهر، إنّها ساعةٌ عظيمةٌ، فلو دعوت الله كنت تظفر بجاحتك. فجهل يدعو حتّى إذا بدت الشّمس للغروب وهمّ الناس أن يفيضوا، سمعته يهيمهم بشيء، فأصغيت إليه مستمعاً فجعل يقول:

يا ربّ عذوة وروحة

من محرّم بعد الضّحى واللّواعة

أنت حسيب الخطب يوم الدّوحة .

قلت: يا أخي، وما الدّوحة؟ قال سأخبرك إن شاء الله. فلمّا قضينا حجّنا وأحللنا قلت له: حدّثني بخبرك! قال: نعم، أعلمك أنّي امرؤٌ ذو مالٍ كثيرٍ من نعمٍ وشاءٍ، وإني خشيت على مالي التّلف فأتيت أحوالي فأوسعوا لي عن صدر المجلس فكنت في عزٍّ أحوالي، فخرجت يوماً إلى مالي وهو ببعض مياهمم، وركبت فرسي، وعلّقت معي شراباً أهدي إلي. فانطلقت حتّى إذا كنت بين الحيّ ومرعى النّعم رفعت لي دوحةً عظيمةً فقلت: لو نزلت تحت الشّجرة وتروّحت مبرّداً! فتزلت وشدّدت فرسي بغصنٍ من أغصانها، ثمّ جلست وقدمت شرابي، فإذا بغبارٍ قد سطع من ناحية الحيّ فبدت لي ثلاثة أشخاص، وإذا فارسٌ يطرد عزراً وأتاناً، فلمّا قرب منّي إذا عليه درعٌ أصفرٌ وعمامة خز سوداء، وإذا فروع شعره تنال كعبه. فقلت في نفسي: غلامٌ حديث السنّ راكبٌ على فرسٍ أعجلته لذّة الصّيد، فأخذ ثوب امرأته ونسي ثوبه. فما لبث أن لحق بالعتزّ فطعنه ثمّ عطف على الأتان فقتلها، ثمّ قال:

نظعنهم سلكاً ومخلوَجَةً

كرك الأَمِينِ على نائل .

فقلت له: إنَّك قد تعبت وأتعبت فرسك، فلو نزلت. فثنى رحله، وشدَّ فرسه بغصنٍ من أغصان الشَّجرة، ثمَّ أقبل حتَّى جلس قريباً مِنِّي فجعل يحدِّثني حديثاً كأنَّه الدرُّ، ذكرت به قول الشَّاعر:

وإنَّ حديثاً منك لو تبدلنيهِ

جنى النَّحل في ألبانِ عودِ مطافل

قال، فبينما هو كذلك إذ نقر بالسَّوط على ثنيته، فرأيت والله خلل السَّوط بينهما فما ملكت نفسي إن قبضت على السَّوط وقلت: أخاف أن تكسرهما فإنَّهما رقيقان. وقال: وهما مع ذلك عذبتان. قال، ثمَّ رفع عقيرته وجعل يغني:

إذا قبل الإنسان مَن يَجِبُه

ثناياه لم يَأثم وكان له أجرا

فإن زاد زاد الله في حسناته

مثاقيل يححو الله عنه بما وزرا

ثمَّ قال لي: ما هذا الذي علَّقت على سراجك؟ قلت: شرابٌ أهداه إليَّ بعض أهلي، فهل لك فيه؟ قال: وما أكره منه؟ فأتيت به فوضعت بين يديه. فلمَّا شرب منه نظرت إلى عينيه كأنَّهما عينا مهابةٍ قد أضلَّت ولداً فأذعرهما قانص. فعلم نظري فرفع عقيرته وجعل يغني:

إنَّ العيون التي في طرفها حورٌ

قتلنا ثمَّ لم يحين قتلاتنا

يصرعن ذا اللبِّ حتَّى لا حراك به

وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا.

فقلت له: من أين لك هذا الشَّعر؟ قال: وقع رجلٌ منَّا باليمامة فأنشدنيهِ.

قال: ثمَّ قمت لأصلح شيئاً من أمر فرسي، فرجعت وقد حسر العمامة عن رأسه، فإذا غلامٌ كأنَّما وجهه الشَّمس حسناً، فقلت: سبحانك اللهمَّ ما أعظم قدرتك، وأجلَّ صنعك. قال: فكيف؟ قلت له: ممَّا راعني من نورك وبهرني من جمالك. قال: وما الذي يروِّعك من رهن ترابٍ ورزقٍ دوابٍ ثمَّ لا تدري أينعم بعد ذلك أم لا؟ قلت: بل يصنع الله بك خيراً إن شاء الله.

ثمَّ أقبل على فرسه؛ فلمَّا أقبل برقت له بارقة من الدرِّع، فإذا ثديٌّ كأنَّه حقٌّ، فقلت: نشدتك الله امرأة؟ قالت: أي والله امرأةٌ تكره العهر وتحبُّ الغزل. فقلت: وأنا والله كذلك. فجلست والله تحدِّثني ما أفقد من أنسها شيئاً حتَّى مالت على الدَّوحة سكرى، فاستحسنت، والله يا ابن ربيعة، الغدر، وزين في عيني، ثمَّ إنَّ الله عصمني. فما لبثت أن انتبهت مرعوبةً، فلائت عمامتها برأسها وأخذت رمجها وجالت في متن فرسها، فقلت: زوديني منك زاداً. فأعطيتني ثوباً من ثيابها، فشمتت منه كالرَّوض المطور. ثمَّ إنِّي قلت: أين الموعد؟ فقالت: إنَّ لي أخوةً شوساً وأباً غيوراً؛ والله لأن أسرك أحبَّ إليَّ من أن أضرك.

قال، ثم مضت فكان والله آخر العهد بما إلى يومي هذا. فهي التي بلغت بي هذا المبلغ، وأحلتني هذا المحل. قلت له: والله يا أبا المسهر، والله ما كان يحسن بك الغدر إلا بك. فإذا به قد اخضلت لحيته بدموعه باكياً. فقلت: والله ما قلت هذا إلا مازحاً. ودخلتني له رقة. فلما انقضى الموسم شددت على ناقتي وشدت وحملت غلاماً لي على بعيرٍ وحملت عليه قبه آدمٍ حمراء كانت لأبي ربيعة، وأخذت معي ألف دينارٍ ومطرفاً ثم خرجنا حتى أتينا كلباً فسألناه عن الشيخ فإذا هو في نادي قومه، فسلمت فقال: وعليك السلام، من أنت؟ قلت عمر بن أبي ربيعة المخزومي. قال: المعرف غير المنكر؛ فما الذي جاء بك؟ قلت: خاطباً. قال: أنت الكفاء الذي لا يرغب عن حسبه، والرجل الذي لا يرد عن حاجته. قلت له: إني لم أتك عن نفسي، وإن كنت موضع الرغبة، ولكن أتيتكم في ابن أخيكم العذري. وقال: والله إنه لكفاء الحسب، غير إن بناقي لا يقعن إلا في هذا الحي من قريش. فعرف الجزع في نفسي وتبين له في وجهي، وقال: أنا أصنع لك شيئاً لا أصنعه لغيرك. قلت: ما هو؟ قال: أخبرها لأنك أنت تختار لغيرك. فأوماً إلي صاحبي أن أمره أن يخبرها. فقلت: افعل. ثم مضى الشيخ. وقد أتى وقال لي إنها قالت: إن الأمر أمرك والرأي للقرشي يختار لي ما رأى. فحمدت الله عز وجل وصليت على نبيه، صلى الله عليه وسلم وقلت: قد زوجت الجارية بجعد بن مهجع وأصدقته ألف دينار، وهي هذه، وجعلت كرامتها الغلام والبعير والقبة وكسوت الشيخ المطرف فقبله، وسألته أن يبي بها من ليلته، فأجابني إلى ذلك. وضربت القبة في وسط الحي وأهديت إليه ليلاً. وبت عند الشيخ خير مبيت. فلما أصبحت غدوت فقممت بباب القبة، فخرج إلي، فقلت له: كيف كنت بعدي؟ وكيف هي؟ فقال: أبديت لي كثيراً مم أخفت يوم رأيتها. فقلت: عليك أهلك، بارك الله فيهم. وانطلقت إلى أهلي وأنا أقول:

ومثلي لأنقال التائب أحمل

كفيت أخي العذري ما قد أصابه

إذا عرضت إني أقول وأفعل

أما استحسنت مني المكارم إنها

نساؤهم شرّ النساء والفرع يجري على الأصل

وحكى المدائني: أن رجلاً من بني عقيل كان يسمّى صخرًا، وكانت له ابنة عمّ تدعى ليلى، فكان بينهما حبٌّ مبرحٌ ولم يكن أحدهما يصبر عن الآخر ساعةً واحدةً، وكان لهما مكانٌ يجتمعان فيه للحديث في كل ليلة. ثم إن أبا صخرٍ زوج صخرًا لامرأة من الأزد، وصخرٌ لذلك كارّة؛ فلما بلغ ليلى الخبر قطعته، فمرض مرضاً شديداً. فكان أهله يقولون سحرته ليلى، لما كانوا يرونه يصنع بنفسه. وكانت ليلى أشدّ

وجداً به وحباً له. فأرسلت جاريتها إليه وقالت لها: اذهبي إلى مكاننا وانظري هل تري صخراً، فإذا رأيته قولي له:

تعمساً لمن بغير ذنبٍ يصرم
قد كنت، يا صخر، زماناً تزعم
إنك مشغوفٌ بنا مقيمٌ
حتى بدا منك لنا المجمع

قال: فأتته الجارية فأبلغته قولها، ووجدته كالشئ البالي وجداً وحنناً، فقال: قولي لها:

فهمت الذي عبّرت، والله شاهدٌ
لما كان عن رأيي ولا كان عن أمري
فإن كنت قد سميت صخراً فإئني
لأضعف عن حمل القليل من الحجر
ولست، وربّ البيت، أبغي سواكم
حبيباً ولو عشنا إلى ملتقى الحشر.

فقالت له الجارية: يا صخر، إن كنت كارهاً لتزويج أبيك لك فاجعل أمر إمرأتك بيدي لتعلم ليلى أنك لغيرها حال ولعهدها راع، وإنك مكرهاً. قال: قد فعلت. قالت: فهي طالقٌ منك ثلاثاً. وأخبرت ليلى، فأظهرت من ذلك جزعاً وتراحعاً إلى ما كانا عليه من اللقاء، والجارية تختلف بينهما. ولم يظهر صخر طلاق امرأته حتى قال له أبوه: يا صخر ألا تبني بأهلك؟ قال: وكيف وقد بانت مني في يمينٍ حلفت بها. فأعلم أبوه أهل المرأة فقالت المرأة تهجو ليلى:

ألا بلغا عني عقيلاً رسالةً،
فما لعقيلٍ من حياءٍ ولا فضل:
نساؤكم شرّ النساء، وأنتم
كذلك، إنّ الفرع يجري على الأصل -
أما فيكم حرٌّ يغار بأخته؟
وما خير حرٍّ لا يغار على الأهل!

قال، وهجتها ليلى حتى شاع خبرها، وسعت الجارية إلى أهل صخر وأهل ليلى وما هما عليه، وإنهما يخاف عليهما من لوم الفعل. ولم تزل حتى جمعت بينهما وتزوجها.

المهدي وحديث العشاق

وحكى الأصمعي قال: خرج المهديّ حاجاً، حتى إذا كنّا ببعض الطّريق، إذا أعرابيٌّ يقول: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أنا عاشقٌ - وكان المهديّ يحبّ العشاق وحديثهم - موكلٌ به بعض الغلمان. فلما نزل أمر بإحضاره، قال: أنت المنادي؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال له: ما اسمك؟ قال: أبو مياس. قال أمير المؤمنين: من عشيقتك؟ قال له: ابنة عمّي، وقد أبي عليّ أبوها أن يزوّجنيها. قال: لعله أكثر منك مالاً؟ قال: أنا أكثر منه مالاً! قال له: فما قصّتك؟ قال له: ادن رأسك منّي. فجعل المهديّ يضحك، وأصغى إليه برأسه. قال له: إنّي هجينٌ. قال له: ليس يضرّك ذلك أخو أمير المؤمنين وأكثر أولاده هجناً! ثمّ قال له وأين عمّك؟ قال له: على ثلاثة أميال.

قال: فأرسل أمير المؤمنين في طلبه فجيء به فقال له: ما لك لا تزوج أبا مياس، فيأتي أرى عليه نعمة؟ قال: متاع سوء، وليس مثلي يزوج مثله. قال: فإن الذي كرهت ليس مما يعاب به عندنا، وأنا معط صدق ابنتك عشرة آلاف درهم، ومعوضك مما ذكرت عشرة آلاف درهم! قال: فذلك لك! قال فخرج أبو مياس وهو يقول:

وأتبعت ظبيةً بالغلاء وإنما
يعطي الغلاء لمثلها أمثالي
وتركت أسواق القباح لأهلها
إن القباح وإن رخصن غوالي .

المنتصر بالله وجارية سعيد الصغير

قال سعيد الصغير: كان المنتصر بالله في أيام إمارته وجهني إلى مصر في بعض أمور السلطان، فاعترضني عند بعض النخاسين جارية تامة المحاسن حاذقة بالغناء. فأبى مولاها أن يأخذ مني إلا ألف دينار. ولم تكن تحضرنى، ولا وجدت أن أقرضها، وأزعجني الشخوص، وقد علقها قلبي وأخذني المقيم المقعد من حبها. فلما قدمت إلى المنتصر وعرفته ما بعثني فيه؟ سألتني عن حالي وخبري. فأخبرته بمكان الجارية وكلفي بها، وقصيت مع مولاها. فأعرض عني وصار ما بي يزداد.

ولم أملك صبراً. وجعل المنتصر، كلما دخلت وخرجت من عنده، يذكرها ويهيج أشواقى إليها، ويعيرني بقلّة الصبر عنها. وكان قد أمر ابن الخطيب أن يكتب إلى مصر في شراها وحملها إليه من حيث لا أعلم ولا أدري.

فلما سارت إليه، وعرضت عليه أمرها، فغنت وعذرتني، فأمر قيمة جواريه فأصلحت من شأنها. فلما ذهب عنها ألم السفر استجلسني يوماً وهو على فراشه. فلما غنى جواريه كانت آخرهن. فلما سمعتها عرفتها وكرهت أن أعلمه حتى ظهر عليّ ما كتبت، وغلب عليّ الصبر، فقال لي: ما لك يا سعيد؟ قلت: خيراً أيها الأمير!.

قال، فاقترح عليها صوتاً كنت أعلمته أنني سمعته منها فاستحسنه من غنائها، فغنته، فقال: هل تعرف هذا الصوت؟ قلت: أي والله أيها الأمير، فما تكون المعرفة وقد كنت أطمع في صاحبته! فأما الآن فقد يئست منها وكنت كقاتل نفسه بيده، وجالب حتفه إلى حياته. قال: والله يا سعيد ما اشتريتها إلا لك، وما يعلم الله إنني رأيت لها وجهاً إلا الساعة التي أدخلت عليّ، وأنا تركتها حتى استراحت من تعب السير، وهي لك. فأكبت على رجله، ودعوت له بما أمكنتني من الدعاء؛ وشكره عني من حضر من الجلساء، وأمر بها فحملت إلى منزلي. فما أحدٌ أحظى عندي منها، ولا لي ولدٌ أحبّ من ولدها.

من أحاديث المؤلفين

نكاء السفهاء والقوادين

من أحاديث المؤلفين: ما حكاه أبو الحسن المدائني، قال: كان بمكة سفيةٌ يجمع بين النساء والرجال على أقيح الرّيب؛ وكان من قريش، ولم يذكر اسمه، قال: فشكا أهل مكة ذلك إلى الوالي فنفاه إلى عرفات. فأخذ بها متراً، ودخل مكة مستتراً. فلقي حرفاءه من الرجال والنساء فقال لهم: وماذا يمنعكم منّي؟ قالوا له: وأين بك وأنت بعرفات! قال لهم: حمارٌ بدرهمين وقد صرتم إلى الأمن والنزهة والخلوة واللذة. قالوا: نشهد بأنك صادقٌ. فكانوا يأتونه، فكثرت ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم وسفهاءهم، فعادوا بالشكاية على أميرهم، فأرسل وراءه، فأتي به فقال: أي عدوّ الله، طردتك من حرم الله عزّ وجلّ فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد وتجمع بين الخبائث!! فقال: أصلح الله الأمير يكذبون عليّ ويحسدوني. فقالوا للوالي: بيننا وبينه واحدة تجمع حمير المكّارين وترسلها نحو عرفات، فإن قصدت داره لما اعتادت من السير لها، فالقول كما قلنا، وإلا فالقول كما قال. . . فقال للوالي: إن في ذلك دليلاً. وأمر بحمير المكّارين فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله، وجاءه بذلك أمناؤه. فأمر بتجريده. فلما نظر إلى السيّاط بكى، فقال له: ما يبكيك يا عدوّ الله؟ قال: والله، أصلح الله الأمير، ما من الضرب جزعت، ولكن يسخر منّا أهل العراق ويقولون إن أهل مكة يجيزون شهادة الحمير. فضحك الوالي وأمر بتخليته.

كان يمزح

قال المدائني: كان يزيد يسبق الحجّاج في كلّ عامٍ إلى الحجّ، وكان يأتي إلى المدينة في ثلاثة أيامٍ على راحلته. فتأخّر مرّةً عن وقته الذي كان يجيء فيه لعلّة أصابته، وكان لامرأته صديقٌ صوّافٌ. فلما تأخّر ظنّ الصوّاف أنّه قد مات فأقام عندها ولم يبرح، وجاء يزيد فدخل على الوالي فأخبره ودنا إلى منزله. فلما رأى أنّه قرب من الباب تطلّع من كوّةٍ وإذا الصوّاف مع امرأته في البيت، فلم يستفتح، فمضى إلى المخنثين فدعاهم، فأتوا معه، فوقفوا على بابه، وأمرهم فضربوا طبولهم وزمروا، فاجتمع الناس من كلّ ناحية، فأقبلوا يقولون له: يا أبا إسحاق، شيءٌ حدث؟ فيقول لهم: تزوّجت امرأتي. فقالوا له: ما بك؟ وما هذه القصة؟ فلم يخبرهم بشيءٍ. فوقف الصوّاف خلف الباب وقال: يا أبا إسحاق أدن أكلمك. فدنا منه فقال: إنّ الله في الفضيحة، وأنا أفندي منك. فقال له: أردد عليّ مهرها ونفقتي عليها فقد أفسدتها. قال: وكم ذلك؟ قال خمسون ديناراً. فكتب رقعةً إلى غلامه في السوق فبعث بها من قبض المال وجاء به. فقال: أي بني تفرّقوا. إنّما كنت أمزح. فقتع رأس الصوّاف وأنزله، وقعد مع امرأته وسكت.

من أخبار المخنثين

قال أبو عثمان الجاحظ: كان عندنا بالبصرة مخنثٌ يجمع بين الرجال والنساء في منزله. وكان بعض المهالبة يتعشّق غلاماً. فلم يزل المخنث يتلطف له حتى أوقعه. قال: فلقيته من غدٍ، وقد بلغني الخبر، فقلت له: كيف كانت وقعة الجعرانة، فقد بلغني خبرها؟ قال: لما تدانى الأقسام وقع الالتزام، ورقّ الكلام، والتفت الساق بالساق، ولطّخ باطنها بالبصاق، وجعلت الرّماح تمور، وقرع البيض بالذكور، وشفيت حرارات الصدور، ومال كلّ واحد فأصيبت مقاتل كلّ هجرٍ، وانعقد الوصل واتصل الحبل. فلو كان أعدّ هذا الكلام لمسألتي قبل ذلك بدهرٍ كان قد أجاد وملح.

حباية وسليمان بن عبد الملك

وحكى محمد بن سلام، عن يونس، قال: حجّ سليمان بن عبد الملك فاشترى حباية بألف دينار، وكان اسمها العالية، فلما رجل بها قال الحارث بن خالد المخزومي:

وغدا بليلٍ مطلع الشّرق

ظعن الأمير بأحسن الخلق

كالشّمس أو كغمامة البرق

وبدت لنا من تحت كلّتها

قال: وبلغ خبرها يزيد بن عبد الملك فقال: لقد هممت أن أحجر على سليمان. فبلغ سليمان ذلك فاتقاه وردّها إلى مولاها، فاشتراها رجلٌ من أهل مصر من مولاها بأربعة آلاف دينارٍ ورحل بها إلى مصر، وكانت في نفس سليمان إلى أن وليّ الخلافة. فقالت له يوماً سعدى بنت عبد الله بن عمر بن عثمان زوجته: يا أمير المؤمنين، هل بقي في نفسك شيءٌ تتمناه؟ قال: نعم، حباية. فأرسلت سعدى رجلاً إلى مصر فاشتراها بخمسة آلاف دينارٍ وسار بها إلى سعدى، فاستأذنت سليمان أن تتنزّه في بستانه بالغوطة، وأن يزورها إذا استزارته. فأذن لها، فصيّغت حباية وهيأها وأعلمتها بمكانها من قلب سليمان، وضربت له قبةً وشيٍ وفرشتها. ثم أرسلت إلى سليمان تستزيره، فزارها. وقد أحلست حباية وراء سريرٍ وقالت له: يا أمير المؤمنين إنّي قد أخذت لك جاريةً ذكرت أنّها قد أخذت عن حباية، فهل لك أن تسمعها؟ فقال: إن شئت. قالت: غنّي يا جارية. فغنّت سليمان صوتاً كان سليمان قد سمعه منها بالمدينة.

قال، فلما سمعه قال: حباية وربّ الكعبة. فقالت: هي حباية، ولك اشتريتها، فشأنك بها. فقامت وانصرفت وخلّتهما، فكان سليمان لا يزال يشكر سعدى على ذلك.

حديث سمية الزّانية

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى: أن علياً عليه السلام ولى زياداً فارساً حين أخرج منها سهل بن حنيف فضرب بعضهم ببعض حتى غلب عليها، وما يزال ينتقل في كورها حتى أصلح أمر فارس. ثم ولّاه على اصطخر، وكان معاوية يتهدده، ثم أخذ بشر بن أرطاة ابنته وكتب إليه يقسم عليه ليقتلها إن لم يدخل في طاعة معاوية. وتوفي عليّ عليه السلام، فكتب معاوية يدعوه إلى طاعته وأن يقرّه على عمله ويستخلفه إذا كان أبو مريم السلولي شهد عنده أنه جمع بين أبي سفيان وسميّة في الجاهليّة على الزنا. وكانت سميّة من الزانيات بالطائف تؤدّي الضريبة إلى الحارث بن كلدة. وكانت تنزل بموضع يتزل فيه البغايا بالطائف. فقال له: كره ترك المشورة من العي. فشاور زياد المغيرة بن شعبة قال: إرم الغرض الأقصى ودع عنك الفضول، فإنّ هذا الأمر لا يمدّ أحدٌ إليه يداً إلاّ الحسن بن علي. وقد بايع لمعاوية، فخذ لنفسك، وانقل أصلك إلى أصله، وصل جبلك بجبله، وأعر الناس منك أذنًا صمًا، وعينًا عمياء. فقال له زياد: يا ابن شعبة، لقد قلت قولاً لا يكون غرسه في غير منبته، لا أصلٌ يغذيه ولا ماءٌ يسقيه. وعزم على ذلك، وقبل رأي المغيرة، وقدم على معاوية. فأرسلت إليه جويرية، عن أمر معاوية، فأثاها ودنت له وكشفت شعرها بين يديه وقالت: أنت أخي، أخبرني بذلك أبي.

ثمّ أخرج معاوية إلى المسجد وجمع الناس، فقام أبو مريم السلولي فقال: أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف، وأنا حمارٌ بالجاهليّة، فقال: إبغني بغياً فقلت له: لم أجد إلاّ سميّة جارية الحارث بن كلدة! فقال: إئتني بما على ذفرها وقدرها. فقال زياد مهلاً، إنّما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً. فقال أبو مريم: لو كنتم أبغضتموني كان أحبّ إليّ، فما شهدت إلاّ بما عاينت ورأيت، فوالله لقد أخذ بكمّ درعها وأغلق الباب عليها، وقعدت، فلم ألبث أن خرج عليّ يمسخ جبينه، فقلت: مه يا أبا سفيان؟ فقال: ما أصبت مثلها يا أبا مريم، لولا استرخاء من ثديها وذفر مرفقيها. فقال زياد: أيها الناس، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم، ولست أدري حقّ ذلك من باطله، ومعاوية والشهود أعلم بما قالوا. فقام يونس بن الثقفى فقال: يا معاوية، قضى رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، بالولد للفراش؛ وشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان. فقال معاوية: والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرةً يطيب وقوعها، هل إلاّ إلى الله أقع، قال: نعم، فاستغفر الله. فقال ابن مفرع، ويقال أنّها لعبد الرحمن بن أمّ الحكم ونخلها ابن مفرع:

مغلغلةً على الرّجل اليماني

وترضى أن يقال: أبوك زان

كآل الغيل من ولد الأتان

ألا أبلغ معاوية بن صخرٍ

أتغضب أن يقال: أبوك عفٌ

فاشهد أن آلك من زيادٍ

هل حفصة كذلك؟!

وروى الهيثم بن عدي، أن الحسن بن علي تزوج حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان المنذر بن الزبير يهواها، فبلغ الحسن عنها شيئاً أنكره فطلقها، فخطبها المنذر فأبى أن يتزوجها، وخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب فتزوجته، فرمى إليه المنذر بن الزبير شيئاً فطلقها، وخطبها المنذر فأبى أن يتزوجها فدمس لها امرأة من قريش، فأنتها فتحدثت معها ثم ذكرت لها المنذر، وأعلمتها أنه قد شهر بجبها، فقالت: قد خطبني فأليت أن لا أتزوج. قالت: ولم ذلك؟ فوالله إنه لفتى قريش وشريفها وابن شريفها. قالت: شهري وفضحي! قالت لها: والآن ينبغي أن تتزوجيه ليعلم الناس أن كلامه كان باطلاً. فوقع في نفسها كلامها، وجاءت المرأة إلى المنذر فقالت: أخطبها فقد أصلحت لك قلبها. فخطبها فتزوجته، فعلم الناس أنه كان يكذب عليها. وكان في نفس الحسن منها شيء، وكان إنما طلقها لما أبلغه عنها الزبير. فقال الحسن يوماً لابن أبي عتيق: هل لك في العقيق؟ قال: نعم. فعدل الحسن إلى منزل حفصة فدخل عليها فتحدثا طويلاً، ثم خرج، ثم قال لابن عتيق يوماً آخر: هل لك في العقيق يا ابن أبي عتيق؟ فقال له: ألا تقول هل لك في حفصة فتصير إليها على علم، وأسعى لك منها فيما تحب؟! فقال الحسن: أستغفر الله.

عاتكة المزوجة

ويروى أن عبد الله بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، تزوج عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفييل فعشقها وأحبها حباً شديداً حتى منعه عن حضور الصلوات في جماعة. فأمره أبو بكر، رضي الله عنه. بطلاقها، ففارقها، فوجد عليها وجداً عظيماً، فأمره أن يراجعها، فراجعها وكانت عنده حتى توفي عنها. وكان قد أخذ عليها يمينا أن لا تتزوج بعده، فجاءها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأفتاها أن تنكح، فقالت: لست أقبل في هذا كلامك وحدك. لأنه قد بلغها أنه يريد أن يتزوجها فجاءت بعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فأفتاها بذلك، فخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتزوجته، فبعث إليها بعشرين ديناراً كفرت بها عن يمينا، ثم توفي عنها فخطبها طلحة بن عبيد الله، فلقي الزبير بن العوام هناد بن الأسود، وكان هناد امرأة كانت صديقةً لعاتكة فقال له الزبير: ما أنا عنك براضٍ حتى تزوجني عاتكة بنت زيد. قال، فحلف هناد لامرأته إن هي لم تزوج الزبير لعاتكة ليجلدتها مائة جلدة.

فانطلقت امرأة هناد لعاتكة، وكانت عندها حتى أتاها رسول طلحة بن عبيد الله فقالت له: فديتك ومن

يردّ طلحة لقدمه وشرفه وسخائه؟ ولكن ردّي رسوله اليوم فإنه سيزيدك ضعفاً ما أراد أن يعطيك. فردّته، فقالت امرأة هناد لهناد: إلق طلحة فقل له: أما تستحي أن عاتكة ردّتك وحلفت أن لا تتزوّجك؟ ففعل ذلك، فقال طلحة: لا أتزوّجها أبداً. فأمرت الزبير أن يرسل إليها، فجاءها رسوله وهي عندها فقالت لها امرأة هناد: قد بلغك ما في حقّ الزبير من الشدّة؛ أمّا والله لو تزوّجته ثمّ غلبت عليه ليكوننّ لك بذلك الشرف في نساء قريش.

ثمّ لم تنزل بها حتّى تزوّجت الزبير. وسنذكر بقيّة خبرها بعد هذا إن شاء الله.

ابن زهير المخنث القوادم

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: كان ابن زهير المديني مخنثاً، وكان يؤلّف بين الرّجال والنساء، وكانت له قبة حضراء وكان فتیان قريش يقولون من يدخل قبة ابن زهير لم يصنع في الفتوة شيئاً. قال: فواعد رجل صديقة له إلى قبة ابن زهير فجاءت بعد العتمة، وجاء الرّجل، فتعشّيا، فقالت المرأة: أشتهي نبيداً. فقال صاحبها لابن زهير: أطلب لنا نبيداً. قال: من أين لنا في هذه السّاعة؟! قال: لا بدّ منه. فلما ألح عليه عمد إلى حضض فضربه بماء وصيّره في قنينة ثمّ جاءه به فقال: والله ما وجدنا غير هذا فصبّ الرّجل منه في قدح فذاقه فوجده مرّاً فكره أن يعيبه فيكرهه إليها فشرب ثمّ صبّ فسقاها. فلما صار في بطنه تحرك. فقال لابن زهير: أين المخرج، فصعد إلى أن حرّكها بطنها فصعدت إلى أن تحرك بطنه فصعد، فلم يزا إلا كذلك ليلتهما. فقال ابن زهير: امرأته طالق إن كانا التقيا إلا على الدّرجة حتّى أصبحا ممّا يختلفان، وجاء الصّبح ولم يقضيا حاجة لأنّهما يطلبان التّبيد في منزل ابن زهير القوادم بعد العتمة.

جميل وبثينة، وكثير وعزة

وكان جميل أيضاً لما اشتهر في بثينة توعدّه أهلها، فكان يأتيها سرّاً فجمعوا له جميعاً يرصدونه، فقالت بثينة: يا جميل، احذر القوم. فاستخفى وقال في ذلك:

غباري وكلّ حارب مزعّق قتلي؟

ولو أنّ ألفاً دون بثينة كلّهم

وإمّا سرى ليل وإنّ قطعوا رجلي .

لحاولتها، إمّا نهاراً مجاهراً

فالتقى جميل وكثير فشكا كلّ واحدٍ منهما إلى صاحبه أنّه محصورٌ لا يقدر أن يزور. فقال جميل لكثير: أنا رسولك إلى عزة. قال: فأتممّ فأنشدهم ثلاث نوق سودٍ مررن بالقاع، ثمّ احفظ ما يقال لك. قال فأتاهم جميل ينشدهم فقالت له جاريتها: لقد رأينا ثلاثاً سوداً مررن، عهدي بمنّ تحت الطّلحة فانصرف حتّى

أتى كثير فأخبره. فأقاما، فلما نصف الليل أتيا الطَّلحة فإذا عَزَّة وصاحبة لها. فتحدَّثتا طويلاً، وجعل كثير يرى عَزَّة تنظر إلى جميل. وكان جميل جميلاً وكان كثير دميماً فغضب كثير وغار، وقال لجميل: انطلق بنا قبل أن نصبح. فانطلقا: ثم قال كثير لجميل: متى عهدك ببثينة؟ قال في أوَّل الصَّيف، وقعت سحابة بأسفل وادي الدَّوم فخرجت معها جارية ترخص ثياباً. قال، فخرج كثير حتَّى أناخ بآل بثينة فقالوا: يا كثير حدثنا كيف قلت لزوجة عَزَّة حين أمرها بسبِّك قال كثير: خرجنا نرمي الجمار فوجدني قد اجتمع النَّاس بي فطالعي زوجها، فسمع منِّي إنشاداً، فقال لعَزَّة: اشتهيه. فقالت: ما أراك إلا تريد أن تفضحني فألحَّ وحلف عليها، فقالت مكرهَةً: المنشد يعضُّ بظر أمه: فقلت:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ
لعزّة من أعراضنا ما استحلّت .

فقالت بثينة: أحسنت يا كثير. وقلت آياتاً لعزّة أعاتبها فيهنّ وأنشدتها:

فقلت لها يا عزّ أرسل صاحبي
على بعد دارٍ والموكل مرسل

بأن تجعلي بيني وبينك موعداً= وأن تأمريني بالذي فيه أفعل

وآخر عهدٍ منك يوم لقيتكم
بأسفل وادي الدَّوم والثوب يغسل .

فقالت بثينة: يا جارية، أبغنا خطباً من الرّوضات لنذبح لكثير غريضاً من البهم: فراح إلى جميل فأخبره.

ثم إنَّ بثينة قالت لبنات خالتها، وكانت اطمأنت إليهنّ وتطلعنّ على حديثها: أخرجن بنا إلى الدَّومات فإنَّ جميلاً مع كثير، وقد وعدته. فخرج جميل وكثير حتَّى أتيا الدَّومات، وجاءت بثينة وصواحبها. فما برحن حتَّى برق الصَّبح. وكان كثير يقول: ما رأيت مجلساً قط أحسن من ذلك المجلس، ولا فهماً أحسن من فهم أحدهما من صاحبه، ما أدري أيّهما كان أفهم! .

شروط الزّواج عند الجاحظ

قال أبو عثمان الجاحظ: إذا ابتلى الرّجل بمحبّة امرأةٍ لنظرةٍ نظر إليها، ولحّةٍ منها، لم يكن يزوّج مثله مثلها وكانت ممتنعةً، فالحيلة في ذلك أن يرسل إليها امرأةً قد كملت فيها سبع خصالٍ منهنّ: أن تكون كتومة السّرّ؛ وأن تكون خداعةً لها معرفةً بالمكر؛ وأن تكون فطنةً متيقظةً؛ وأن تكون ذات حرصٍ؛ وأن تكون ذات حظٍّ من مالٍ ولا تحتاج إلى النَّاس ولا ينكر النَّاس اختلافها ودخولها عليها، بأن تكون إمّا بيّاعة طيبٍ، أو قابلةً، أو صانعةً لآلة العرائس، وتقدّم إليها أرقّ وألطف ما تقدّر عليه، ولا تدع شيئاً من الشكوى واللطف، وتخبرها أنّ نفسها في يدها، وأنها متمثّلةٌ بين عينيه، وأنّه لا ينسى ذكرها، وأنّه يراها في المنام كلّ ليلةٍ تضربه وتخاصمه، وأنّه إن لم ير منها نظرةً أو حلوةً هلك، وإنّه لم يمنعه من خطبتها إلاّ

خشية الامتناع من أهلها إن كان دونهم في الحسب والجاه والمال وخوف التمتع منها هي أيضاً. فإنها إذا سمعت هذا وأمثاله مرةً أو مرتين لم تدع أن تمكنه بمالٍ إن قدرت عليه وأذنت له في خطبتها من أوليائها، فإذا شاورها في ذلك. رضيت، وقد تمكن قوله من قلبها، توصل منها إلى ما أراد بحلال التزويج دون حيلةٍ من حيل الحرام.

ليس لهنّ من يعشقهنّ

وقال هارون بن المنذر: رأيت عطيطا المفتي يضرب جواربه على أن ليس لهنّ من يعشقهنّ. فقلت له؟ ويحك، أما تتقي الله؟ أيّ ذنبٍ لهنّ في هذا؟ ما أهون عليك! قال: إذا أردت أن أشتري كسوتهنّ أين قلت تكوهن لأنك مولاهن فقال وما لهن الزواني ألا تجعل كسوتهم عليهم؟! فقلت: إنك سمعتنّ ما قال؟ قلن: نعم، والله، ونجعل له أولاداً قال: فتنفس وقال: يقولون ما لا يفعلون!

سمّاها ليلى

قال الزبير بن بكار: خرج أبو السائب المخزومي وعبد الله بن جندب إلى موضعٍ يتزّهان فيه، فلحقها ابن المولى الشاعر، فصلح به ابن جندب. فقال: ما شأنك؟ وأنشد:

وأبكي فلا ليلى بكت من صباية
لما بي ولا ليلى لذي الودّ تبذل
واخضع للعتبي إذا كنت مذنباً
وإني إذ نبت كنت الذي أتصل
وقد زعمت أنّي سلوت وأنني
تباتي عن إتيانها متعلّل.

قال ابن جندب: من ليلى هذه؟ امرأته طالقٌ إن لم أفدها. قال: هي والله يا أخي فرسي سميتها ليلى.

أمرته بتقوى الله

قال الزبير بن بكار: قال عمر بي أبي ربيعة المخزومي:

أحنّ إذا رأيت حجال سعدى
وأبكي إن سمعت لها حيننا
وقد أزف المسير فقل لسعدى
فديتك أخبري ما تأمرينا.

قال، فسمعه ابن أبي عتيقٍ فخرج حتّى أتى الحيّان من أرض غطفان، ثمّ أتى خيمة سعدى، فاستأذن عليها وأنشدها البيتين ثمّ قال لها: ما تأمر به؟ قالت: أمره بتقوى الله.

النساء فتن الرجال

أبو غسان المهدي قال: مرّ أبو بكر الصّدّيق، رضي الله عنه، في خلافته بطريقٍ من طرق المدينة، فإذا جارية تطحن وتنشد:

وعشقتَه من قبل قطع تَمائمي
ومتمايساً مثل القضيبيّ التّاعم
وكأنّ نور البدر سنّة وجهه
ينمى ويصعد في ذؤابة هاشم

فدقّ عليها الباب فخرجت إليه، فقال: ويحك أحرّة أم مملوكّة؟ قالت: مملوكّة يا خليفة رسول الله. قال: فمن هو؟ قال فبكت ثمّ قالت: يا خليفة رسول الله بحقّ الغير ألا انصرفت عني؟! قال: وحقّه لا أريم مكاني أو تعلميني! . فقالت:

وأنا التي لعب الغرام بقلبيها
فبكت بحبّ محمّد بن القاسم،

قال، فسار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشترها منه: وبعث إلى محمّد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، وقال: هؤلاء فتن الرّجال، فكم مات بهنّ كريم، وعطب عليهنّ سليم!!.

رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق

وكان فتىً من أهل الكوفة عاشقاً لجارية، وكان أهلها قد أحسّوا به فتوعّدوه وصدّوه، فلم يقدر على الوصول إليها فواعدها في ليلة مظلمة أن تسير إليه. وأتى فتسوّر عليها حائطاً. فعلم به أهلها فأخذوه وأتوا به خالد بن عبد الله القسري وقالوا له: إنّه لصّ تسوّر علينا من الحائط. فسأله خالد عن ذلك فكره أن يجحد السرقة فيفضح الجارية، فقال: أسارق أنت؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير. فأمر بقطعه يمينه. وكان للجارية ابن عمّ من أهل الفضل قد اطلع على بعض شأنه فأخذ رقعةً وكتب فيها هذه الأبيات:

أخالدُ قد، والله، أوطئت عشوةً
وما العاشق المظلوم فينا بسارق

أقرّبما لم يجن عمداً لأته
رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق

ولولا الذي قد خفت من قطع كفه
لألقيت في أمر الهوى غير ناطق

إذا مدّت الغابات في السّبق للعلی
فأنت ابن عبد الله أوّل سابق

ثمّ حذف الرّقعة فوقعت في حجر خالد فقرأها ثمّ أمر بالفتى إلى السّجن، وصرف القوم. فلمّا خلا مجلسه دعا به فسأله عن قصّته فعرفّه، فبعث إلى أبي الجارية فقال: قد عرفت قصّة هذا الفتى فما يمنعك من تزويجه؟ قال: خوف العار. قال: لا عار عليك في ذلك، والعار أن لا تزوّجه فتشف أمره! . فسأله أن يزوّجه ففعل، فدفع إليه عن الفتى خمسة آلاف درهم، وأمره بتعجيل إهدائها إليه.

كانت تنزيه بين يديها .

سأل رجلٌ بعض العلماء عن الواصلة، فقال: إنك لمنفر. قال، قالت عائشة، رضي الله عنها: ليست الواصلة كما تعنون، لأنهم كانوا يقولون: الواصلة هي أن تكون المرأة بغياً في شبيبته فإذا شابته وصلته بالقيادة. وكانت كلمة التي يضرب بها المثل في القيادة صبيّة في الكتاب تسرق أقلام الصبيان فلما شبّت قادت، فلما أقعدت اشترت تيساً وكانت تنزيه بين يديها.

القوادة لا يشفع فيها إلا زان

ذكر المدائني أن بعض عمّال البصرة كان لا يزال يأخذ قوادةً فيحبسها، فيأتي من يشفع فيها فيخرجها. فأمر صاحب شرطته وكتب رقعةً يقول فيها: فلانة القوادة تجمع بين النساء والرجال، لا يتكلم فيها إلا زان. فكان إذا كلمه فيها أحدٌ قال: أخرجوا قصّتها. حتّى إذا قرئت قام الرجل مستحيّاً.

هل ينبت الحبّ إلا أن يزرع

وحكى يقظان بن عبد الأعلى قال: رأيت القين يضرب جاريتته سلمى المغنّية ويقول: ما جئتني بهديّة، ما جئتني بخلعةٍ قط، هل هو إلا هذا الكرى؟ فهبك لم تقدرني على شيء، فما تقدرين على ولدٍ؟ فقالت: هذه المرّة أجيئك بابن. فقال: يا زانية إن لم تصدقي لأضربنك ألف سوط. فرأيتها بعد ذلك ولها ابن متحرّكٌ تخدمه. فقلت لها: وقد وفيت لمولاك؟ قالت: نعم، ولكن ما ناكي رجلٌ حتّى جاءني هذا الولد! فقال مولاها: صدقت، فهل ينبت الحبّ إلا أن يزرع؟ فعجبت من كسخنة المولى وطيب نفس الجارية.

باب ما جاء في ما لا يحاط به

وهذا باب، أعزّك الله، أكثر من لا يحاط به. ولكنني اختصرت من ملح أحاديثهم ما فيه مستمتعٌ. وستقف في الآخر التي أفردناها من أخبار القيان على كثيرٍ منه. وقد قالت الشعراء في الرّسل في الجاهليّة والإسلام. ومن ذلك قول حميد بن ثور الهلالي:

لتستقينا ما قد لقيت وتعلما،

بها يحتمل يوماً من الله مأثما.

أبثكما منه الحديث المكتما،

إلى أهل ليلي العامريّة سلّما.

وإن خفتما أن تعرفا فتلتما،

خليلي إنّي مشتك ما أصابني

أمنتكما، إن الأمانة من يخن

فلا تفشيا سرّي، ولا تخذلا أحمأ

لتتخذنا لي، بارك الله فيكما،

فإن كان ليلاً، فألوانه هديتما،

وقولا :خرجنا تاجرين فأبطأت
فإن أنتما أطمأننتما وأمنتما
وقولا لها: ما تأمرين بصاحبِ
أبيي لنا إنا رحلنا مطبنا
ألا هل صدا، أم الوليد مكلّم
صداي، إذا ما كنت رمساً وأعظما
ركابٌ تركناها بند قيما.
وأخليتما ما شئتما فتكلما،
لنا قد تركت القلب منه متيما؟
إليك، وما نرجوك إلا توهما.
صداي، إذا ما كنت رمساً وأعظما

المأمون: يا ليتني كنت الرسول

وقال المأمون لرسولٍ بعث له:
بعثتك مرتاداً، ففزت بنظرةٍ
وناجيت من أهدى وكنت مقرباً.
ورددت طرفاً في محاسن وجهها،
أرى أثراً منها بعينيك لم يكن، لقد سرقت عينك من وجهها حسنا .
فيا ليتني كنت الرسول فأشتفي،
وكننت الذي يعصي وكننت الذي أدن.
وأغفلتني، حتى أسأت بك الظننا،
فيا ليت شعري، عن دنوك ما أغنى؟
ومتعت باستمتاع نغمتها الأذنا.
وكننت الذي يعصي وكننت الذي أدن.

المتنبّي: أنا أهوى وقلبك المتبول

وقال أبو الطيّب المتنبّي في مثل ذلك:
ما لنا كلنا جوى، يا رسول،
كلما عاد من بعثت إليها،
أفسدت بيننا الأمانات عينا
وإذا خامر الهوى قلب حبّ
أنا أهوى، وقلبك المتبول
غار مّي، وخان فيما يقول .
ها وخانت قلوبهنّ العقول
فعليه لكلّ قلبٍ دليل.

بعض المحدثين: شغلنتني وشغلت عني

وقال بعض المحدثين:
يا سوء منقلب الرسول مخبراً بخلاف ظني
إني أعيدك أن تكون شغلنتني وشغلت عني

أبو نواس: شمّر ثيابك

وأنشد لأبي نواس:

يا من أتى من دون حاجته
شمر ثيابك، قد شغلت بما
وانظر رسولاً ذا ملاطفةٍ
ممن عليه غباوةٌ، وترى
لا يخلصون به إذا خرجوا
بأباً، وأحراس به وكلوا:
لو عمّ خلق الله لاشتغلوا،
لولا مرارة غمه عسل
أفعاله كالنار تشتعل
الابتذال ولا إذا دخلوا

رأي الأهوازي في القوادة

وأنشد أحمد بن عيسى الأهوازي في قوادة:

تكاد لو لم تكن أنسيّةً
لا يعصم المقدار من كيدها
تجري من الإنسان مجرى الدّم
محلّه في الموضع الأعظم

شروط مناجاة الغادة

وأنشد لآخر أيضاً:

إذا أردت أن تناجي غادةً
فادسس لها عجيلاً قوادة
قد انحنت من شدة العبادة
كالحسن البصري أو قتادة
قد أحكمت من شدة المرادة
فإنها تدخل، كالمرتادة،
وتصف الشقاء والسعادة
ولاحظت عقلة وقادة
تروّضها باللحم المقادة
من الغواني صعبة المنقده
أدب في الظلماء من جرادة
تلوح في جبينها السجادة
في يدها سبحتها الصيادة
قد ألقت غرائب القيادة
بذكر كل غافل معادة
حتى إذا نصبت لها الوسادة
ثم خلت بالغادة المرادة
حتى ترى طاعتها سعادة

زهدها يغرّ العيون

وقال أحمد بن أبي طاهر:

فأرسلتها أمضى من السيف مقدماً
وأسرع من سيلٍ بليلٍ إذا احتفل

لطافتها في الرأى والقول والحيل.
وتهدي إلى طرق الضلال فلا تضل
إذا ما رآها وهي أختل من ختل
ويستترل العصماء من شغف القلل
لألّفت الذئب الأزل مع الحمل
برقيتها يوماً لزلّ بها الجبل
وتسيبها عند الشروق وفي الأصل
وتفتح ما قد كان غلقاً وما قفل.

تدبّ ديبب التمل في كلّ مفصل
يذلّ لها الصّعب الجموح قياده
يرى الفطن الدّاهي عليها عبادة
يؤلّف بين الأسد والشّاء لطفها
ولو أنّها شاءت، بأهون سعيها،
ولو جبلٌ رامت إزالة ركنه
يغرّ العيون زهدا وحشوعها
تسهّل ما قد كان وعراً طريقه

قامتها غصن بان ممطور

وأنشد لابن بشير:

مت التّجارب أسباب المقادير
مشيّد محكم البنيان والسّور
من حرّ ما نعتت لسبب الرّنابير
إذا تأملت من لطفٍ وتقدير

وزولةٍ في الذي رامت يتاح لها
لا تحزر الخود منها أن تدبّ لها
كأنّ في قلب من يصغي لمنطقها
أخفى من الرّوح في تأليف معصيةٍ

تشيّمها بذوات البرّ والخير
كغصن بانٍ رشيق القدّ ممطور
تقارب الخطو في ميل وباطير
يرنو بمقلتها أنفاس مبهور
في السّوم، حتّى أجابت بعد تعسير
أزهو برؤيته زهو المياسير.

قد ناطت الدّهر مصباحاً بمعصمها
خلت بواضحة الخدين مخطفةٍ
باتت تعلّمها في طول ليلتها
رفقاً، وتقليب عينٍ عند كلّ فتىٍ
ما زلت أسألها حظّاً وترفع لي
لبدل أصغر، دهرأ كنت أدخره،

الماشية على الماء

وأنشد لإسحاق بن خلف البصري:

أو أذن خرساء أضحت غير خرساء
ولو تشاء مشت رفقاً على الماء.

لو أنّ رقيتها في صخرةٍ نطقت
أخفى من الرّوح إذ دبّت لحاجتها

عيبه إصلاح شأن العشائر

وأنشد الخمار:

ظلم الناس، حسينا
ورموه بالكبائر
ما له عيبٌ سوى، إصلاح
حه بين العشائر

قوَادٌ يخلي منزله بدرهمين

وأنشد لعبد بن وهب:

قالوا ابن عثمة قوَادٌ، فقلت لهم:
كذبتهم، ما أبو حفص بقوَاد
لكنه رجلٌ يخليك منزله
بالدرهمين وما يبقى من الزَاد

المتكامل

وأنشد ابن الأعرابي:

هل من رسول لطيف
إلى غزالٍ عنيف
له سريرة ذئبٍ
وسمت قسّ عفيف
تكامل الظرف فيه
ففاق كلّ ظريفٍ

نحن منصرفان

ومن ملح ما قيل في هذا المعنى قول ابن الدّمينية:

خليليّ سيرا مسعدين فسلمّا
على حاضر الماء الذي تردان
ومرّاً فقولا: نحن نطلب حاجةً
ومرّاً فقولا: نحن منصرفان

باب ما جاء في خلق النساء

أوصاف النساء

إذا كانت المرأة ضخمةً في تعمّد وعلى اعتدالٍ فهي: رجلة. فإذا زاد ضخمها ولم تقبح فهي: مسبحة. فإذا كانت طويلةً قيل: جاريةٌ سبّطةٌ وعيطبول. فإذا كانت بها مسحةٌ من جمالٍ فهي: جيلةٌ ووضيئةٌ. فإذا أشبه بعضها في الحسن بعضاً فهي: حسّانةٌ. فإذا استغنت بجمالها عن الزينة فهي: غانيةٌ. فإذا كانت لا

تبالي أن تلبس ثوباً حسناً ولا قلادةً فاخرةً فهي: معطالٌ. فإذا كان حسنها ثابتاً كأنها رسمت به فهي: وسيمةٌ. فإذا قسم لها حظٌّ وافرٌ من الحسن فهي: قسيمةٌ.

وقالوا: وقال الصَّبَاحَة في الوجه الوضَاءَة في البشرة. الجمال في الأنف. الحلاوة في العينين. الملاحظة في الفم. الظرف في اللسان. الرَشَاقَة في القَد. اللبَاقَة في الشَّمائل. كمال الحسن في الشَّعر.

والمرأة الرَّعْبُوبَة: البِيضَاء. الزَّهْرَاء: التي يضرب بياضها إلى صفرة كلون القمر والبدن. والهجان: الحسنه البِياض.

والمرأة طفلةٌ ما دامت صغيرةً؛ ثم وليدةٌ إذا تحرَّكت؛ ثم كاعبٌ إذا كعب ثديها؛ ثم ناهدٌ إذا زاد؛ ثم معصرٌ إذا أدركت؛ ثم حودٌ إذا توسَّطت الشَّبَاب.

والزَّجَاء: الدَّقِيقة الحاجبين الممتدَّتْما حتَّى كأنهما خطًّا بقلم. والبلج: إن يكون بينهما فرجةٌ، وهو يستحبُّ، ويكره القرن وهو اتَّصَلْهما. والدَّعج: أن تكون العين شديدة السَّواد مع سعة المقلة. والبرج: شدة سوادهما وشدة بياضهما. والتَّجَل: سعتهما. الكحل: سواد جفونهما من غير كحل. الحور: اتَّساع سوادهما.

الشَّنب: رقة الأسنان واستواؤهما وحسنها. الرِّتل: حسن تنزيدها واتِّساقها. التَّفليج: تفرج ما بينهما. الشَّتت: تفرَّقها في غير تباعدٍ في استواءٍ وحسنٍ يقال منه، تُغرُّ شتيتٌ. الأشر: تحديداً في أطراف الشَّنايا يدل على الحدائث. الظَّلَم: الماء الذي يجري على الأسنان من البريق. الجيد: طول العنق. التَّلع: إشرافها.

وإذا كانت المرأة شابةً حسنة الخلق فهي: حود. فإذا كانت جميلة الوجه حسنة المعرى فهي: مهنكة. فإذا كانت دقيقة المحاسن فهي: مملودة. فإذا كانت حسنة القد، ليّنة العصب: فهي: خرعبة. وإذا كانت لم يركب بعض لحمها بعضاً فهي: مبتلة. فإذا كانت لطيفة البطن فهي خمصانة. فإذا كانت لطيفة الكشحين فهي: هضيم. فإذا كانت لطيفة الخصر مع امتداد القامة فهي: مشوقة. فإذا كانت طويلة العنق في اعتدالٍ وحسنٍ فهي: عطبول. فإذا كانت عظيمة العجيزة فهي: رдах. فإذا كانت سميحةً ممتلئة الذراعين والساقين فهي خدلجة.

وإذا كانت سميحةً ترتج من سمنها فهي مرمادة. فإذا كانت ترعد من الرطوبة والغضاضة فهي برههة. فإذا كانت كأن الماء يجري في وجهها فهي رقراقة. فإذا كانت رقيقة الجلد ناعمة البشرة فهي: بضة. فإذا عرفت في وجهها نضرة التَّعيم فهي: نظرة. فإذا كان فيها فتورٌ عند القيام لسمنها فهي: أناةٌ وهنانة. فإذا كانت طيبة الريح فهي مهنانة. فإذا كانت عظيمة الخلق مع جمالٍ فهي عرهرة. فإذا كانت ناعمةً جميلةً فهي: عبقره. فإذا كانت مثنيةً للينٍ وتعمدٍ فهي: غيداء وغادة. فإذا كانت طيبة الفم فهي: رشوف. فإذا

كانت طيبة ریح اليد فهي: أنوفٌ. فإذا كانت طيبة الخلوة فهي: رصوفٌ. فإذا كانت لعوباً ضحوكاً. فهي: شموعٌ. فإذا كانت تامة الشعر فهي: فرعاء. فإذا لم يكن لمرقبيها حجمٌ من سمنها فهي: درماء. فإذا ضاق ملتقى فحذيها لكثرة لحمها فهي: لفاء.

فإذا كانت حبيبةً فهي: خفرةٌ وخريدةٌ. فإذا كانت منخفضة الصوت فهي: رخيمةٌ. فإذا كانت محبةً زوجها متحبةً إليه فهي: عروبٌ. فإذا كانت نفوراً من الریب فهي: نوارٌ. فإذا كانت تجتنب الأقدار فهي: قدورٌ. فإذا كانت عفيفةً فهي: حصانٌ. وإذا كانت عاملة الكفین فهي صناع.

فإذا كانت كثيرة الولد فهي: بنون. فإذا كانت قليلة الولادة فهي: نزورٌ. فإذا كانت تلد الذكور فهي: مذكارٌ. فإذا كانت تلد الإناث فهي: مئناثٌ. فإذا كانت تلد مرةً ذكراً ومرةً أنثى فهي: مهابٌ. فإذا كانت لا يعيش لها ولدٌ فهي: مقلاتٌ. فإذا كانت تلد التّجباء فهي: منجابٌ. فإذا كانت تلد الحمقاء فهي: محمقةٌ.

فإذا كانت يغشى عليها عند الجماع فهي: ربوخٌ. والممكورة: المطويّ الخلق. واللدنة: اللينة النّاعمة. والمقصدة: التي لا يراها أحدٌ إلاّ أعجبت. والخبرنجة: الجارية الحسنة الخلق في استواء. والمسبطرة: الجسيمة. والعجزة: العظيمة العجيزة. والرّعبوية: الرّطبة. والرّجاجة: الدّقيقة الجلد. والرّتكة: الكثيرة اللحم؛ والطفلة النّاعمة. والرّود: المثنية اللينة. والأملود: النّاعمة؛ ومثلها الخرع - مأخوذٌ من نبت الخروع وهو نبتٌ لينٌ - والبارقة: البيضاء الثغر. والدّهثمة: السّهلة. والعاتق: التي لم تنزوّج. والبلهاء: الكريمة، والمفضّلة عن السرّ الغريرة. والعيطموس: الفطنة الحسنة.

والسلهبة: الخفيفة اللحم، والمجدولة المشوقة. والسّرعوفة: النّاعمة الطويلة. والفيصاء والعفاء: الطويلة العنق. والتّهنانة أيضاً: الضّحّاكة المهلّلة.

والغيلم: الحسنة. والخليق: الحسنة الخلق؛ وقال الفراء هي أحسن النّاس حيث نظر ناظرٌ، أي هي أحسن النّاس وجهاً. وقال أبو عمرو: ويقال للمرأة إذا كانت حسنة: كأنّها فرسٌ شرهاء - والشرهاء: الحديدة النفس - وامرأةٌ حسنة المعارف - ومعارفها: وجهها - والمتحرّية: الحسنة المشية في خيلاء. والشّموس: التي لا تطمع الرّجل في نفسها، وهي الدّعور. وامرأةٌ ظمياء: إذا كانت سمراء، وشفةٌ ظمياء كذلك. ويقال لها إنّها لحسنة العطل أي الجسم. ويقال عبقةٌ أي التي يشاكلها كلّ النّاس.

اختلاف النّاس في أمور عدّة

ونذكر اختلافات النّاس في الثّدي والعجز والمجدولة من النّساء والضّخمة الطويلة، والغضيفة. واختلاف شهواتهم في المسوحة والمفلكة والكاعب والتّاهد والمنكسرة. ومن استحسّن الثّدي الضّخم الذي يملأ

الكفّين، ومن ذمّ ذلك.

ومّن وصف الشّحم عبد بني الحسحاس حيث يقول:

توسّدي كفاً وترفع معصماً
عليّ وتحنو رجلها من ورائها
أميل بها ميل التّزيف، وأتقي
بها القطر، والشّقان من عن شمالها

فسحيم لم يتخذها هدفاً تستر عنه الرّيح والقطر إلاّ وهي في غاية الضّخم.

لا يريدّها خنّاء قباء

وقال أبو عبيدة: دخل مالك الأشتر على عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، في صبيحة بنائه على نسائه فقال: كيف وجد أمير المؤمنين أهله! قال كالخير من امرأة، لولا أنّها خنّاء قباء قال: وهل يريد الرّجال من النّساء إلاّ ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: كلا، حتّى تدفئ الضّجيع، وتروي الرّضيع.

تفضيل المرأة المجدولة

وهذا يدلّ على العجب بالضّخم والشّحم. وأكثر البصراء بجواهر النّساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدّمون المجدولة، فهي تكون في منزلة بين السّمينية والممشوقة مع جودة القدّ وحسن الخرط. ولا بدّ أن تكون كاسية العظام. وإنّما يردون بقولهم مجدولةً جدولة العصب وقلة الاسترخاء، وأن تكون سليمةً من الزوائد والفضول، لذلك قالوا خمصانةً وسيفانةً، وكأنّها جدل عنانٍ وغصن بانٍ وقضيب خيزران. والتّشّي من مشية المرأة أحسن ما فيها. ولا يمكن ذلك الضّخمة والسّمينية. ووصفوا المجدولة فقالوا: أعلاها قضيبٌ، وأسفلها كتيبٌ. وقال بعض الأعراب:

لها قسمةٌ من حوط بانٍ ومن نقيّ
ومن رشاً الغزلان جيد ومذرف
يكاد كليل الطّرف يكله حدّها
إذا ما بدت من حدرها حين تطرف

وقال آخر:

ومجدولةً جدل العنان إذا مشت
تنوء بخصريها ثقال الرّوادف

وقال آخر:

ومجدولةً، أمّا مجال وشاحها
لها القمر السّاري نصيبٌ، وإنّها
فغضٌ، وأمّا ردفها فكثيبٌ؛
لتطلع أحياناً له فيغيب.

وقال أبو نواس. وقد أحسن ما شاء:

ما حلّها المشروب والمأكول.

أحللت من قلبي هواك محلّة

يتحير التشبيه والتمثيل.

بكمال صورتك التي في مثلها

دون السمين، ودونها المهزول .

فوق القصيرة، والطويلة فوقها؛

وأما قول الأعشى حيث يقول:

تمشي الهويّنا كما يمشي الوحى الوجل

غراء فرعاء مصقول عوارضها

مرّ السحابة لا ريث ولا عجل

كأنّ مشيتها من بيت جاريتها

فقد وصفها كما ترى بالضخم، ولكنه يذكر أفرطاً.

وقال الأحمص:

عنان ضاع أنعمت أن تجوداً

من المدبجات اللحم جدلاً كأنها

قال أبو عثمان الجاحظ: كان أبو معمر بن هلال يقول: عذرت الرجل الطويل الأير حتى يتمناها ضخمةً.

ولكن ما عذر الصغير الأير في ذلك؟.

وفي اختلافهم في الثدي

أنشد للمرار بن سعيد

سحمة الثدي ولما ينكسر

صلبة الخدّ طويلٌ جيدها

وقال التابغة في التهود:

ويخبّان رمان الثديّ النواهد

يحططن بالعيدان في كلّ مقعدٍ

وأنشد لمسلم بن الوليد:

وقد فجأتما العين والشترّ واقع

فأقسمت أنسى الداعيات إلى الصبى

كأيدي الأسارى أنقلتها الجوامع

فغطّت بأيديها ثمار صدورها

وذمّ أعرابيٌّ امرأةً فقال: والله ما بطنها بوالد، ولا شعرها بوارد، ولا ثديها بناهد، ولا فوهها ببارد. وكتب الحجاج بن يوسف إلى الحكم بن أيوب قال: اخطب على عبد الملك امرأةً جميلةً من بعيد، مليحةً من قريب، شريفةً في قومها، ذليلةً في نفسها، أمةً لبعلها. فكتب إليه: أصبتها، وهي خولة بنت مسمع، لولا عظم ثديها! فكتب إليه الحجاج: لا يحسن بدن المرأة حتى يعظم ثديها فتدفي الضجيع، وتروي

الرّضيع.

وقال آخر يذمّ عظم الثدي:

لعمري لبيضٌ يحتلن بقفزةٍ
لطاقف ثدي الصّدر غيد السّوالف
أحبّ إلينا من ضخام بطونها
لآباطها تحت الثدي تعاطف

في الممسوحة الصّدر

وقال آخر في الممسوحة التي لم يبد بصدرها شيءٌ:

وعلّقت ليلي وهي بكرٌ خريدةٌ
ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهيم، يا ليت أنّي
إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهيم

وقال نصيب:

ولولا أن يقال: صبا نصيبٌ.
لقلت: بنفسي التّشو الصّغار؛

بنفسي كلّ مهضومٍ حشاها
إذا ما الرّلل ضاعفن الحشايا
إذا ظلمت فليس لها انتصار .
كفاها أن يلاث بها الإزار

وقال ذو الرّمة:

بعيدات مهوى كلّ قرطٍ عقدنه
وذكر آخر ابتداء التّهود فقال:
لطاق الحشا تحت الثدي الفوالك
نظرت إليها نظرةٌ وهي عاتقٌ

على حين شبّت واستبان هودها
وليس في الحيوان شيءٌ واسع الصّدر غير الإنسان. ولا في جميع الحيوان أنثى في صدرها ثديٌّ إلاّ المرأة
والفيلة، وكذلك الرّجل. والعرب تمدح الرّجال والنّساء بطول الأعناق. قال الشّاعر:

آراءٌ في طول الأعناق

ومن كلّ شيءٍ قد قضيت لبانتي
وهصري أعناقاً تلين وتثني
سوى ضخم أعجازٍ ثقال الرّوادف
كما كان خيطان الأراك الصّعائف

وقيل لإبراهيم بن النّظام: أيّ مقادير الثدي أحمد؟ قال: وجدت النّاس يّختلفون في التّشّهوات، وسمعت الله
تبارك وتعالى حين وصف حور العين جعلهنّ كواعب أتراباً. ولم يقل فوالك ولا نواهد. وقالت العرب:

يسار الكواعب. ولم تقل يسار التواهد ولا يسار الفوالك.
ولم أرهم يختلفون في مدح عظم الركب كما اختلفوا في مقادير التدي في طول الأعناق. يقول الشمر دل.
ويشبهون ملوكاً في مهابتهم
وقال آخر:

طوال أنصبة الأعناق لم يجدوا
ريح الإماء إذا راحت بأذفار .
وهوة حسن ما لم يطل جداً، فإذا أفرط كان عيباً. كما عيب بذلك واصل بن عطاء رئيس المعتزلة فسَمِّي
عنق نعامة، وعيب بذلك جعفر بن يحيى البرمكي.
وكذلك قال فيه الحسن بن هانئ:
ذاك الوزير الذي طاولت علاوته
كأنه ناخرٌ في السيف بالطول
وقد زعموا أنه أول من اتخذ هذا الأطواق العراض، فاستحسنها الناس بعده، فاتخذوها.

آراء في صفة الأعكان

وفي صفة الأعكان يقول يزيد بن معاوية:
لها عكنٌ بيضٌ كأنَّ غضونها
إذا شفَّ عنها السَّابري فداح
وقال أبو الطَّيِّب المتنبِّي:
يضمُّها المسك ضمَّ المستهام بها
حتى يصير على الأعكان أعكانا
وقال آخر:

غراء واضحة أقراب خرعبة
طوع العناق فلا بكرٌ ولا نصف
وقال التَّابِغَةُ الذَّيَّابِي:
والبطن ذو عكنٍ لطيفٍ طيِّه،
مخطوطة المتنين غير مفاضة
وإذا لمست، لمست أجتُم جاثماً
وإذا نرعت، نرعت عن مستحصفٍ
وأُشِدُّ لأعرابيٍّ آخر:

لما رأيت أن الرِّحيل قد حان
قامت تهادي في رقيق الكتان
بواضح الوجه قليل الخيلان
وعكن مثل متون الغزلان

وقال الفرزدق:

بثديين في صدرٍ عريضٍ وكعشب

إذا بطحت فوق الأثافي رفعتها

فزعم أنها إذا بطحت على وجهها لم تمسّ الأرض بشيءٍ من سائر جسدها إلاّ تهود ثدييها وعظم ركبها
فصارت لبدنها كأثافي القدر.

وقال عبد بني الحسحاس:

مثل سنام البكرة المائل

من كلّ بيضاء لها كعشب

وحلف ابن مطيع الليثي الشّاعر أنّ جاريته خردانة كانت تستلقي على ظهرها فتشخص كتفها ومنكباها
حتّى لقد كان يتدحرج الرّمّان والأترج من تحت خصريها.
قالوا: كانت الزّبياء بنت عبد الله تصبّ جرّة الماء على رأسها فلا يصيب فخذيها للبد عجيزتها.
وقال الشّاعر:

حجماً وليس لساقها ظنبوب

نفج الحفينة لا ترى لكعوبها

والوالدان نجيبةٌ ونجيب

عظمت روادفها وسهّل وجهها

ومن مليح ما قيل في هذا، قول الأعرابي:

مسّ البطون وإنّ تمسّ ظهورا

أبت الروادف والثديّ لقمصها

نّبهنّ حاسدةً وهجن غيورا

وإذا الرّياح مع العشيّ تناوحت

والعرب تمدح الملوك بسعة العيون كما يصفون ذلك النّساء ويستحسنونه.

قال ذو الرّمّة:

أشمّ ألجّ العين كالقمر البدر

ومخلتُ للملك أبيض قد غمز

لما أنشد بشّار بن برد قول الشّاعر:

إذا لمسوها بالأكفّ تلين

ألا إنّما ليلي عصا خيزرانةٍ

ضحك بشّار من قوله عصا خيزرانةٍ وقال: لو زعم أنّها عصا رندٍ أو عصا ندّ لهجنّها وكان ذلك خطأً
بعد أن جعلها عصاً. فهلاًّ قال كما قلت:

كأنّ عظامها من خيزران

إذا قامت لسبحتها تنّت

وكانت ميمونة عند هشام بن عبد الملك، خلف عليها بعد العزيز قال: لو أنّ رجلاً ابتلع ميمونة ما
اعترض في حلقه منها شيءٌ لئنيها. وقال بشّار:

خلت من الرّمّل خلفها حقف

إذا مشت نحو بيت جارها

يرتجّ من مرطها مؤزّرها

وفوقه غصن بانهٍ قصف.

ما قيل في الضخمة

وقد قيل في الضخمة:

قليلة لحم التّاطرين يزيّنها

شبابٌ ومخفوضٌ من العيش بارد

أرادت لنتناش الرّواق فلم تقم

إليه ولكنّ طأطأته الولاتد.

وقال آخر أيضاً:

ضوء بريقٍ بدا لعينيك أم شبّبت بذي الأثل من سلافة نار

أوقدتها بالمسك والعنبر اللدن فتاةً يضيق عنها الإزار

وأنشد أيضاً:

وتبدي على المتن من شعرها

عناقيد كرمٍ تدلّين سودا

ويجري السّواك على باردٍ

لذيذٍ من الدرّ يدي نضيدا

وما زانها العقد لكتّنها

تزيّن بالّتحر منها العقودا

كشمس الضّحى بين أتراها

موافين يوماً ليشهدن عيدا

فكم من قتييلٍ بتلك العيون

وكم من قتييلٍ تولّى عميدا

فإن يك عني قسا قلبها

فلم يجعل الله قلبي حديدا

أعبيدك بالله أن تشتمني

بنا واشباً أو تطيعي حسودا

وقال جران العود، وقد تزوّج فلقي منها برحاً، وكانت حسنة الشّعر فقال:

ألا لا يغرنّ امرؤٌ نوفليّةً

على الرّأس منها أو ترائبٍ وضّح

ولا فاحمٌ يشفي الدهان كآته

أساود يزهاها بعينيك أفطح

وأنشد لآخر:

لا تنه قلبك أن يتوق إلى الحمّا

إنّ القلوب إلى سعاد تتوق

فرعاء تسحب من قيامٍ شعرها

وتغيب فيه وهو جثل مونق

فكأنّه ليلٌ عليها مغدّفٌ

وكأنّها فيه نهارٌ مشرق

وأنشد لآخر:

مقدورةٌ ما أن لها مثل

لي عندها العبرات والحبل

ولعينها من عينها كحل
بين الروادف والحشا نصل

فلشعرها من شعرها زجل
إن شئت قلت، إذا هي انصرفت،
وأشدد لآخر وذكر طول العنق:

تبليل أرداف لها ومحاجر
بمنهلة صبت عليه الغدائر

وأعجبتني فيها غداة لقيتها
وجيد كأملود الرخامى رعاية

وقد وصفوا الأفواه والريق والشفاه

قال بعضهم:

بردٌ تحدّر من غمام ماطر
من كلّ داءٍ باطنٍ أو ظاهر .

ومقبّلٌ عذب المذاق كأنه
هنّ الدّواء لدائنا، وشفأؤنا

وقال ذو الرّمة:

وفي اللّثة وفي أنيابها شنب

لمياء في شفتيها حوة لعس

العلاقة بين الريق وطيب الريح

والعرب يزعمون أنّ أطيّب الأفواه أفواه الطّباء؛ كما أنّ أبعارها أطيّب رائحةً من سائر الأباغر. ويزعمون أنّ ليس في السّباع أطيّب أفواهاً من الكلاب. وفي النّاس أطيّب أفواهاً من الرّنج. ويزعمون أنّ علّة ذلك كثرة الريق، لأنّ علّة الخلوف، جفوف الريق، والبحر يحدّثه الكبر وقد اعترى إشرافاً من النّاس.

الشيخ البخار

قال: سارر أبو الأسود الدؤولي عبید الله بن زياد، فلما أدنى فاه من أنف عبید الله خمر أنفه عبید الله فجذب أبو الأسود يده فنحّاهما، وقال: إنك والله لن تسود حتى تصير لسرار الشيخ البخار. فعجب النّاس من جلده ومراسه. والأفواه الموصوفة بالتّن أفواه الأسود وأفواه الصّقور.

النّهي عن استعمال المسواك

والشّعوبيّة وغيرهم ينهون عن السّواك. وقالوا: إنّما يعترى الخلوف من يستاك، والمره من يكتحل والشّعث من يدّهن. وزعموا السّواك يقلّل الأسنان ويأكل ما عليها من اللّحم، أي اللّثة، ويذهب العمور

التي بينها ويرخيها.

وقال حسين بن مطير:

عذابٌ ثناياها عجافٌ قيودها

بمرجّة الأرداف هيفٌ حصورها

يريد أنّها صلابٌ عجافٌ غير وارمةٍ ولا مسترخيةٍ والسّواك يوهنها ويزيلها عن أماكنها.

الدّفاع عن السّواك

وزعموا أنّ السّواك يجلب ماء الوجه فيغني على الأيام نضرة اللون وحمرة الوجنات، كما يصنع رضاع الطّفل في لبة المرأة وفي لون وجهها فإذا تحلب الماء المستكن في الغلاصم والأفواه أعقب ذلك في الأفواه جفواً، فإذا جفّت لعد الرّيق أدثرتها خلواً. فقال من ردّ على هؤلاء: قد علمنا أنّ من أعظم الأمم التي عليها مدار الأمور في العقل والعلم والرّضا قد اجتمعوا على السّواك والخضاب فلو كان السّواك يورث البخر لم تكن هاتان الأمتان مع ما فيهما من بعد الغور وشدة الغزل بالنساء والتّقرّب إلى قلوبهنّ والاستهتار بهنّ ليجهل هذا القدر من العيب الفاحش. فمن أحبّ أن يعرف إفراط العرب في الغزل والصبابة بالنساء فليقرأ أشعارهم وأحاديثهم الإسلاميّة، وليقرأ كتب الهند في الباه، ولو تتبعت أشعارهم في استعمال النساء للسّواك لطال به الكتاب.

عمر والمرأة

وعن عمر بن دينار، قال: سمعت الحسن بن علي، عليهما السّلام يقول لذريح بن سنّة: حل لك أن فرّقت بين قيسٍ ولبنى! أما إنّي سمعت عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، يقول: ما أبالي مشيت إلى الرّجل بالسّيف أو فرّقت بينه وبين امرأته! .

إنّمه في عنقها

قال الزّبير بن بكار: دخلت عزة على أمّ البنين بنت عبد العزيز فقالت: أقسمت عليك بأيّ شيءٍ وعدت كثيراً حيث يقول:

وعزة ممطولٌ معني غريمها

قضى كلّ دينٍ فوفّي غريمه

قالت لها: وعدته فمطلته سنة، فلمّا ألحّ في التّقاضي هجرته، فضمّني وإياه طريقٌ بعد حينٍ فاستحييت منه فقلت: حيّاك الله يا جمل، ولم أحيه، فقال:

فحيّ ويحك من حيّاك يا جمل

حيّتك عزة بعد الهجر وانصرفت

مكان: يا جميل؛ حيّاك يا رجل

ليت التّحيّة كانت لي فأجعلها

وهو على تقاضيه إلى اليوم. قالت: أقسمت عليك، ألاّ قضيته إياه وإثمه في عنقي؟.

أريحيّة عبد الملك بن مروان

أبو عبيدة قال: كان بأرض الحجاز رجلٌ له ابنةٌ جميلةٌ فهو يها ابن عمّ لها فبذل لها أربعة آلاف درهم، فأبى أبوها أن يزوّجها منه، وأجدبت البادية، فدخل ابن عمّها على عمّه ذات يومٍ فشكا إليه ما يلقي. فقال له: قد كنت بذلت لنا أربعة آلاف درهم، فأعطينا إياها، فأنت أحبّ إلينا لقربائك. قال له: أجّلني شهراً. فأجّله، ولم يكن مع الفتى إلاّ ناقةٌ، فركبها ومضى إلى عبد الملك بن مروان فطلب الإذن فلم يؤذن له. فقال: إني رسول فلانٍ عاملٍ أمير المؤمنين على الحجاز. فأدخل عليه من ساعته. قال: معك كتابٌ من فلان؟ قال: لا، قال فرسالة؟ فأنشأ يقول:

أدلى إليك بلا قربي ولا سبب

ماذا يقول أمير المؤمنين لمن

موصوفةٍ بكمال الحسن والأدب

مدلّة، عقله من حبّ جاريةٍ

بذكرها، والهوى يدعو إلى العطب

خطبتّها إذ رأيت الناس قد لهجوا

قالوا: الدرّاهم خيرٌ من ذوي الحسب،

فقلت، لي حسبٌ زكّ، ولي شرفٌ

ولست أملك غير الحسّ والقتب.

إنا نريد ألوفاً منك أربعةً

واجمع بما شمل هذا البائس العرب

فامنن عليّ، أمير المؤمنين، بما،

أنت الرّجاء وأقصى غاية الطّلب

فما وراءك، بعد الله، مطّلبٌ،

فضحك عبد الملك وأمر له بأربعة آلاف درهم، وقال هذا صدق أهلّك، وزاده أربعة أخرى وقال له أو لم بهذه، وأنفق عليها منها. فقبضها ومضى. فتروّج بالجارية.

خبلت عقله

وكان إسحاق بن سليمان بن علي شاباً ظريفاً، محباً للشعر. فخرج ذات يوم، وأبوه يلي البصرة، لأبي جعفر المنصور، متزّهاً إلى ناحية البادية. فلقي أعرابياً فصيحاً إلاّ أنّه شاحب اللون، مصفراً، ظاهر التّحول فاستنشده، فمضى عنه، فقال له ما بالك، فوالله، إنك لفصيحٌ! قال له أما ترى الجبلين؟ قال: قلت بلى. قال: في طلاهما ما شغلني عن إنشادك. قلت: وما ذاك؟ قال: ابنة عمّلي قد تيمّنتني، وأذهلت عقلي، وتالله أنّه يأتي عليّ لا أدري أفي السّماء أنا أم في الأرض. قال: قلت وما يمنعك منه؟ قال: قلّ ذات يدي!.

قلت: وكم مهرها؟ قال خمسون ناقةً. قال: قلت: فيزوّجونك إذا دفعتها؟ قال: نعم. فقلت له أنشد لي ممّا قلت فيها! فأنشدني:

غزالان مكحولان يرتعيان

سعى العلم الفرد الذي في طلاله

وخبلاً ففاتاني وقد خبلاني.

أرعتهما صيداً فلم أستطعهما

قال. فقلت له: يا أعرابي، لقد قتلتني بقتلك، فنفيت من العباس إن لم أقم بأمرك. فرجع إلى البصرة فأخذ جماعةً من أهله وما أحتاج إليه، وحمل معه الأعرابي، وسار إلى الجارية فخطبها إلى الفتى، فزوجه، وساق إليه خمسين ناقةً وأقام عندهم ثلاثة أيامٍ نحر فيها ثلاثين جزوراً، ووهب للأعرابي وللجارية مثل ذلك، وانصرف إلى البصرة.

لا يخفى عنه مخاطبة الكاتب والحاك

قال نبطويه: لما فرغ المهدي من بناء قصره ركب للنظر إليه، فدخله فجأةً وأخرج من هناك من الناس، فبقي رجلان خفيان عن أبصار الأعوان، فرأى المهدي أحدهما وهو دهش ممّا يفعل فقال له: بمن أنت؟ قال: أنا أنا قال: ويحك: لا أدري! قال: لك حاجة؟ قال: لا. قال أخرجوه أخرج الله نفسه فدفع في قفاه، فلمّا أخرج قال لبعض الغلمان: اتبعه من حيث لا يعلم حتى يصل إلى منزله، فأسأله عن صنعته فإنّي أحاله حائكاً. فخرج الغلام يقفوه ثم أتى الآخر فاستنطقه فأجابه بقلبٍ جريءٍ، ولسانٍ طلقٍ، قال له: من أنت؟ قال: رجلٌ من أبناء رجال دعوتك. قال: فما جاء بك إلى ههنا؟ قال: جئت لأنظر إلى هذا البناء الحسن، وأتمتع بالنظر إليه، وأكثر الدعاء لأمر المؤمنين بطول البقاء ودوام العزّ، وهلاك الأعداء. قال: ألك حاجة؟ قال: نعم، خطبت ابنة عمّي فردّني وقال: لا مال لك. وإني لها عاشقٌ، وبها وامقٌ، قال: قد أمرت لك بخمسين ألف درهم قال: جعلني الله فداك، يا أمير المؤمنين، قد وصلت فأجزلت الصلّة، ومننت فأعظمت المنة. فجعل الله باقي عمرك أكثر من ماضيه، وآخر أيامك خيراً من أولها، وأمتعك بما به أنعم عليك، وأمتع بك رعيتك. فأمر أن تعجل صلته ووجهه بسلامٍ آخر معه قال: سل عن مهنته فإنّي أحاله كاتباً: فرجع الرسولان جميعاً فقال الرسول الأول: وجدت الرجل حائكاً، ولم يرجع إليه قلبه، ولا تاب إلى نفسه. وقال الآخر: وجدت الرجل كاتباً. فقال المهدي أنا ابن المنصور لا يخفى عني مخاطبة الكاتب والحاك.

أريحية الجارية برير؟

قال أحمد بن أبي خثعمة: أخبرني مولاة، كانت لآل جعفر بن أبي جعفر المنصور، قالت: علق عيسى بن جعفر جاريةً لأمّ ولده فمنعته إياها غيرهً عليه، وتبعته نفسه، فدرست جاريةً لعيسى يقال لها برير إلى مولاتها في أن تبيعها منها، وأرغبها، فباعتها منها، فأخذتها برير فصنعتها وكانت لبرير من عيسى ليلةً فوجه إليها بخلعةٍ وبقدحٍ غاليةٍ تضمخ به شعرها.

فلما كانت ليلتها ألبست الجارية الخلعة وضمخت رأسها ووجهت بها إليه، فلما رآها سألتها عن حالها فأخبرته بالخبر. وإنها آثرت هوى نفسه على هوى نفسها. فسرت بذلك ودعا برير فأعتقها وتزوج بها ومهرها ضياعاً بالكوفة لها قدر. فقالت برير: إن من شكر الله على ما وهب لي من رأي أمير المؤمنين أن أجعل ما أعطاني من هذه الضياع قربةً لله عزّ وجل، تجري للأمير وليّ أجرها. فأوقفها على أهل بيت من الأنصار منهم ابن معاذ فلم يزل ذلك يجري عليهم.

زوجها الرشيد وأمر لها بالمال

قال إبراهيم بن المهدي: حجبت مع الرشيد، فلما كنا بالمدينة خرجت إلى العقيق أسير على دابتي وليس معي غلامٌ، فوقفت على بئر عروة وعليها جاريةٌ سوداء وفي يدها دلوٌ تملأ قربةً لها، فقلت: يا هذه اسقني. فنظرت إليّ وقالت: أنا مشغولةٌ عنك. فقرعت قربوسى بمقرعتي موقّعةً بها على القربوس، وغنيت. فلما سمعت ذلك متي ملأت دلوها وبادرت به إليّ وقالت: اشرب يا عمّ فشربت، فقالت: بالله يا عمّ أين أهلك أحمل إليهم هذه القربة؟ فقلت: بين يدي. فمضت معي حتى أتت المضرب فلما رأت الولدان والخدم ذعرت، فقلت لها: لا بأس عليك. وأخذت الماء وأمرت من وصله، فقال لي الغلمان: قد جاء رسول أمير المؤمنين مراراً فمضيت إليه، فقال لي: أين كنت؟ فأخبرته بخبر الجارية، فأمر بطلبها، فأتي بها، فأمر بابتاعها من مولاتها، وأعتقها، وقال لها: هل من تودينه يودك وتحيينه يحبك؟ قالت: نعم عبدٌ لآل فلان. فأمر بابتاعه وأعتقه ثم زوجها إياها، وأمر لهما بمال.

أرجعه من اليمن وزوجه من يحب

حجّ الرشيد سنة إحدى عشرة من خلافته، فلما نزل بالكوفة، بعد قفوله من الحج، دعا إسماعيل بن صبيح فقال: إني أردت الليلة أن أطوف في محال الكوفة وقبائلها فتأهبّ لذلك، قلت: نعم. فلما مضى ثلث الليل قام وقمت معه، وركب حمارةً وركبت أنا آخر، ومعى خادمٌ ومعه خادمٌ من خاصّة خدمه. فلم نزل نطوف المحال والقبائل حتى انتهينا إلى التّخع فسمعنا كلاماً. فقال الرشيد لأحد الخادمين: أدن من الباب

وتعرّف ما هذا الكلام؟ فتطلّع من موضعٍ في الباب فرأى نسوةً يغزلن حول مصباحٍ وجاريةٍ منهنّ تنشُد شعراً وتردّد أبياته وتتبع كلّ بيتٍ برنةٍ وأثّةٍ، وتبدي زفرةً، وتفيض عبرةً، والتسوان اللواتي معها يبكين لبيكاتها فحفظ الخادم من شعرها هذه الأبيات:

هل أرى وجه حبيبٍ شفني،	بعد فقدانيه، أفرط الجزع؛
قد برى شوقي إليه أعظمي	، ولى قلبي هواه وفرع
ليت دهرًا مرّ، والقلب به	جدلٌ، والعيش حلواً قد رجع؛
وعفت آثاره منه فيا،	ليت شعري، ما به الدّهر صنع؟
قد تمسّكت على وجدي به	بجميل الصّبر، لو كان نفع.

فقال للخادمين: أعرفا الموضع إلى غد. ورجعنا إلى البصرة، فلما طلع الفجر وفرغ من صلاته وتسبيحه، قال للخادمين: أمضيا إلى الدّار فإن كان فيها رجلٌ من وجوه الحيّ فجيئنا به حتّى أسأله عما أريده. فسار الخادمان إلى الدّار فلم يجدا فيها رجلاً، فدخلوا إلى مسجد الحيّ فقالا لأهله: أمير المؤمنين يقرأ عليكم السّلام ويقول لكم: أحببت أن يجيئني منكم أربعة أسألم عن أمرٍ. قالوا: سمعاً وطاعةً. وقاموا معهما فدخلوا على الرّشيد، فقرّبهم وأدناهم، وقال لهم: طفت البارحة في بلدكم تفقّداً لأحوالكم، فسمعت في دارٍ من دياركم امرأةً تنشُد شعراً وتبكي. وقد خفت أن تكون مغيبةً، وأن نزع التّفنّس أهون من نزع الشّوق، وقطع الأوصال أهون من قطع الوصال، وقد أحببت أن أعرف خبرها منكم. قالوا: يا أمير المؤمنين، هذه البارعة بنت عوف بن سهم كان أبوها زوّجها ابن عمّ لها يقال له سليمان بن همام على عشرة آلاف درهم، فهلك أبواهما من قبل أن يجتمعا، فاكتتب زوجها مع عاملك إلى اليمن لقلّة ذات يده، وخرج منذ خمس سنين، فحزنت عليه، وطال شوقها إليه، فهي تنشُد الأشعار فيه وتستريح إلى ذكره. فأمر الرّشيد من ساعته أن يكتب إلى عامله باليمن في حمل سليمان بن همام على البريد إلى حضرته إلى بغداد.

فما مضت أيّامٌ بعد وصول الرّشيد حتّى دخل عليه إسماعيل بن صبيح، فقال: يا أمير المؤمنين قد وصل التّخعي الذي أمرت بحمله إليك. فأمر بإدخاله عليه، فنظر إلى رجلٍ معتدل القامة، ظاهر الوسامة، ذرب اللسان، حسن البيان، فقال: أنت سليمان بن همام؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال له: أقصص عليّ خبرك! فقصّ عليه الخبر فوجده مطابقاً لما خبره به الأربعة التّفنّ، فأمر له بعشرين ألف درهم، فأخذ ذلك من يومه ورحل إلى الكوفة فدخل بأهله وكان الرّشيد يتعاهده ببرّه. تمّ الكتاب بعون الله وتوفيقه

2	باب ما جاء في وصف النساء
2	المرأة بين معاوية وصعصعة
2	قضاء عمر في المرأة
2	الشترّ مجلبة للجّماع
2	اقتلها وعليّ إثمها
2	غدرت به زوجته فقتلها
3	رأي الحكماء وغيرهم في المرأة
3	رأي أعرابي في النساء
3	الدّنب يساوي الطّلاق
3	رأي عبد الملك في الجوّاري
3	الأصمعي وبنات العمّ
3	أعوذ بعدلك يا أمير المؤمنين
3	من جور مروان
7	الذي جاء شرّاً من الذي مرّ
8	أعرابي يصف رجلاً جميلاً
8	رأي عائشة في خطيبة الرّسول
8	صلّى الله عليه وسلّم
8	يرى صورته في وجه قتادة
8	ذو النّسب والحسب قريب من الله
8	إشراق الوجه يجلو البصر
9	جمال الوجه فتنة لعباد الله
9	غدرت بزوجها وخانتها
9	الصّبا تبلسم قلب المحزون
10	فرّقهما الفقر وجمعهما معاوية
10	ألا أيّها الغيران
10	يا حبّذا أمّ الوليد
11	أتصرم حبلي يا جميل؟
11	أنت طالق
12	زينب سبب نفي التّميري وعذابه
13	ترك زوجته وتعلّق بأروى وقسطا
13	شاطرته مالها ولم تدعه للسّفرة
14	منازل الأحبة الخالية تنثير الشّوق
14	شكّنت إلى الله عقوق أبنائها
15	أقنعوه فعفا الحجّاج عنهم
15	باب يذكر فيه
15	من صيره العشق إلى الأخلاط والجّتون
15	خير فورك المجنون
15	خبر المجنون أبي عبد الله
16	فورك في جماعة من الصّبيان
16	أخبار علوية المجنون

17	خبر بعض المجانين
17	شعر فورك في غلامه غلب
17	وصف ظبية بالعفاف فأكرم
17	القيطنون ونكاح الفتيات
18	خبر سلامة الزرقاء
18	مع عبد الرحمن بن أبي عمّار
19	عبد الملك بين عزّة وبثينة
20	تغيّر العادات بالنسبة لعلاقة الرجل بالفتاة
20	هل قبلة المشتاق جناح
20	الحسنات يذهبن السيئات
20	ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى؟
20	سبعة يظلمهم الله بظلمه
21	الزبّاء وعمر بن أبي ربيعة
21	ليلى الأخبيلية والحجاج
22	العفاف أيام زمان
22	للعشيق من حبيبته نصفها الأعلى
23	عادات أهل طبرستان في الزواج
23	العقلاء والمجانين
23	فقد تفيف عاشق زوجة أخيه
24	من يفعل مثقال ذرة خيراً يره
25	هذا طالب ولد
25	السبيل لدخول المرأة إلى الجنة
25	راودته عن نفسها فأبى
26	يعاملها بما يرضي الرب
26	ردّ الجارية ولك الجنة
26	جود عبد الله بن جعفر
27	الزنا أنواع
27	أخبار أهل العفاف
27	الحبّ ما لا يغضب الرب
28	ليلى وقيس بن الملوّح
28	عفراء وعروة بن حزام
28	مئة وذو الرمة
28	الأمر ما تصفون، ولكن
28	عفراء بنت أحمر والحارث بن الشريد
29	أسماء بنت عبد الله وكامل بن الرّضين
29	أوصاف الهوى
29	العشق لسعة من جنون
29	الهوى والطلول
29	الهوى والتّار
30	الهوى والبلاء
30	الهوى والطبيب
30	الهوى والموت

- 30 الهوى وأغصانه
- 31 الهوى المتجدد
- 31 سكينه بنت الحسين وعروة بن أذينة
- 31 أهل الذعاوي الباطلة
- 32 أحب قلبي وما درى بدني
- 32 البطنة تذهب الفطنة
- 33 المغنّية محبوبه والمتوكل
- 34 من أحاديث بني عذرة
- 35 طعم العشق
- 36 عروة بن حزام يموت ملوعاً
- 36 لا ذنب على أهل الهوى
- 37 لو أدرك عمر عفراء وعروة لجمعهما
- 37 العرجي المحتال
- 38 أهل العشق صحيح مساكين
- 38 داؤهما دواؤهما
- 38 البعيدة القريبة
- 38 بعدها دهرٌ والساعة شهرٌ
- 38 رعت لعيسى الودّ
- 39 الطلاق بين سعة الثقبه وسرعة الإنزال
- 39 لبنى وقيس بن ذريح
- 39 الحجّاج وابنة عبد الله بن جعفر
- 39 زينب بنت مرّة والمغيرة
- 39 الإثم لها في الآخرة
- 40 ولات ساعة مندم
- 40 راودها عن نفسها ثم تزوّجها
- 40 عرضوا عليه زواج البصريّة فأبى
- 41 أهكذا تجازى النساء؟!
- 41 حرها واسع
- 41 الأهوازية أشدّ ذكاءً
- 42 شعر قيس بعد زواج ليلي
- 42 أيريد فحلاً لبناته
- 42 هي طالق ألف مرّة
- 43 طلقها وندم
- 43 أحب إليه ليلة طلق فيها نساؤه
- 43 أو ضيق الفرج أو الطلاق
- 43 طلقها ثلاثاً
- 43 حلوة الجماع
- 44 طلقها عدد شعر مؤخرتها
- 44 يلتمسون الضيق ضيق الله عليهم
- 44 مكابدة العفة أيسر من الاحتيال
- 44 شرط فسخرت منه فطلقها
- 44 طلقها فتزوّجت رجلاً دميماً

45	الكاذبة الفاجرة الضارطة
45	باب ما جاء في الغيرة
45	الكلام عن بعد ممنوع
46	عادة غير مستحسنة
46	غيرة المرأة على قدر لذتها
46	تكرم طبرستان من العجائب
46	ثلاث خصال من السؤدد
47	غيرة قيس بن زهير
47	عبد الملك يعيب قولاً على نصيب
47	بعض عادات العرب
48	الغيور المتمطق
48	الغيور في نظر الراعي
48	ابن الدمينه وخميص الحشا
48	الذارمي لا يفارق عرسه
49	شعراء ماتوا قتلاً
49	شعر سحيم الإباحي
50	كاد يقتلها عقيل المرّي
50	عقيل وابنته الجرباء
50	مقدمات الغيرة
51	عبد الله بن راحة وزوجته
51	المصيبة في معاتبة المرأة الرجل
51	يخاف عليها من عينها
52	سعيد بن سليمان والإنكشاف
52	حتى على العميان
52	باب تابع لما قبله
53	يجوعهن حتى لا يأثرن
53	هارون البردعي والعطار
54	شيئان لا تؤمن عليهما المرأة
54	سوء الظن من شدة الحب
54	لا تأمنن النساء
54	ديك الجن وجاريتته وغلّامه
55	الرازي وبدر الثمام
55	غيرة أبي تمام
55	غيرة جميل بن معمر
55	علي الجعفري وحرارة الهوى
56	لا تسألن رجلاً فيم يضرب امرأته؟
56	أبو الأصبع وبناته الأربع
57	لا تكثرُوا الغيرة على أهلکم
57	مدّ يده فلمس أربعاً
57	غيرة سليمان بن عبد الملك
60	غيرة عقيل بن علقمة
60	غيرة سعد بن عبادة

61	أهدر دمه ولم يتمتع بها
61	هند وزوجها روح
62	والشنفرى يدلي بدلوه
62	الغيرة المفرطة
62	أبت أعرافه إلا احمراراً
62	لقمان الحكيم الغيور
63	عمر والتَّعمان بن نضلة
64	أثر الغيرة عند روح بن زنياع
64	عبد الله بن سيرة الشَّدِيد الغيرة
65	حما زوجة ابن الدَّمينة
65	ليلى وحارثة بن عوف
66	الغيرة من الإيمان
66	الجَّهاد على الرِّجال والغيرة على النِّساء
66	رأي لعلِّي في المرأة
66	الأحوص وأم جعفر
67	من الغيرة إلى البوادي
67	لم يكن شأنه العفاف ولكن . . .
68	إذا نام الحارس أفاقت العقرب
68	الدُّناب تعدو على من لا كلاب له
68	لا يراعي لابن عمّه محرماً
69	عائشة تغار على خديجة
69	باب ما جاء في وفاء النِّساء
69	تعاهداً ألا يتزوَّجا
70	على العهد باقية
71	كان يحسبها راعية للعهد
71	أذات عروس ترى؟!
71	لا تتكحلي أغمّ القفا
72	خنت يا فلانة عهدي
73	ماتا ودفنا معاً
73	أرادها لحسن ثغرها فقط
74	لا حرّ بوادي عوف
74	من أحاديث المحبِّين
74	خانته وبموتها وفّت له
75	لم يلتفت إليهنّ
76	نساء قريش خير النِّساء
76	ماتت في الطريق
77	تستحييه في الحياة والممات
77	المبكرة إلى القبر
78	الوفاء في الجاهليّة يختلف عنه غي الإسلام
78	الوفاء والذكاء
78	قصة عاشقين
80	باب ما جاء في غدر النِّساء

80	رأي عمر في النساء
80	رأي الملك عمرو في النساء
80	رأي طفيل الغنوي في النساء
80	إن تقويم الضلوع انكسارها
80	في خلافهنّ البركة
80	علقة طبّ بأدواء النساء
81	تلين لك ولغيرك
81	تحجّ وتكشف عن وجهها للشباب
81	للفارس العجلان منها نصيب
81	لم تكن عنده شريفة
82	لا يشتهي الفاجرة
82	الإصبع لا تستر زانية
82	الباغية دون اكتفاء
82	إذا غاب بعلّ جاء بعل
82	تزوجته وطافت بالبيت عريانة
83	الثفيق عند الزبير بن بكار
84	تزوجته قبل انقضاء عدتها
84	هل يزول الهوى بعد الموت
85	لم ترع لبعْلِها حرمة
85	تركها وأوصى بها فخانته
85	لم ترع عهداً ولم يرع قرابة
86	عن قريبٍ تبيع كفلها
87	غدرت حتى بأبيها
88	وصلت الخيانة حتى إلى أمّ البنين؟
89	استطعن التّخلص في آخر لحظة
92	فاجرة السرداب
93	باب ما جاء في الزّنا والتّحذير من عواقبه
93	سيئات الزّنا
94	المقيم على الزّنا كعابد وثن
94	هؤلاء اللواتي يزنين
94	الله يبغض ثلاثة
94	أعظم التّوب أن تزاني حليّة جارك
94	مسؤوليّة الرّجل
95	الزّنا يجمع خصال الشّرّ كلّها
95	الملك زائلٌ وما تدين تدان
95	كمثل الشّيطان إذ قال للإنسان أكفر
96	الزّنا يورث الفقر
96	إياكم وفضيحة النساء
96	راودته فامتنع فسمّته
97	راودته فامتنع فسمّته والدها
97	أفضل الثلاثة: العفيف الجواد
97	ساد بعفاهه

97 العوام أكثر النَّاسِ عذراً
98 شهادة المسح ع
98 أحبلها بنظراته
98 رشقوها بأبصارهم فعتقتهم
98 أربعٌ لا يشبعن من أربع
98 يخاف عينيها
99 حلقت شعرها لأتته رآه خصي
99 الزنا ليس فقط بإجهاد النَّفس
99 ليلة الدَّير وما ليلة الدَّير؟
99 لو تمرَّست به ما استعصمت
99 منعه ثلاثةٌ عندها
99 عيدان القيان أجمل
100 بغت ثلاث مرَّاتٍ
100 على غير ذنبٍ جناه
101 الله يعلم شأن ذاك الجار
101 اختبره ونفاه
102 قال ما لم يفعل
102 طلب غنيمة فوجد أيراً
102 طيِّبةٌ عليه حراماً
102 زوجة الرِّشيد ومخارق
103 أخذ الجارية والعنيدة والدنانير
104 أخذ الجارية لشعره وأدبه
104 المتوكل يعيش همَّ المحبين
105 خدعها القواد
106 حسب الاتفاق بعد حين
106 يغلبن الكرام ويغلبهنَّ اللئام
106 تقبها ثقب اللؤلؤ
107 ألحقوا النساء بأكفائهنَّ
108 أحبيت نفسي بقتل نفسك
109 طلق ابني وزوجها لقيس
110 مكر به في امرأته
111 رياً وعمرو وبساط التوم
112 مواعيد بثينة وجميل
112 دخل وأجبر على تركها
113 الزنا بالجملة
114 حلف ألا يجتمع بها ثانية
114 كفى أخاه العذري ما أصابه
117 نساؤهم شرَّ النساء والفرع يجري على الأصل
118 المهدي وحديث العشاق
119 المنتصر بالله وجارية سعيد الصَّغير
120 من أحاديث المؤلفين
120 ذكاء السِّفهاء والقوادين

120 كان يمزح
121 من أخبار المختئين
121 حبابة وسليمان بن عبد الملك
121 حديث سمينة الزانية
123 هل حفصة كذلك؟!
123 عاتكة المزوجة
124 ابن زهير المخت القواد
124 جميل وبثينة، وكثير وعزة
125 شروط الزواج عند الجاحظ
126 ليس لهنّ من يعشقهنّ
126 سماها ليلي
126 أمرته بتقوى الله
126 النساء فتن الرجال
127 رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق
128 كانت تنزيه بين يديها
128 القوادة لا يشفع فيها إلا زان
128 هل ينبت الحبّ إلا أن يزرع
128 باب ما جاء في ما لا يحاط به
129 المأمون: يا ليتني كنت الرسول
129 المتنبي: أنا أهوى وقلبك المتبول
129 بعض المحدثين: شغلنتي وشغلنت عني
129 أبو نواس: شمّر ثيابك
130 رأي الأهوازي في القوادة
130 شروط مناجاة الغادة
130 زهدا يغزّ العيون
131 قامتها غصن بان ممطور
131 الماشية على الماء
132 عيبه إصلاح شأن العشائر
132 قوادّ يخلي منزله بدرهمين
132 المتكامل
132 نحن منصرفان
132 باب ما جاء في خلق النساء
132 أوصاف النساء
134 اختلاف الناس في أمور عدّة
135 لا يريد لها خنّاء قباء
135 تفضيل المرأة المجدولة
136 وفي اختلافهم في الثدي
137 في الممسوحة الصدر
137 آراء في طول الأعناق
138 آراء في صفة الأركان
140 ما قيل في الضخمة
141 وقد وصفوا الأفواه والريق والشفاة

141	العلاقة بين الرّيق وطيب الرّيح.....
141	الشّبخ البخر.....
141	النّهي عن استعمال المسواك.....
142	الدّفاع عن السّواك.....
142	عمر والمرأة.....
142	إثمه في عنقها.....
143	أريحيّة عبد الملك بن مروان.....
143	خبّلت عقله.....
144	لا يخفى عنه مخاطبة الكاتب والحائك.....
144	أريحيّة الجارية بريير؟.....
145	زوّجها الرّشيد وأمر لها بالمال.....
145	أرجعه من اليمن وزوّجه من يحب.....

To PDF: <http://www.al-mostafa.com>